مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف

اصْطيفان اگْصيل

ترجمة

محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE

DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الخامس

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الرباط، 2007

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ

شمال أفريقيا القديم

تأليف

اصْطيفان اگْصيل

ترجمة

محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE

DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الخامس

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط المملكة المغربية

تليفون (037) 75.51.46 / (037) 75.51.99

البريد الإلكتروني E-mail : alacademia@iam.net.ma

فـاكس (037) 75.51.01

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اكْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1945

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-058-3 (الجزء الخامس)

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط 2007

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭْصيل

الكتـاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

مـدخـل

1

سندرس في الجزأين الخامس والسادس من هذا التاريخ النظام الاجتماعي والسياسي، والحياة المادية وأخلاق الأهالي ومعتقداتهم في الأزمنة التي لم يكونوا فيها عرفوا الخضوع لروما. وسيكون الحد الجغرافي لهذه البحوث هو الحاشية الشمالية للصحراء.

إن التيبستي le Tibesti اليوم – ومن بين الصحراء كلها – هو وحده الأرض التي يقيم فيها السود وهم في أراضيهم. ولاشك أنهم سكنوه منذ عهد بعيد جدا. وفي جهات أخرى، فإن أقواما سود اللون أو ذوي لون غامق على الأقل، يحرثون جل الواحات. وهي على العموم أماكن غير صحية. ومع ذلك فيمكنهم العيش بها لانهم عادة لا يتأثرون بالحمّى. فبعضهم يرجع لأصول سودانية، وبعضهم مستولدون من سودانيات ورجال بيض. كما ينحدر بعضهم الآخر من السكان الذين سكنوا الصحراء منذ عهد بعيد، والذين توالدوا بكثرة مع الأقوام الواردين عليهم.

غير أن هؤلاء الرجال لا يملكون الأرض التي يشتغلون فيها. والأغلب هو أن البساتين يملكها البربر[1] الذين لا يسكنون بالواحات، لأن مناخها لا يناسبهم، وليس لهم بها مخازن للغلال. فهم رحّل يعيشون في الهواء الطلق، ويتحملون الفوارق المناخية الكبرى، وينتقلون بقطعانهم إلى حيث يجدون الماء والمراعي. ويقتطعون لأنفسهم أكبر قسط مما أنتجته جهود السود. وحتى البيض الذين يسكنون الواحات بصفتهم تجاراً أو ملاكا، فإنهم في الأغلب في حماية وتبعية الرحّل. ويؤدون لهم الأتاوات، ويحتفظ الرحّل لأنفسهم بعمليات نقل البضائع التجارية.

فلأي عهد يرجع هذا الوضع؟

المتأكد هو أن البيض كانوا سادة للصحراء في القرنين التاسع والعاشر للميلاد. فالإسلام كان آنذاك يتقدم خلال الصحراء، وبها التقى مع البربر فأسلموا. أما عن الأزمنة السابقة فلا نعرف سوى شهادة واحدة، وهي توجد في بحث جغرافي صغير كتب حوالي 350 (م) ورد فيه: «جنوبي إفريقيا - أي إفريقيا الرومانية الرسمية وهي طرابلس وتونس - تمتد صحراء واسعة جدا، وعلى ما قيل يسكن في بعض المواقع بها عشائر من البارابار Peuplades barbares ليسوا كثيري العدد، ويسمون مازيك وأتيوبيين»[2]. وكما سنرى فإن لفظة مازيك Mazices تطلق لزوما على البربر.

لا يبدو أننا نستطيع العودة إلى تاريخ أبعد في القدم. ذلك أن سيطرة الرحّل على الصحراء كانت نتيجتها تربية الجمل، لكن لم يبرهن على وجود هذه الحيوانات بكثرة في إفريقيا إلا من بداية القرن الرابع، ولربما تكون قد انتشرت بها منذ القرن السابق، إذ لا يمكن أن نفسر

بغير هذا تلك العلاقات التي لا شك أنها كانت نشيطة جدا وواسعة بين ولاية طرابلس وداخلية القارة في عهد حكم السيفيريين Les Sévères.

ولا شك أن أغلبية البربر الذين جاءوا إلى الصحراء لم يقيموا عن طيبة خاطر بهذه المناطق الجرداء. فلابد أن الرومانيين طردوهم إليها. وبالتأكيد ففي عهد السيفيريين حدثت في الحدود التغيرات الكبيرة التي مدت الولايات الإفريقية في اتجاه الجنوب. وفي عهدهم كذلك فرض التقدم الحاصل في الزراعة الاستيلاء على مقاطعات واسعة كانت حتى ذلك الحين متروكة للقطعان الضالة.

إن الجمل قد مكّن المطرودين من الحياة في الصحراء، بل إنه ربطهم بها. فكانوا بها طوال قسم كبير من السنة يوجدون في أحسن الظروف الصحية. وفوق هذا، فبالجمل يمكن للراعي أن يصبح هو المسيطر أو على الأقل المساعد الضروري في التجارة الصحراوية أو التجارة عبر الصحراء. بالجمل يستطيع أن يصل إلى الواحات المنبثة خلال هذه المجالات الواسعة، وأن يفرض عليها سيطرته ويثبتها بها. بهذا أصبح هؤلاء البربر الفارون فاتحين.

ولربما أن الهجرات والفتوحات تدرجت على عدة قرون، وحتى بعد سقوط الشمال الإفريقي في قبضة العرب. وقد ظن البعض أنه عثر من جديد في الصحراء الكبرى على أسماء العشائر التي ورد ذكرها في بلاد البربر في العهد الروماني أو العهد البيزنطي. وكلها مقارنات مشكوك فيها. ومع ذلك فمن المقبول أن تكون عشيرة إيفُراص Iforass التي تعيش في «أدْرار» ترجع إلى عشيرة إيفراس (بالترقيق) Ifuraces التي كانت في القرن السادس تعيش بولاية طرابلس.

ويمكن أن نعزو للرجال القادمين من الشمال إدخالهم للصحراء المقابر المخروطية الشكل والأسطوانية الشكل، المكوَّنة من الحجر الجاف، والمعروفة جدا في وطنهم القديم. كما يُعزى لهم بالتأكيد إدخال الأبجدية ذات الأصل الليبي، والتي يستعملها الطوارق حتى اليوم. ولكن لا ينبغي المبالغة في دورهم التمديني، فقبلهم بعهد كبير كانت هناك واحات مزروعة بإتقان كما يشهد بذلك هيرودت[1]. ولم يكن هؤلاء الرعاة الظواعن يستطيعون أن يعملوا شيئا ما في ميداني غراسة الأشجار والبستنة. ومن الصحيح أن بعض البربر ممن عاشوا عيشة استقرار فيما سبق، قد جاءوا وأقاموا في بعض المراكز بالصحراء، كالهراطقة[1] الذين أسسوا في القرن الثامن سجلماسة على جانب المغرب، وأسسوا في القرنين العاشر والحادي عشر مدينة سدراتة بالقرب من واركْلة ثم مدن مزاب حيث مكثوا. فلا شك أنهم أنشأوا الحياة حيثما كوّنوا لأنفسهم وطنا جديدا. ولكنهم خارج عن واحاتهم لم ينشروا سيطرتهم على الصحراء مثلما فعل الرحّل.

لقد قلنا لماذا نعتقد أن تغلغل هؤلاء الرحّل لم يحدث قبل القرن الثالث للميلاد. والأمر يتعلق هنا بالصحراء الوسطى والغربية بجنوب المنطقة التي ندرس تاريخها. وهناك – على وجه التحقيق – مسوغات للاعتقاد بأن الصحراء الشرقية، بغرب مصر قد كان بها بعض البربر، قبل ذلك بكثير، يسيطرون على الأقسام الصالحة للسكنى بالصحراء الليبية. إن هذه الطوائف من الأقوام البيضاء الذين حاولوا اقتحام وادي النيل منذ الأُسر المصرية الأولى، وقاموا بمحاولات عنيفة في نهاية

(1) لا شك أن الكاتب يقصد بالهراطقة الخارجين عن المذهب السني وهم الخوارج الذين أسسوا مدينة سجلماسة في المغرب حول سنة 140 هـ.

القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر ق.م، لم يكن قدومهم من الأراضي المجاورة للبحر الأبيض المتوسط بين مصر وسَدْرة الكبرى فحسب، بل من جهات بعيدة في الجنوب. وهذه القبائل وهؤلاء الشيوخ تشهد أسماؤهم بأنهم كانوا يتكلمون لغة شديدة القرابة باللهجات البربرية[4]. وبعد ذلك فإن مؤرخا إغريقيا نقل عنه ديودور الصقلي[5] نجده يصف عادات الليبيين المقيمين بشرق الصحراء، وهم على ما يحتمل أجداد المازيك البربر. وكانوا في عهد الإمبراطورية السفلى والعهد البيزنطي يجولون بنفس المناطق. ومنذ عهد هيرودوت فإن النَّصمونيِّين Nasamons وهم إحدى عشائر ساحل سَدْرة الكبرى، كانوا يزورون واحة أوجيلا Augila بجنوب سِرْنيكا (برْقة) ويجمعون منها غلة التمر. فلربما أنهم كانوا بهذا يستعملون حق التملك، على غرار ما يفعله حتى اليوم بعض البربر الرحّل في العديد من الواحات.

وبعيدا إلى الغرب، لا تأتينا النصوص القديمة بأية حجة على وجود لأجداد البربر بالصحراء، ولا حتى في شمال هذه المنطقة. ولا يمكن الاستشهاد ببطليموس الذي ذكر أن بجنوب الولايات الرومانية في ليبيا الداخلية منطقة تسمى جيتوليا Gétulie وعشيرة تُدعى ميلانوجيتول (أي الجيتليون السُّمْر) Mélanogétules. إن الجيتوليين كانوا من البربر. ولكن في هذا الفصل فإن مؤلف العالم الجغرافي الإغريقي مليء بالأخطاء والخلط، ذلك أن أسماء كثيرة لإفريقيا الشمالية تظهر من جديد في ليبيا الداخلية، وهذه أغلاط واضحة.

ويحسن الإصغاء لفقرة واردة في رحلة حنّون التي يرجع تاريخها لما لا يقل عن القرن الرابع ق.م. فيحكي حنّون أنه عندما وصل لمصبّ نهر لِكْسوس العظيم – وهو وادي درْعة بجنوب المغرب – وجد بعض

الرعاة من اللَكْسيين[6] Lixites. فأنشأ معهم علاقات ودية، وأعطوه تراجمة منهم لمتابعة حملته. وفوقهم في الجبال كان يسكن الأثيوبيون الذين لا يحبون الضيوف. إن هذا قد يمكننا من الاعتقاد بأن اللكسيين أنفسهم لم يكونوا أثيوبيين، ولربما أنهم كانوا أيضا يتكلمون إحدى اللهجات الليبية التي يفهمها بعض مرافقي حنّون. غير أنه لا يلزم الأخذ بهذا الاستنتاج المزدوج. وعلى كل فإذا كان اللكْسيون ليبيين، فلابد أنهم كانوا عبارة عن جالية يحيط بها الأثيوبيون. وقبل بداية التاريخ المسيحي بقليل ذكر أن الأثيوبيين كانوا في نفس الحين بساحل دَرْعة وشاطئ المحيط، أي إنهم كانوا يقيمون حيث كان اللَكْسيون الذين لقيهم حنّون.

لقد درسنا فيما سبق النصوص العديدة التي تؤكد أن الحاشية الشمالية للصحراء كانت - حتى القرون المسيحية الأولى - هي الحد بين البيض والسود. فلم يكن بالصحراء حسب علمنا سوى الأثيوبيين، أي الأقوام الذين كانت بشراتهم صُبغا غامقة جدا. ولكننا مع ذلك نجهل هل كانوا شديدي القرابة النسبية بالسود السودانيين الحقيقيين أو كانت لهم خاصيات خِلْقية مختلفة قد توجد أيضا عند الفلاحين من أقيان الواحات.

ولربما أن المستقبل سيعرفنا هل إن أجداد البربر في بلاد البربر لم يسبقهم هؤلاء الأثيوبيون فيها. فإليهم في الصحراء ترجع دون شك هذه الأدوات النيوليثية التي تثير العجب بكثرتها وإتقانها، والتي تكثر فيها السهام التي هي الأسلحة المفضلة عند شعوب إفريقيا الداخلية، والتي يفضل الليبيون عليها الرماح. وهؤلاء الأثيوبيون هم الذين وسَعوا

حقولهم على طول الوديان التي لا تزال تجري فيها الأنهار اليوم. ولابد أنهم تجمعوا في بعض المواقع الممتازة حيث كوّنوا الواحات بغرس النخيل وجرّ المياه.

إنهم في تلك الأزمنة لم يكونوا يخضعون لسادة قادمين من الشمال. وقد تكونت عندهم أمم بالمعنى الحقيقي. نذكر منها الفاروسيين Pharusiens أو البيرُرْسيين Pérorses بجنوب المغرب، والنّكْريتيين Nigrites بجنوب الجزائر[7] والكرمنْطيين (Garamantes) الذين قال عنهم هيرودُت[8] إنهم شعب كثير العدد. وكانوا يسكنون الفزّان، وعلى رأسهم ملك. وقد كان لهذه العشائر، أو للبعض منها على الأقل، ميل فطري للحروب. فكان لها خيول وعربات. وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان االكرمنْطيون يخترقون الصحراء لمطاردة الأثيوبيين الترغْوليين Troglodytes[9]. وقد امتدت سيطرتهم في نهاية القرن الميلادي الأول فشملت قسما من السودان.

وبالتأكيد لم يكن السود الساكنون بالصحراء يجهلون الليبين ولا المستوطنين أو الفاتحين من الفينيقيين والاغريق والرومانيين الساكنين بأرض الليبيين. فقد كانت لهم بهم علاقات تجارية يمكننا تصورها. ومنذ عهد هيرودُت، كانت القوافل – التي لم تكن بها الجمال بعد – تذهب من ساحل السدْرتيْن لتصل إلى أرض الكرمنْطيين. وغربي هؤلاء الكرمنطيين كانت تعيش عشائر تلقّى عنها الكاتب الاغريقي بعض المعلومات. وعلى ساحل المحيط، قام حنّون بتاسيس مستوطنة سيرْني (أي القرن) Cerné التي كان يأتيها التجار الفينيقيون في القرن الرابع للمتاجرة مع الأثيوبيين. وكذلك فإن القرطاجيين كانوا يذهبون إلى حيث لا ندري على الساحل المحيطي لاستجلاب الذهب الذي يأخذونه مقابل

بضاعتهم الزهيدة. والظاهر أن هذا الذهب كان يأتي من السودان. ولربما أن هذا المعدن الثمين كان أيضا ينقل إلى ساحل السدْرَتَيْن بواسطة القوافل التي كانت تخترق إمّا أرض الگرمنطيين وإما بعض الواحات الأخرى.

وقد ظن البعض أنه عثر على علامات للتأثير البونيقي حتى في لغات إفريقيا الإستوائية[10]. ثم إن الخطأ الذي يجعل النيل ينبع من جبال الجنوب المغربي هو خطأ انتشر بين الإغريق قبل القرن الرابع. ويفسر بتشابه نباتات النيل وحيواناته بمثيلها في بعض الأنهار النازلة من الجانب الجنوبي للسلسة الجبلية المحيطية Atlantique، التي كانت تعرف بأنها «جبل الفضة»، وهذا هو الاسم الذي سماها به أحد الإغريق المتقدمين زمنا على أرسطوطاليس[11]. ولربما سماه به أيضا الفنيقيون الذين قد يكونون عرفوا بهذه المنطقة معادن للفضة[12].

ولربما أن هذا النهر – ولكن من ناحية مجراه الأسفل – هو الذي كان في عهد هيرودت قد وصله النصمونيون Nasamons الذين لم يقتنعوا بزيارة واحة أوجيلا أو بالتوجه شرقا حتى واحة أمون الشهيرة، كما كان يفعل الكثير منهم. فاتجهوا نحو الغرب مخترقين الصحراء إلى أن التقوا أخيرا برجال سود يعيشون على شاطئ نهر مليء بالتماسيح.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الصحراويين كانوا يرحلون إلى أراضي البربر. وقد دلنا سْترابون Strabon على الفاروسيين الذاهبين إلى سِرْتا (قسنطينة) لاشك لبعض الأسواق التي كانت تعقد هناك. فكان عليهم أن يخترقوا أراضي فيها مستنقعات وبرك، لم يكن ماؤها صالحا للشرب، لأنهم كانوا يحملون معهم قربا مليئة بالماء مربوطة تحت بطون

خيوليهم، فهي إذن الشطوط الملحة Chotts salés بسهوب المغرب الشرقي وبالجزائر.

ويُحتمل أن البيض والسود في الأراضي التي تجاوروا فيها، لم يأنفوا من التزاوج فيما بينهم. فبطليموس يتحدث عن الميلانوجيتول Mélanogétules [13]. ونستطيع القول من غير تأكيد أن هذا الإسم كان يطلق على عشيرة كان المولدون الهجناء من السود والجيتوليين بها كثيري العدد. ونجهل أين كانت تقع مساكنهم.

لكن العلاقات بين الصحراويين والبيض لم تكن دائما علاقات سلام. ففي حقبة زمنية نجهلها ذهب الفاروسيون Pharusiens والنَكْريتيون Nigrites على ما قيل للقيام بحملة قصد تخريب المتاجر الفينيقية التي على ساحل المحيط [14]. وفي أواسط القرن الأخير قبل الميلاد، حدث نزاع بين بوكود Bogud الملك الموري وبين الأثيوبيين فذهب لمحاربتهم في عقر دارهم. وكذلك فإن السود من سكان المناطق الصحراوية القريبة جدا من أراضي البربر، قد قدموا للمشاركة في بعض الثورات ضد الرومانيين والبيزنطيين في نهاية القرن الرابع وأواسط القرن السادس [15]. ولم يكن الكرمنْطيون يوجهون عنفهم الحربي ضد السود فحسب، فقد كانوا يعرفون طريق السدرتين، وكان يطيب لهم أن يسلكوه عندما تواتيهم الفرص لغزو المناطق التابعة للمدن الساحلية الغنية. وكانوا يأوون الهاربين الذين يلتجئون إلى أراضيهم [16] خصوصا عندما يأتي هؤلاء اللاجئون ومعهم غنائم يطالب الكرمنْطيون بحظهم منها.

وقد اضطر الرومانيون لتأديب هؤلاء النهاب الصحراويين عدة مرات. ولأجل منعهم من معاودة نهبهم وسلبهم. وكذلك لضمان

المواصلات مع السودان فإن الرومانيين جعلوهم إلى حد ما في تبعية مشددة. وحول نهاية القرن الميلادي الأول ذهب بعض ضباط الجيش الروماني إلى قلب إفريقيا عن طريق أرض الكَرَمَنْطيين ، وكان ملك هؤلاء الكرمنطيين هو دليل الحملة. وفي عهد حكم السيڤيريين Sévères فإن الجيوش اتخذت لها مراكز في بعض الواحات الواقعة بعيدا بداخل منطقة طرابلس. ومع ذلك فإن الحدود الرسمية للإمبراطورية في هذه الجهة لم تتعد حاشية الصحراء. بينما في جنوب تونس، وفي جنوب الأوراس وجنوبها الشرقي، فإنها لم تكد تقتحم الصحراء. وأخيرا فإنها من جهة الموريطانيين وقفت بعيدا جدا عن الصحراء.

إذن فمن المحتمل أن البربر – بموافقة رومة أو بدونها – شرعوا في ذلك العهد بالانتشار في الصحارء الوسطى والغربية. فكان هذا بداية لعهد جديد لهذه المنطقة التي لم تشارك حتى ذلك العهد سوى بحظ ضئيل في مصير الشمال الافريقي، والتي يختلف سكانها عن الليبيين في عاداتهم، كما يختلفون عنهم في مظهرهم الخلْقي. ولربما أن إرادة الحصول على العبيد كان من شأنها أن تدفع بسادة الأرض البربرية إلى مناطق السود بالصحراء وبما خلفها من أرض السودان. غير أنه نظرا لأن الاثيوبيين كانوا يبدون قادرين على حماية أنفسهم، فإن هذه الإرادة علاوة على ما ذكر أعلاه لم يكن لها وجود، لأن شمال إفريقيا كان آهلا بالسكان، ولم يكن هناك لزوم ليد عاملة أجنبية. وإذا كانت القوافل العائدة من الجنوب تجلب إلى سواحل البحر الابيض المتوسط بعض السود الذين التقطهم الكرمنطيون، أو الذين وقع اصطيادهم بطريقة أو بأخرى، فلا شيء يبرهن على أن هذه التجارة قد اكتست أهمية كبيرة. إن الصحراء كانت حقا في العهود العتيقة حاجزا مانعا للبربر، ولم يَجْرِ تاريخهم إلا في أراضيهم.

حتى أوائل العهد المسيحي تقريبا، فإن هؤلاء البربر وأرضهم لم يكونوا معروفين معرفة جيدة لدى الإغريق واللاتانيين. وذلك هو ما لاحظه سترابون Strabon في قوله[7]: «إن أكثرية الشعوب التي تسكن ليبيا شعوب مجهولة. وإن قسما صغيرا من هذه الأرض هو وحده الذي وصلته جيوش أو رحالة أجانب. أما الأهالي فقليل من بينهم من يصل إلينا. ثم إنهم لا يقولون كل شيء، ولا يمكن الاطمئنان إلى ما يقولونه».

منذ القرن السابع ق.م. وخصوصا في القرن السادس، فإن كثيرا من إغريق آسيا الصغرى أبحروا في اتجاه الغرب. ولم تلبث مَرْسيليا الفوصية Phocéenne أن أخذت حظا متفوقا في هذه الحركة التجارية. ولم يكتف المقْدامون منهم بالتردد على طرّطِسُوس Tartessos المدينة الإسبانية الكبيرة، التي كانت عند مصب الوادي الكبير Guadalquivir بل تقدموا نحو الجنوب على طول سواحل ليبيا[8].

والمقبول عموما هو أن البحارة الذين كانوا يتجهون لما وراء أعمدة هرقل، كانوا يسيرون مع سواحل أيبيريا. ومع ذلك فيبدو أن السواحل الواقعة على البحر الأبيض المتوسط من أرض البربر لم تكن مجهولة لديهم تماما. وبهذا تجمعت المعلومات التي استفاد منها العِلْم الإيوني، والتي لم يعف عليها النسيان كلها فيما بعد، وإن كنا لم يصلنا منها سوى أصداء ضعيفة.

ثم إن قرطاجة نحَت مزاحميها، فاسرعت بتخريب المستوطنات الدورية التي تأسست ما بين السدْرَتَيْن في نهاية القرن السادس ق.م. وثبتت في حدود منطقتها، متغلغلة داخل سدْرة الكبرى منذ الانصاب

التي سُمِّيت باسم أَضْرِحة فيلين Autels de Philène (أو باسم أضرحة الفيلينيين des Philènes). وأغلقت جبل طارق في وجه الأجانب. وفي القرن الخامس ق.م ذكر هيرودوت العشائر التي كانت على ساحل السدْرَتَيْن وأعطانا عن عاداتها معلومات مقتضبة لعله استقاها من مؤلفات أقدم عهدا[19]. ولكنه لا يقول أي شيء عن الأهالي سكان بلاد البربر فيما وراء الساحل الشرقي للقطر التونسي.

في القرن الرابع ق.م. كُتبت رحلة تحمل خطأ اسم البحَار سيلكْس Scylax المعاصر للملك داريوس. فيها يصف وصفا سريعا سواحل شمال إفريقيا التي على البحر الأبيض المتوسط وكذلك سواحل المحيط إلى مابعد المغرب. ومن المحتمل أن يكون قسم من هذه المعلومات راجعا إلى بعض الجغرافيين الايونيين المتقدمين زمنا على هيرودت. كما أن قسما اخر من هذه المعلومات يبدو من أصل قرطاجي. ونجهل كيف بلغت هذه المعلومات إلى الاغريق. ولا يكاد هذا المؤلف يعرفنا بشيء عن الأهالي. ومثل ذلك يجب أن يقال عن وثيقة بالغة الأهمية في مجالات أخرى، وهي الترجمة الإغريقية لرحلة حنّون.

إن حملة أكاطُكْلِس التي وقعت في نهاية القرن الرابع ق.م. قد عرّفت الإغريق بالعشائر التي كانت تعيش بتونس وبشرق الجزائر. وقد تحدث عنها ديودور الصقلي نقلا عن واحد أو عن عدة من الكتّاب الذين عاصروا الأحداث واستطاعوا الرجوع إلى مصادر حسنة. ومع ذلك فإن روايته لا تهتم بالأهالي إلا قليلا، وبهذا ففائدتنا منه تكون هزيلة جدا.

وكذلك فإن إراتُسْطين Eratosthène كتب في الثلث الأخير من القرن الثالث ق. م مؤلفا ضخما في الجغرافية، ذكر فيه المقاييس العامة للأرض المسكونة وأين جرى ذكرها في مختلف الأقسام التي قسم كتابه

عليها، وأعطى المعلومات اللازمة لكتابة خريطتها. والكتاب عَمَلُ رجل من رجال الخزانات العلمية وليس من الرحَّالة. وبالنسبة لإفريقيا، فإنه استخدم رحلة حنّون، كما يحتمل أنه استخدم وصفا لسواحل المحيط كان أحد معاصري آگاطُكْليس وهو أوفلاس Ophélas المتآمر على مدينة قورينة Cyrène قد أمر بجمع ذلك الوصف. و لاشك أن عملية هذا التجميع كانت من : «مقال في الموانئ Traité des ports»، الذي ألفه سنة 260 ق.م تيموسْطين Timosthène القائد البحري الإغريقي المصري، الذي أعطى فيه البراهين على جهله بالسواحل فيما بعد قرطاجة. ونجهل المصادر الأخرى التي رجع إليها إراتُسْطين. ولا شك أنها لم تكن عديدة ولا وثيقة. وهو نفسه انتبه إلى أننا نعرف الشيء القليل الأكيد عن قسم كبير من مناطق الغرب، وذلك لأن القرطاجيين يمنعون من الوصول إليها. وقد ضاع مؤلفه هذا. أما الفقرات التي استقاها منه كتّاب آخرون أحدث عهدا، فإن القليل من بينها يتعلق بشمال إفريقيا.

ثم إن الحروب البونيقية جعلت الرومانيين على اتصال بالملوك وبالشعوب النوميدية، الأعداء منهم والأصدقاء. ولكن سْترابون Strabon كان على حق في لومه فاتحي العالم على أنهم عموما يعوزهم الفضول العلمي، وعلى فقدانهم على الأقل لروح النقد في الملاحظة، لأن ذلك لازم في العلم الحقيقي. والبحوث الطريفة تبقى من مميزات الإغريق الذين يكتفي الكتاب اللاتانيون في الأغلب بنقلهم أو تلخيصهم.

وفي موسطة القرن الثاني ق.م خرج پوليب Polybe في صحبة سيپْيون الأميلي Scipion Emilien إلى إفريقيا. وكان ذلك أول الأمر في بعثة مستعجلة لدى مسنيسا، ثم بعد ذلك طالت لعدة شهور أثناء الحرب البونيقية الثالثة. وبذلك استطاع أن يراقب الأهالي وأن يسألهم. وقد

جرت له محادثات مع أمرائهم مثل مَسِنيسّا وكُلوسّا Gulussa. وأخيرا ففي سنة 147ق.م جعل سِيپْيون رهنَ إشارته بعض السفن، فقام وصحْبته إغريقي آخر شهير هو بنايتْيوس Panaetius برحلة على طول السواحل متوغلا إلى ما بعد أعمدة هرقل. أما عن الأزمنة السابقة، فإنه رجع إلى بعض الكتاب الإغريق الذين كانت لهم علاقات متينة مع القرطاجيين، وكانت لهم معلومات حسنة عن أهل إفريقيا. ونحن نعلم حالة التلف التي كان عليها مؤلفه في التاريخ حينما وصل إلينا، بحيث إن القسم الأكبر من روايته المتعلقة بإفريقيا قد ضاع، وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب المخصص للجغرافية. وبرغم هذا فإن تآليف پوليب Polybe – ويجب أن يضم إليه ما أخذه منه كل من تيت ليڤْ Tite-Live وأپْيان Appien[20] يبقى لدينا واحدا من أحسن المصادر. في حين يجب أن نتلقى بكثير من الحذر ما ذكره تيت ليف وأپْيان وغيرهما مرويا عن الإخباريين الرومانيين.

والخلاصة هي أنه إذا كانت الحروب البونيقية فرصة لنا لنتعرف قليلا على الأهالي «المغاربة» في القرنين الثالث والثاني، فليس الأمر سوى بصيص نور يعقب ظلاما يكاد يكون شاملا. فلا يوجد مقال يشرح حالتهم السياسية والاجتماعية، ويقدم لنا حضارتهم، بحيث لا يقع الاهتمام بهم إلا بقدر ما شاركوا في الصراع الكبير الواقع بين رومة وقرطاجة.

في النهاية القصوى للقرن الثاني، كتب أرتيمدور الأفْسوسي Artémidore d'Ephèse مؤلفا قيّما في الجغرافيا وصف فيه بتفصيل شواطئ البحر الأبيض المتوسط، كما ذكر فيه عرضا بعض الشواطئ التي على بحار أخرى. وكان قد قام ببعض الرحلات تحضيرا لعمله. وهكذا فإنه جال تقريبا بمجموع البحر الداخلي (البحر الأبيض

المتوسط) بل إنه عبر أعمدة هرقل. لكن وصفه لشواطئ بلاد البربر[21] لا يعرف إلا مما اقتبسه منه سترابون. ويحتمل أن الوصف لم يكن يشتمل إلا على القليل مما يتعلق بالأهالي، لأن الوصف عبارة عن قسم من مؤلف موضوعه الطواف البحري.

بعد أرْتميدور بقليل، ذهب بوزِدونْيوس الأفامي Posidonius d'Apamée إلى قادس، فأقام بها ردحا من الزمن ليقوم ببعض الدراسات العلمية. ومن هناك توجه إلى إيطاليا. وأثناء رحلته البحرية هذه دفعته الرياح إلى شواطئ إفريقيا، الأرض التي يبدو أنه لم يزرها من قبل. ومع ذلك فإنه تحدث عنها في واحد أو اثنين من مؤلفاته، ربما في مؤلفه عن المحيط Traité sur l'Océan، وتحدث عنها بالتأكيد في تاريخه الذي كان يمتد من أحداث سنة 144 إلى 78 على الأقل. وكان بوزِدونْيوس يعطي في مؤلفه هذا مجالا واسعا للجغرافيا وللتاريخ الطبيعي وللأثنوغرافية. إذن فيمكن أن نفترض أنه عرض لها في واحد أو أكثر من الاستطرادات، أثناء الحديث على بعض الحروب الإفريقية كحرب يوغرْطة، وحملة بومْبي. وحيث إنه هو لم يكن يعرف البلاد، فلابد أنه سأل البعض من أصدقائه من الأرستقراطية الرومانية الذين شاركوا في هذه الحملات، كما سأل دون شك بعض أهل قادس ممن ذهبوا إلى موريطانية. ولقد ضاع مؤلفه هذا، غير أن المعلومات التي أعطاها عن إفريقيا الأهلية اعتمدها اثنان من المؤلفين الذين وصلتنا آثارهم، وهما سالُسْت Salluste وسْترابون Strabon.

إن حملة يولْيوس قيْصر في إفريقيا قد جرت أحداثها بالولايات الرومانية. واليومية الدقيقة المضبوطة التي تركها لنا أحد رفقاء السلاح للدكتاتور، لا تعرفنا بالأهالي كثيرا.

وعلى النقيض من ذلك، فإن سالُسْت بعده ببضع سنين تحدث عن حرب يوغَرْطة التي كانت نوميديا مسرحا لها. وقد كان هو في سنة 46-45 ق.م حاكما لولاية جديدة شملت قسما كبيرا من هذه المنطقة. فهو إذن لم يكن يجهل البلاد ولا السكان.

وكتابه ثمين لدينا من هذه الوجهة. ولكننا عندما ندرس حرب يوغرطة، فسنوضح أن المعلومات الشخصية لسالُسْت يجب أن لا تُعتبر فوق ما تستحقه. وسنرى أنه على ما يبدو اقتبس اقتباسا واسعا من بوزدونْيوس، ليس فحسب في رواية الأحداث، بل حتى في وصف المواقع. وبنقله هكذا عمن تقدمه، فإنه ارتكب أخطاء مربكة جدا لا تليق بأحد البروقنصلات السابقين في إفريقيا[22].

ومن بين ذرية مَسِنيسا، وجد بعض الأمراء الذين كانوا يتباهون بتعاطيهم للثقافة. وقد ترك لنا سالُسْت ترجمة مختصرة على ما يحتمل لنص أدرجه هيمْبسال Hiempsal ملك نوميديا في مؤلف مكتوب باللغة البونيقية. وذلك فيما يتعلق بالأصول المزعومة لشعوب شمال إفريقيا. وهي خرافة يصعب اكتشاف بعض أجزاء الحقيقة من خلفها. كما أننا ليس لدينا الكتاب الضخم عن ليبيا الذي كتبه يوبا الثاني باللغة الاغريقية. وهو موضوع لا شك أن هذا الملك الموريطاني قد كان أهلا ليعالجه. ولكن حتى في هذا الميدان الذي كان بمستطاعه إن يبدع فيه، فمن المحتمل أن يكون حماس الثقافة الهيلينية لديه دفع به ليستقي كثيرا من قراءاته الاغريقية.

وقبله أصدر بعض الاغريق مؤلفات عن ليبيا باسم Libyca نكاد اليوم لا نعرف عنها شيئا[23]. وهذا العنوان يمكن أن يصلح لموضوعات متنوعة. لذلك فإن هذه المؤلفات التي كتبها في بعض الأحيان كتَّاب لا

يعرفون إفريقيا مطلقا. لم تكن - على وجه التأكيد - سوى مجاميع جمعت حول معطيات غير وثيقة. فمنذ مدة وقع الاهتمام بما يبدو عجيبا في أخلاق الشعوب الباربارية Barbares وبسهولة كان يقع تلقي أقوال الذين كانوا يزعمون أنهم عرفوا هذه الأخلاق (والعادات) بطريقة أو بأخرى. وكان الناس يرددون هذه الأقوال عصرا بعد عصر. وتاريخ هيرودت برهان على هذا التطلع للغرائب في القسم المتعلق بليبيا كما في غيره. وفي عهد يوبا الثاني أصدر العالم المشارك الشهير نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas كتابا بعنوان : «مصنف في الأخلاق العجيبة Recueil de mœurs extraordinaires» كان لليبيين فيه ذكر. وقد بقيت لنا منه فقرات يجب أن لا نوليها اعتبارا كبيرا «إذ أن أحد هذه النصوص إنما هو صدى لهيرودت».

وهناك كاتب آخر معاصر ليوبا الثاني، هو سترابون Strabon الذي أنهى مصنفه الكبير في الجغرافيا بوصف شمال إفريقيا[24]. وهو وصف يسعدنا وصوله إلينا نظرا لفقرنا، لكنه دون شك وصف متوسط القيمة، بالغ في الاختصار، غير منسق وغير خال من بعض الأخطاء المادية الكبيرة[25]. ولعل صاحبه كان يسرع لإنهاء الموضوع.

فلابد أنه كان قليل الاهتمام بالمنطقة التي - باستثناء قرطاجة لم تلعب أي دور في تنمية الحضارة. في حين أن الجغرافيا، في نظر سترابون، كانت بالخصوص درسا لرجال السياسة وتفسيرا للأحداث التاريخية الكبرى التي كان العالم مسرحا لها. وحيث أنه لم يزر بلاد البربر، فلابد أن يتحدث عليها نقلا عن الآخرين[26]. ولم يتعب نفسه بأن يقدم عن البلاد لوحة مطابقة لها في العهد الذي أصدر فيه كتابه. فقد ذكر ما حدث أخيرا من موت يوبا الثاني الذي خلفه على المُلك ابنه

بَطْليموس، الأمر الذي حدث في 23 أو 24 للميلاد. وكانت سن سترابون إذ ذاك تقرب من الثامنة والأربعين. وكان قد أنهى كتابه "الجغرافيا" قبل ذلك بزمن كبير، أي في السنة السابعة للميلاد على ما يحتمل. ففي الكتاب إذن إضافة، ويؤكدها أنه في فصل آخر قد تحدث عن يوبا الثاني وكأنه لا يزال حيا. وهذه الإضافة يمكن تفسيرها بكل سهولة: ذلك أن ملك موريطانية (يوبا الثاني) كان ذا شهرة عريضة، مما جعل خبر موته ينتشر بسرعة ليصل حتى آسيا الصغرى التي كان بها سترابون يقضي سنوات شيخوخته. فلم يتحدث لنا بأي شيء عن الحروب التي جرت بإفريقيا في عهد أُغُسْطُس(27). ويذكر مدنا مهدمة بينما هي في عهد هذا الامبراطور كانت قد أعيد بناؤها. ولكنه عندما انتهت كتابة الكتاب لم يكن على علم بما يتعلق بإفريقيا. وسترابون يسهو مثلا عن ذكر الحملة التي قام بها البروقنصل كُرْنيلْيوس بِلْبوس C. Balbus سنة 20 ق.م في قلب الصحراء حتى أرض الكرمَنْطيين. وكانت بالنسبة للجغرافيا حدثا مهما جدا. ويورد حديثا جرى بينه وبين أحد خلفاء كُرْنيلْيوس بِلْبوس هذا بإفريقيا وهو كنايوس بيزو Cn. Piso (لعله هو كنايوس كلبرينوس بيزو الذي كان قنصلا سنة 23 ق.م). وقد أوضح له هذا الشخص أن الصحراء الإفريقية بواحاتها شبيهة بإهاب النمر الذي تتناثر عليه البقع. لكن بالتأكيد فإن سترابون تلقى هذا الكلام من مخاطبه دون أن يجري معه بحثا عميقا عن ليبيا. وأخيرا، وباستثناء ذكْره ليوبا ولبطليموس، وكذلك باستثناء ذكره للوضع الإداري الذي جُعِلت فيه الولاية الرومانية سنة 27ق م، فإنه كان يجهل ما جرى بإفريقيا بعد يوليوس قيصر، بل لقد كان يقع له أن يجعل في الحاضر ماضيا يرجع لما قبل حملة الدكتاتور ضد يوبا الأول وأصحاب بومْبي Pompéiens (28) وكان سترابون قد كتب تاريخا يمتد من أحداث سنة 144 إلى سنة 31 أو 27. وفي بعض

الفصول من جغرافيته استعمل ما استفاده من المعلومات التي حصلت له أثناء تأليفه لكتابه هذا في التاريخ. وقد ذكر عرضا اسم أحد المؤرخين الرومانيين هو تانوسيوس Tanusius كما ذكر اسم إيفكَّرات Iphicrate الذي قد يكون على وجه التحقيق هو هِبْسِكْرات Hypsicrate الذي نعلم من جهة أخرى أن سترابون قد استقى منه في تاريخه. ولعل الأمر كذلك أيضا بالنسبة لتانوسْيوس. ولكننا خلافا لما افترضه الغير، لا نعتقد أنه استخدم كتاب حرب يوغرْطة Bellum Iugurthinum لسالُسْت ولا كتاب حرب إفريقيا Bellum Africum الذي يروي حرب قيّصر.

ونظرا لمعرفته الناقصة باللغة اللاتانية ولقلة تقديره للمصنفات التي كتبها الرومانيون، فإنه استخدم على الخصوص الكتاب الإغريق. ففي وصفه لليبيا ذكر منهم ثلاثة، ويحتمل أنه لم يرجع إلى غيرهم، وهم إرتوسْتين Eratostène، وأرْتميدور Artémidore، وبوزدونْيوس Posidonius. وحيث إن آثارهم قد ضاعت فمن العبث أن نزعم أننا نشير أو نوضح ما عند سترابون مأخوذا عن أي منهم. وهو لم يستخدم أرتميدور إلا في الحديث على الشواطئ، لأن كتاب أرتميدور لا يبتعد عنها، ولابد أنه لخصه كثيرا. أما استخدامه لبوزدونيوس فمقبول فيما يخص مقالاته عن الحيوانات والنباتات وعادات الأهالي. وهكذا، وباستثناء بعض الجزئيات، فإن سترابون يقدم لنا بشحٍّ كبير إفريقيا عجوزة، وهي إفريقيا من عهد إرتُسْتين في نهاية القرن الثالث، وعلى الخصوص إفريقيا في عهد أرْتميدور وبوزدونْيوس، أي في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول.

وأصدر بُمْبُنْيوس ميلا Pomponius Méla جغرافيته في سنة 44 للميلاد. غير أنه رجع للمصادر القديمة على غرار سترابون. وقد كان «ميلا» Méla أديبا أكثر منه عالما. ومؤلفه خال من كل إبداع، وليس فيه

ما يدل على جهد واسع في البحث. وكان معجبا جدا بسالُسْت ككاتب، ولذلك فلا عجب من أن يستقي منه أسطورة أضرحة فيلين. ولم يكن في حاجة إلى ثقافة واسعة ليعرف أن يوبا الثاني كانت له عاصمة تحمل فيما قبل اسم يُول Iol، ثم سماها هو باسم قَيْصَرية Caesarea. وكذلك كان يستطيع، وبدون عناء، أن يعرف أن مستوطنة رومانية قد أنشئت في زيلي Zili على الشاطئ المحيطي لموريطانية، لأنه من أهل طَنْجِنْترا Tangentera المدينة الاسبانية التي نقل اليها أهل زيلي في عهد أغسطس. هاتان الفقرتان من وصف ميلا لشواطئ الشمال الافريقي، كانتا وحدهما اللتين تتحدثان عن حقبة ما بعد بداية الإمبراطورية. وبهذا فميلا Méla يكون قد رجع إلى مصدر أقدم، ولكنه مع ذلك مصدر متأخر عن يوليوس قيصر[29] وهو مصدر مكتوب باللغة اللاتانية. واستقى منه پْلين الطبيعي Pline le Naturaliste. وقد ظن البعض أن المؤلف هو ڤارون Varron الذي توفي سنة 27 ق.م عن سن تقارب التسعين. كما قيل إنه كرنيليوس نيبوس Cornélius Népos الذي كان لا يزال حيا بعد سنة 32.. (وقد ذكر پْلين كلا منهما من بين مصادره في كتابه الخامس الذي وصف فيه إفريقيا). غير أنها جميعا افتراضات ضعيفة. ولربما أن المصدر المشترك بين كل من ميلا Méla وپْلين Pline عن الشواطئ يكون هو نفس المصدر الذي اعتمده في الحديث عن السكان الذين يعيشون جنوبي بلاد البربر، أي يكون كاتبا لاتانيا ذا ثقافة إغريقية أصلا. ويستقي مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، ولكن بصفة واسعة من هيرودُت. أما عن المصدر المشترك بين كل من ميلا، وپْلين فيما يخص شواطئ القارة الافريقية من البحر الاحمر إلى موريطانية، فهناك دواع حسنة للاعتقاد بأن هذا المصدر هو كُرْنيلْيوس نيبوس C. Nepos. ولكن هذا ليس معناه لزوم القول بمثل ذلك لشمال إفريقيا. وأياً ما كان الأمر،

فإن الوصف المختصر الذي خلفه لنا ميلا Méla عن المنطقة – وهو وصف لا يتعدى السواحل – لا يرجع تاريخه مثل كتابه إلى منتصف القرن الميلادي الأول، بل إنه يرجع في الحقيقة إلى أواخر عهد الجمهورية الرومانية.

وإلى جانب هؤلاء الكتاب الذين سبق أن ذكرناهم، يحسن إضافة بعض الإشارات المختصرة التي يقع العثور عليها هنا وهناك لدى بعض الإغريق واللاتانيين الذين هم غير موثقين دائما.

إما النقوش (الإبغرافيا) Epigraphie فإن ما تضيفه لدراسة النصوص هزيل جدا. والنقوش المكتوبة باللغة البونيقية ليس من بينها ما يمكن إرجاعه على وجه التأكيد إلى عهد ملوك نوميديا، سوى مجموعة مملّة من النذور Ex-Voto من قُسنطينة. وهناك نصبان في دُقّة Dougga منقوشان باللغتين البونيقية والليبية، أحدهما لتكريس أحد المدافن والثاني لتكريس معبد لمسنيسا. وباستثناء عدة من النقوش الأخرى بدُقّة Dougga التي يساعدنا نقش معبد مسنيسا قليلا على فهمها، فإن النصوص المنقوشة باللغة الليبية تؤرخ، أو يبدو أنها تؤرخ بالعهد الروماني. وعلاوة على ذلك فلا نتبين منها سوى أسماء الأشخاص.

أما المسكوكات Numismatique فتزودنا بوثائق كثيرة، مثل النقود التي سكّ بعضها الملوك وسكت المدن بعضها الآخر. ومنذ أكثر من ستين سنة ألف عنها مولّر L. Müller كتابا[30] لا يزال حتى اليوم نافعا وإن كان الكثير مما عزاه فيها يعتبر خاطئا أو متنازعا فيه. على أن الاكتشافات المتأخرة والقراءة الصحيحة لكتابات النقود قد عدّلت من بعض الأخطاء، كما أن كنزا وفيرا من دوانق Deniers يوبا الثاني قد وقع

اكتشافه بالمغرب. وقد وسع معارفنا كثيرا بهذا الأمير. ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الريب فيما يتعلق بفهم وتأويل النقود النوميدية والمورية، وعلى الخصوص منها ما يتعلق بنقود المدن[31].

إما البنايات التي أقامها الأهالي قبل السيطرة الرومانية، فلم يبق منها سوى المقابر. وهي مدافن بالحجر الجاف لعموم الناس. وبصفة عامة لا يمكن التاريخ لها بتدقيق. وإن كان قسم كبير منها يرجع دون شك للعهد الذي نكتب له تاريخه هنا. وهي أضرحة من الفن البونيقي أو الإغريقي، أي مقابر ملكية واسعة عبارة عن رجام ليبية Tumulus libyques، أي أكوام من الحجارة مغطاة بغطاء أجنبي.

إذن وبعد إعطاء هذه الإيضاحات، يسوغ لنا التساؤل عن الوثائق التي بين إيدينا، هل تمكننا من أن نعرف من كانوا اجداد البربر قبل أن تخضعهم روما لقوانينها ؟. إن دراستنا ستمتلئ بالهفوات والغموض والشكوك. ولكي نفهم ماضيا يتوارى عن أعيننا، لابد لنا في الأغلب أن نتذكر أن هؤلاء الأهالي الافارقة – من بين سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط – هم أشدهم إصرارا على وضعهم الاجتماعي وعلى تقاليدهم وعاداتهم. إن ما كانوا عليه في الأزمنة المعروفة جيدا، بل وحتى ما هم عليه اليوم، قد كانوا – وإلى حد كبير – عليه خلال القرون السابقة على ميلاد المسيح. وبكل تأكيد لا يجب أن نجعل من الأغاليط التاريخية منهاجا، لأننا بهذا سنتعرض لكتابة إحدى الروايات، لا التاريخ. ولكن غالبا ما تكون إحدى الوثائق في مظهرها عديمة النفع أو مشكوكا فيها، ولا تكشف عن قيمتها إلا إذا ضمنت في نطاق مجموعة أعيد تكوينها على غرار غيرها من المجموعات المألوفة لدينا.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الأول

إطارات المجتمع الأهلي

1

كان الناس في العهود البدائية يعيشون في جماعات صغيرة ويتنقلون دون شك لجمع النباتات والجذور والفواكه والحيوانات الصغيرة الصالحة للأكل، لكي يتعاطوا للصيد. ولكن كان غير هؤلاء يكوّنون جماعات كبيرة. ففي مواقع ما قبل التاريخ الراجعة لعهود بعيدة جدا، ونظرا لما اشتملت عليه من مصنوعات، تسمى بالمصنوعات الآشولية acheuléennes، والآشولية المسْتيرية acheuléo-Moustériennes، وبالآشولية السّولتّرية acheuléo-solutréennes، وبالمُسْتيرية Moustériennes فإن هذه المواقع تتكدس فيها المئات والآلاف من الأدوات والأسلحة. ولابد أن كثيرا منها قد استعمل في آن واحد معا: ذلك أن كثرة هذه الأدوات التي هي في العادة متجانسة جدا، لا يمكن أن تفسّر فحسب بكون الإنسان قد أقام بالموقع إقامة طويلة امتدت عدة قرون. ففي عهد الصناعة التي

أطلق عليها اسم الصناعة الجيتولية Gétulienne أو اسم الصناعة الأورنياسية aurignacienne فإن الرماد وكوم قواقع الحلزون وأدوات الحجارة المقطوعة، إن كل ذلك يكون طبقات سميكة، تمتد في أغلب الأحيان على مساحات واسعة. وفي ذلك برهان في آن واحد على أن نفس الموقع قد أقامت به أجيال متعاقبة كثيرة، وعلى كثافة السكان الذين عاشوا جنبا لجنب. فبعض المواقع يبلغ مائة وخمسين أو مائتي متر طولا.

وتوجد مواقع أخرى من العهد الحجري القديم Paléolithique، هي في الحقيقة مواقع متواضعة، لم يقم بها سوى بضعة أشخاص. وكذلك الأمر بالنسبة للكهوف والمغارات. لكن مواقع الهواء الطلق أو مساكن أهل المغارات troglodytes كثيرا ما نجدها تتلاقى على مسافات متقاربة جدا، بحيث لا يمكن أن نصدق أن سكان هذه المواقع والكهوف بقي بعضهم أجنبيا عن البعض الآخر.

ومن الطبيعي أن الأرض التي تعطي باستمرار وعن سعة خيرات طعمية، لابد أنها تجتذب عددا كبيرا من السكان، وأن تمسك بهم، فيكون بمستطاعهم أن يعيشوا مستقرين. ثم إن الحاجة إلى أن يكون الماء سهل المنال - لأنه لا يجري بكل مكان - تفرض عليهم أن يتجمعوا ويتقاربوا بقدر الإمكان. ويدفعهم لذلك أيضا احتياجهم للدفاع عن أنفسهم، لأن هذه الأرض التي يستغلونها، لابد أن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بملكيتها ضد أي دخيل.

فما هي إذن العلاقات التي كانت بين الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يكوّنون هذه المجتمعات ؟ قد يكون من المعقول أن نصرح

ببساطة أننا لا نستطيع معرفة شيء من ذلك، لكن في بعض العادات التي تحدثت عنها النصوص القديمة أو التي لا تزال حية إلى اليوم، ظن البعض أنه عثر على بقايا من ماض بالغ في القدم، أي على براهين - أو على الأقل إشارات - بوجود اختلاط بدائي بين الجنسين. فقبل كل شيء يجب أن لا نفرض هذه التأويلات، ولكن لابد من التثبت من قيمتها عن قرب، لأن هذا الذي يُسمى بالاختلاط لم يلاحظ له في أيامنا وجود مؤكد في أي مكان حتى لدى الشعوب الأشد همجية.

فعند عشيرة المخْلوسيين Machlyes وعشيرة الأُوصيين Auses وهما من سكان شاطئ سدْرة الصغرى، كان النساء حسب قول هيرودُت شركة بين الرجال. فلم يكن هناك زواج، وإنما كان الجنسان يختلطان على طريقة البهائم. وكذلك النصمونيون Nasamons. وهم عشيرة من سدْرة الكبرى. فقد كانت لهم اتصالات بأي امرأة، وعند الجنْدانيين Gindanes - ومساكنهم بين السدْرتين - كان النساء يفتخرن بأن يحببهن أكبر عدد ممكن من الرجال، وكن يضفن حلقة من الجلد حول كعوبهن عقب كل فوز ينلنه[32].

إن المبالغات والتعميمات المفرطة في مثل هذا الموضوع لا تكون نادرة الوجود. لذلك فليس أكيدا أن تكون المعلومات التي تلقاها هيرودُت صحيحة. وهناك إغريقي آخر يحكي لنا كيف كان يتزوج المخلوسيون، هؤلاء الليبيون الذين لم يكن الزواج معروفا لديهم[33]. ويذكر هيرودُت نفسه أن المخلوسيين والأوصيين كانوا يعطون اعتبارا كبيرا لبكرة بناتهم[34]. وبعد ما أكد أنهم يختلطون على طريقة البهائم، (وهي طريقة نقول نحن عنها إنها ليست طريقة جميع البهائم)، فإنه قدمهم لنا وهم ينظمون أسْرهم بأحسن ما استطاعوا : فحينما يصل ابن إحدى النساء

لسن الإدراك يعقد الرجال اجتماعا بعد ذلك بثلاثة أشهر ويعلنون أنه ابن لمن يشبهه[35]. وواضح أن الطفل إذا ربّته أمه حتى هذه السن، وكان له أب شرعي، فما ذلك إلا لإحداث علاقات مسؤولية خاصة بين هذا الأب وبينه. وكذلك يحدثنا هيرودُت أيضا أن الزواج كان موجودا عند النصمونيين الذين لم يكونوا يرفضون أي امرأة إذا صدقنا قوله.

وإليك ما يقوله عن الزواج : «حين يتزوج أحد النصمونيين لأول مرة، فالعرف يطلب من العروسة أن تهب نفسها أثناء الليلة الأولى لجميع المدعوين، وكل واحد اتصل بها يقدم لها الهدية التي جاء بها»[36]. فيمكن أن نفترض أن هيرودُت كان فيما يخص هذا الموضوع على علم جيد.

فنفس العادة كانت في العصور القديمة موجودة في جزر البليار غير بعيد عن أرض البربر. وفي العصور الوسطى كانت موجودة عند «غمارة» التي هي إحدى عشائر المغرب[37]، كما لوحظ وجودها في أمريكا الجنوبية وفي الاقيانوسة Océanie. وقد أعطيت لها عدة من التفسيرات، ومن بينها تفسير يرى فيها بقية من الشيوعية. فالجماعة قبل تنازلها عن حقوقها لصالح فرد واحد، تستعمل هذه الحقوق مرة أخيرة. وليس هذا سوى افتراض لبق ولكنه لا ينطبق على الحالة عند النصمونيين، لأن الزواج عندهم لا يكون نتيجته الاستيلاء الخاص للزوج على امرأته.

أما الآدرْماشيون Adyrmachides، وهم شعب كان يجاور مصر، فلهم حسب هيرودُت عادة لا نجدها عند غيرهم من الليبيين : «إنهم يقدمون للملك الفتيات اللواتي هن على أهبة الزواج، وإذا أعجبته إحداهن فإنه يفتضها». هذا حق السيد أو حق الليلة الأولى. وهنا أيضا

لاشك أن هيرودُت كان على علم جيد بالموضوع. لأن هذا الحق الذي نعرف له بعض الأمثلة في شمال إفريقيا إلى عهد قريب، والذي كان موجودا في جزر كناريا. قد كان مستعملا كذلك عند غير البربر. ولا يجهل أحد أنه حوفظ على استعماله مدة طويلة في بعض بلدان أوربا. ويقال أنه بقية من عهد الاختلاط البدائي، وأن المستفيد منه، وهو الرئيس أو الكاهن، يكون في هذه الحالة ممثلا للجماعة. كما ذكرت لها تفسيرات آخرى. ولعل أحسنها هو الافتراض القائل بأنه امتياز استأثر به الأقوى لنفسه.

في سِكَّا Sicca (وهي مدينة الكاف بتونس) كان النساء يتعهرن للزوار في معبد لآلهة كان اللاتانيون يطلقون عليها اسم ڤينوس Vénus. فهل كانت هذه عادة من أصل أهلي؟ الأمر ممكن ولكن يحتمل أنها انتقلت إلى هذا المكان على يد بعض الأجانب كالفينيقيين أو غيرهم. وهناك قبيلة عربية - لا بربرية - هي قبيلة أولاد نائل Ouled Naïl : وإليها تنتسب البنات اللواتي يتعاطين جهرا حتى اليوم حرفة العهارة ليجمعن ثمن الجهاز.

وبعض النساء لهن صبغة التقديس، إذ يُعتبرن إلى حد ما من الصلحاء. ولا يمكننا أن نعزو - من غير تردد - إلى أصول مغرقة في القدم السهولة التي بها يسلم هؤلاء النسوة أنفسهن لأول قادم[38]. فلاشك أن مثل هذه الأخلاق قد كان معمولا بها عند أجداد البربر. كما كان معمولا بها عند الكثير من الشعوب. ولكن لا شيء يسمح بأن نرى فيها بقايا من وضع اجتماعي كانت فيه النساء شركة بين الرجال. وإذا لم تكن المسألة ببساطة مسألة تكسب أو مجون، فإن السحر يعطينا التفسير الأصح. وهناك اعتقاد كان فيما مضى واسع الانتشار، وهو أنه بعملية تعاطف فإن التعامل الجنسي يساعد التناسل - أيا ما كان -

وعلى الخصوص يساعد على وفرة نمو الحبوب المزروعة في الأرض. ومن هنا كانت الطقوس المختلفة التي استمر الناس على مزاولتها حتى بعد أن توقفوا عن فهم كنهها وبعد تشويهها غالبا. وكذلك عمليات البغاء التي لم يبق لها من قداستها سوى المكان الذي تزاول به، والتي صارت تستوجب أجرة، وحتى التي صارت تقنع بالفساد الجنسي بسبب النسيان الكلي لأصولها.

ونفس التفسير صالح (الليلة الغَلْطة Nuit de l'erreur). وحسب كاتب نقل عنه نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas. ففي إحدى العشائر الليبية يجتمع الرجال والنساء في يوم محدد عقب اختفاء نجوم الثريا، وبعد تناول العشاء يذهب الرجال إلى النساء اللواتي يكن قد انعزلن في مكان على حدة. فتطفأ الأنوار، ويقع كل واحد على من يجدها منهن. إن هذا ليس خرافة، وهي عادة ذكرها في القرن السادس عشر ليون الإفريقي (محمد الوزان الفاسي) وقال إنها موجودة بعين الأصنام جنوبي صفْرو بالمغرب. ويقال إنها استمرت موجودة حتى اليوم في أماكن عديدة بالمغرب والصحراء. وليس لدينا شهادات من العهود القديمة على طقوس أخرى جنسية لاشك أنها قديمة الوجود جدا في بلاد البربر، ويمكن تفسيرها بنفس الطريقة. منها عادة الاحتفال الكبير بقران «خطيبي الخير» Fiancés du bien اللذين يتزوجان ليوم واحد. وهناك عادة الاحتفال في آن واحد بجميع زوجات (زيجات) السنة. ويبدو أن تاريخها كان في أول الأمر مرتبطا بحياة المزروعات، ولكنه اليوم يختلط غالبا بأحد الأعياد الإسلامية التي يتغير موعد حلولها. وقد كانت هذه الزيجات الجماعية مستعملة في أمكنة أخرى عدا شمال إفريقيا مثل بروطونيا Bretagne.

وهناك عادة يرى البعض أنها بقية من الاختلاط، وهي أن تُهدى للضيف إحدى نساء البيت الذي يضيف فيه. وقد أشار البَكْري إلى وجودها عند إحدى القبائل بالمغرب. وإلى عهد قريب كان أهل «القبائل» (بالمنطقة المعروفة باسم القبائل kabylie) يفعلون مثل ذلك. وذلك أيضا عمل لوحظ وجوده عند شعوب أخرى. ولكن منذ عدة قرون لم يعد ذلك بالنسبة للبربر سوى عمل كريم لإرضاء الضيف. وفي العصور الوسطى كان الغِلْمان، لا النساء، هم الذين يقدمون هكذا في بلاد القبائل الصغرى. فهل كان هذا في الأصل أحد الطقوس التي ضاع مدلولها ؟ يمكن افتراض ذلك، وإن كنا في هذا غير مستوثقين من شيء.

والخلاصة هي أن جميع الأحداث التي سردناها من قبل، ليس منها ما يؤكد صراحة فريضة الوجود لمجتمع بدائي نسوي. فبعض هذه الأحداث يحتمل تأويلات مختلفة ومشكوك فيها كذلك. وبعضها يحتمل جيدا أنه من طقوس السحر الجاذب Magie sympatique. وبعضها الآخر يمكن الاكتفاء بتفسيره بأنه إرادة لإشباع وترضية الرغبات الجنسية الجامحة. لقد اشتهر الأفارقة في العصور القديمة بكونهم قوما لا يسيطرون على غرائزهم. وكان القديس أُغسْطين – وهو أعظمهم – قد استطاع ذلك، ولكن بعد صراع وأي صراع : ترك لنا عنه اعترافات مثيرة، وكم كان يخشى أن يتردى ثانية ! وفي الشعر الشعبي برهان على تسلط الحب على النفوس. كما أن التحلل الأخلاقي في العادة شديد لدى بربر اليوم، وإن الأمر يكون أشد لو لم تكن الرقابة على النساء شديدة، ولو لم يكن الفاسقون معرضين للمخاطر إذا تعاطوا الأفعال الممنوعة.

غير أن هذا لا يتعارض مع وجود نظام ينشئ العلاقات الشرعية لصالح المجتمع.

2

ليس هذا محلاً لمناقشة إحدى المشكلات التي لا حل لها من الوجهة العملية. وهي مسألة التزاوج الدائم بين شخصين من جنسين مختلفين يلدان ويربيان الصغار لدى الإنسان كما عند البعض من الحيوان – هل هو حدث طبيعي، هو التجمع البدائي، أم قد تقدم عليه وضع من الاختلاط ؟ على كل حال فإن الأسرة منذ عهد عهيد هي نظام قانوني، ولوجودها أهمية في المجتمع، لأنها تمكن المجتمع من البقاء والاستمرار. إذن فبواسطة المجتمع تكونت الحقوق والواجبات المترتبة عن ذلك.

ولاشك أن الأسرة والزواج الذي هو لها أساس، قديمان جدا عند الليبيين. فهيرودت، وهو أقدم الكتاب الإغريق الذين تحدثوا لنا عن هؤلاء الباربار قد تعرض في مناسبتين لزيجات احتفل بها علانية[39]. فقدم لنا النصمونيين وهم يزورون قبور أجدادهم المعروفين إذن معرفة جيدة. وفي الألف الثاني قبل الميلاد تظهر في بعض الوثائق المصرية نساء وأبناء بعض الرؤساء Chefs الليبيين.

إن العلاقة الشرعية بين الرجال والنساء يمكن أن تكون على عدة أشكال: برجل واحد مع امرأة واحدة، ورجل واحد مع عدة نساء، وأخيرا – وهذا نادر جدا – بامرأة مع عدة رجال. وسنرى أن الحالتين، الأولى وهي الزواج الانفرادي Monogamise والحالة الثانية الرجل

والضرات Polygamie قد كانتا موجودتين عند الليبيين، بينما الحالة الثالثة وهي المرأة للأزواج Polyandrie، لا نعثر لها على أثر.

وكذلك، فلا برهان لدينا على أن أجداد البربر قد فرضوا على أنفسهم الزواج الخارجي Exogamine وهو منع الزواج بين رجال ونساء من نفس الجماعة أي أن يفرض عليهم الزواج من جماعات أخرى معلومة. فهذا التقنين الذي كان واسع الانتشار في أمريكا الشمالية وفي أقيانوسة وغيرهما أيضا، يبدو أنه كان غير معروف في إفريقيا الشمالية مثلما كان غير معروف في آسيا الغربية وأروبا.

ويوجد على حالة من النقاء أو كان يوجد عند بعض العشائر الهمجية ما يسمى بأسرة الأمومة، أي الانتساب للأم، بحيث أن هذه النسبة تعرف باسم الأم. وعند تذكر الأجداد فإن التسلسل يكون على الخط النسوي. وليس هناك قرابة أخرى شرعية في النسب. فالأسرة أحادية الجانب، والطفل ملك لأمه، وهو دائما مرتبط بظروفها وبظروف الكتلة المجتمعية التي منها الأم. وأخ الأم أو أحد أقربائها هو الذي يمارس على الطفل السلطة والرعاية اللتين يضطلع بهما الرجل.

إن أصل هذا النوع من التنظيم الأسري يمكن تفسيره عمليا بأن دور الأب في التنسيل قد كان في أول الأمر مجهولا. وأن الانتساب إلى النساء قد استمر بعد ذلك بسبب خاصيته الواضحة الجلية التي يفتقدها الانتساب إلى الرجال. وكان الانتساب للنساء هو القرابة الأسرية الوحيدة التي كان من الممكن التأكد منها في الجماعات التي تستعمل الاختلاط الجنسي – على فرض أنه استعمل – في اقترانات مؤقتة ومتعاقبة، بتعدد الرجال. غير أن تسمية الطفل باسم أمه وانتماءه لأسرة

الأم كثيراً ماستمر العمل بهما أيضا في أحوال شرعية من الزواج، حيث الأب معروف، وحيث المرأة تغادر أهلها وتذهب لتسكن مع زوجها. ونفس نظام الأمومة يوجد كذلك عند بعض السكان الزنوج بإفريقيا. ولابد أنه فيما قبل كان أكثر انتشارا، ثم أخذ في التراجع أمام الأسرة الأبوية. وقد وقع التشبث بنظام الأمومة في إحدى الحالات التي لابد أن يكون فيها الدم نقيا بصفة لا تحتمل شائبة شك. وذلك في حق الميراث لتولي الحكم (يقول نيقولا الدمشقي : إن الاثيوبيين يكرمون أخواتهم بصفة خاصة، والملوك يورثون الحكم لأبناء أخواتهم، وليس لأبنائهم[40]). وفي العصور الوسطى كانت السلطة العليا تنقل بنفس الطريقة في الممالك السودانية بغانة Ghana وملّي Melli. ونقرأ في البكْري حول هذا الموضوع في غانة قوله : «ومذهبهم أن المُلك لا يكون إلا في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته. وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به[41]».

وليس لدينا برهان على أنه في أعصر التاريخ القديم قد وجدت عند الليبيين الأسرة الأمومية، بينما نجد عند البعض منهم الأسرة الأبوية منذ الالف الثانية، غير أن تسلسل الانتساب عن طريق الام بقي معمولا به إلى أيامنا هذه عند الطوارق أو على الأقل عند قسم منهم. ولكنهم ينحدرون من أقوام أصولهم من بلاد البربر، وهم على ما يحتمل لم يصلوا إلى الصحراء إلا بعد عهد المسيح. والطفل في هذا الشعب هو للقبيلة ويلتحق بأمه في حالة نبلها أو عبوديتها. وإذا كانت المواريث الخصوصية وفقا للقانون الإسلامي تنتقل من خط الذكورة[42]، فإن الميراث السياسي لأحد الرؤساء ينتقل لأكبر من يأتي وراءه من إخوانه للأم. وإذا لم يوجد الأخ فينتقل الإرث للأكبر من أبناء خالته أو للأكبر من

أبناء أخته الكبرى. ولنذكر أنهم لكي يعبروا عن القرابة المتينة التي تربطهم – حسب اعتقادهم – بأوران Ourane، فإن من الطوارق من يقول بأن هذا الحيوان هو خالهم، وذلك ما يفسر بطريقة الانتساب للام.

لقد كان ذلك معمولا به في القرن الرابع عشر للميلاد. ونجهل هل هو أقدم من ذلك العهد. ويمكن الافتراض بأن البربر فاتحي الصحراء قد أخذوه عن الأثيوبيين بالواحات، أو من زنوج السودان الذين كانت لهم معهم علاقات كادت تكون دائمة، وسيطروا عليهم أحيانا. لكن الافتراض قد يواجهه اعتراض خطير. بحيث إذا كانت الأسرة الأبوية قد حلت في الغالب محل الأسرة الأمومية، فإن التحول العكسي حسب ما أعلم لم يلحظ له وجود أبدا. وعلى هذا فلابد من الاعتقاد بأن أجداد الطوارق قد حملوا من بلاد البربر الانتساب النسوي. وعلى كل فيبدو لي أن المشكلة لا يمكن أن تحل في الوضع الحالي لمعلوماتنا.

إن وجود هذا النظام الأسروي عند الليبيين يبدو أمرا لا مجال فيه للشك، ولا يبرر افتراض وجود حقبة من تاريخهم تجعل الرجال فيها كانوا خاضعين للنساء. فالانتساب للنساء يجد تبريره كما قلنا في كونه أمرا مسلما، بالتحاق الطفل بالأم وبالحمل والولادة، والعناية التي تستطيع الأم وحدها أن توفرها للطفل وهو صغير. غير أن هذا لا يحتم وجود ما يسمى بالحكم النسوي Gynécocratie.

في ديودور الصقلي[43] نقرأ حكاية طويلة مستقاة عن كاتب إغريقي من أهل القرن الثاني قبل الميلاد، هو ديونيسْيوس المعروف بلقب سكوتُبْراكْيون Scytobrachion، وهي : قبل عهد بِرْصي Persée وهِركول كان يوجد في القاصية الغربية لليبيا شعب من الأمازونات

Amazones. وكان النساء هنّ وحدهن اللواتي يُقبلن في الخدمة العسكرية. وأثناء هذه المدة كن يبقين عَذارى، ويتزوجن بعد ذلك لإنجاب الأطفال. وكان الرجال يبقون في حالة التبعية، وعليهم القيام بجميع الأعمال المنزلية، بينما جميع أعمال الدولة كانت مخصصة للنساء... إلخ... وبالطبع فإن هذه مجرد رواية يجب أن لا نعيرها أي اهتمام.

وكذلك فليس هناك من سبيل للحصول على معلومات حول ما قد يكون حكما نسويا بدائيا في الدور الذي لعبته بعض النساء في العهود التاريخية، مثل كورْيا Cyria التي شاركت في القرن الرابع الميلادي بحظ كبير في ثورة أخيها الأمير فِرْموس Firmus الموري ضد الرومانيين[44]، ومثل الكاهنة بطلة المقاومة ضد الفتح العربي، والتي يقال أن موهبتها في التنبؤ بالغيب أعطتها نفوذا لا مثيل له، وزاولت بواسطة أبنائها حكما كاد يكون مطلقا على قسم كبير من البربر. وكذلك الأمر بالنسبة لامرأتين اثنتين ساحرتين كاهنتين. هما عمّة وأخت نبي كاذب في قبيلة غُمارة بالمغرب الشمالي في القرن العاشر للميلاد. وزَيْنب وهي أيضا ساحرة، وكان لها بعد هذا التاريخ بقرن من الزمان تأثير كبير على زوجها يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين. وبعد ذلك في القرن الثالث عشر كانت أم يَغْمُراسن أمير تلِمْسان، وهي امرأة رجلة Virile ذهبت إلى معسكر الأعداء لإبرام إحدى المعاهدات، كما أن شِمْشي في القرن الرابع عشر كانت بمساعدة أبنائها العشرة تحكم قسما من بلاد القبائل Kabylie، وختاما ففي عهدنا وبنفس المنطقة فإن الولِيّة Maraboute لالّة فاطْمة كانت في سنة 1857 روح الثورة ضد فرنسا.

من بين جميع هؤلاء النساء الشهيرات، يتأكد أن بعضهن، ويحتمل جيدا أن البعض الآخر، لم يتقلدن أبدا أية سلطة قانونية. بل بفضل ذكائهن وقوتهن كانت لهن سيطرة زاولنها إما على المقربين من ذويهن أصحاب السلطة الشرعيين، أو زاولنها على مدى واسع. وكان لأكثرهن طابع القداسة. فمنهن ساحرات ونبيات ووليات.

وعلى غرار ما فعلته - أو لاتزال تفعله - شعوب أخرى، فإن البربر يجعلون بسهولة للمرأة قوة سحرية نافعة أو ضارة. وهم يخشون نقمتهن التي يمكن أن تكون لها أسوأ النتائج. وربما لهذا السبب يتحاشون أن يوقعوا بهن المصير الحربي الذي يوقعونه بالمغلوبين. وفي بعض قبائل المغرب، حيث منزلة المرأة هي دون بكثير من منزلة الرجل، يستطيع المرء الذي يهدده الموت أن ينقذ حياته بالالتجاء إلى إحدى النساء، فيتمسك بكنفها ويرجو حمايتها، وقلّ أن يجرؤ أعداؤه على انتهاك حرمة هذا الملجأ. وفي أعصر التاريخ القديم بل وبعده كذلك، كان يُعزى للنساء - لا للرجال وعلى الأقل للأحياء منهم - موهبة التعرف على المستقبل. وهكذا فنحن نعرف متنبئات شهيرات، كان بعضهن من مستوى رفيع مثل أم مسنيسا، والكاهنة ملكة الأوراس.

والإسلام يقبل بوجود الوليات اللاتي من أنفسهن أو يرثن هذا النوع من الجاذبية المقدسة التي تعطي سلطة عديمة النظير لمن يملكها. ولكنه (أي الإسلام) نحى النساء عن الشعائر العامة(45). وهذه النتيجة كانت أمرا جديدا على البربر. وقد وصف هيرودوت(46) حفلة دينية كبرى كان يقيمها الفتيات في ناحية سدْرة الصغرى، وذلك بعدما قمن بإحدى الشعائر السحرية لتنحية الشر. ولا يزال النساء يشاركن في العديد من الحفلات السحرية التي هي حية بشمال إفريقيا. ويكون من التهور البالغ

عزوه إلى نظام حكم نسوي بعيد العهد، بل ولا إلى تنظيم بدائي للفئات المجتمعية على شكل أسر أمومية.

3

باستثناء ما يعمل به الطوارق، فإن النظام الأسروي متماثل في كل مكان عند البربر. فلاشك أن البربر ينتمون لأجناس مختلفة، وأن سلسلة طويلة من الأحداث المجهولة قد جمعتهم أو قاربت بينهم. ولكن الزمان وحّد نظمهم الاجتماعية وكذلك أخلاقهم ولغتهم. ومن العبث البحث لمعرفة من منهم الذين أعطوا ومن الذين أخذوا. والشيء الوحيد الذي يمكننا ملاحظته هو تشابه نظامهم الأسري مع نظام الشعوب التي اعتدنا تسميتها تبعا للغتها باسم الآريين والساميين. على أن هناك بعض الاختلافات : ففي غيبة البراهين الواضحة عما يخص عهود التاريخ القديم، فإن البعض من هذه الاختلافات يسوغ لنا أن نفترض – وبما يقارب الصواب – أننا أمام قواعد وعادات سابقة في الزمن على عهد الفتح الروماني والإسلامي.

إن الأسرة البربرية مؤسسة على الزواج، ولها رئيس هو الرجل، الذي لابد أن تسكن عنده المرأة، وأن تطيعه، وأن تخلص له إخلاص الزوجة. وتعدد الزوجات أمر مشروع. والبنوة تثبت عن طريق الأب، أي عن طريق زوج المرأة الوالدة، لأن هذا إذا عجز عن الإدلاء بحجة زنى زوجته، فلابد له من الاعتراف بأبوته للأطفال الذين تلدهم. وتبقى الأسرة في الوجود عن طريق الذكور، بينما يغادرها البنات بزواجهن. ولا يُعدّ أبناؤهن منها. وكذلك تنتقل الأملاك الشخصية بين الذكور، بينما

الزوجات والبنات اللواتي لهن حظ في الميراث حسب القانون الإسلامي، ليس لهن أي حق في الميراث في العرف البربري.

أما أن يكون هذا النظام راجعا لتاريخ عتيق، فذلك ما لا يمكن الشك فيه. وإن أقدم الوثائق المتعلقة بأجداد البربر هي النقوش المصرية التي تعرفنا أن في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد كان الحكم عند الليبيين ميراثا متداولا بين الذكور. وذلك برهان على وجود الأسرة الأبوية. وبعد ذلك نجد في النقوش الليبية والبونيقية واللاتانية بعض الأهالي يذكرون اسم أبيهم. وليس لدينا فيما أعتقد أية إشارة بالانتساب للنساء. كما أن كل ما نعلمه عن الملوك والأمراء وأولياء العهد في نوميديا وفي موريطانيا حول نقل السلطة الملكية في هاتين المنطقتين خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، كل ذلك ينفي الانتساب للنساء ويشهد بالانتساب للرجال.

إن حياة العزوبية قليلة الوجود جدا بين البربر. والتطليق والترمل يتبعهما عادة زواج جديد إذا لم تمنع الشيخوخة منه. وعلى العموم فالرجال والنساء يتزوجون لأول مرة في الشباب الباكر، في سن المراهقة تقريبا بالنسبة للنساء. وبهذا العمل يتبين لنا لماذا يكون أكثرهن لا يزلن أبكارا. وإن كان هذا لا يكفي لتفسيره. ففي عهود التاريخ القديم كانت العذرية Virginité مستحسنة، بل ربما كانت مفروضة على الفتيات. ولا يزال الأمر معمولا به إلى اليوم. وفي جميع الجهات تقريبا يجب تقديم البرهان عليها جهرا عند إتمام الزواج (الدخلة)، فإذا تعذر ذلك فسخ الزواج. وفي بعض القبائل فالمرأة المردودة هكذا ربما يقتلها أهلها. ومنذ أقل من قرن، كان في منطقة القبائل Kabylie، أن الفتاة التي لها ابن سفاح تقدم للموت مع ابنها. كما أن القيمة الزواجية للأرامل والمطلقات هي أقل من قيمة الأبكار.

يحسن أن نميز في الزواج بين الطقوس وبين شراء المر
فالطقوس هي ذات أصل سحري. وهي تقام اليوم بصفة آلية فقد
مغزاها في الأغلب. وكانت فيما مضى تعبيرا عن المعتقدات والخشي
والمطامح المختلفة جدا. التي اختلطت فيما بينها من دون محاو
للتوفيق. وأكثرها كانت له – أو يبدو أنه كانت له – قيمة تطهيرية
وقائية. إذ يجب إبعاد الأخطار التي يتعرض لها الزوجان عند اقتحامه
حياة جديدة. وطقوس أخرى ترمي على ما يحتمل إلى تنحية الشر ال
قد تجلبه الزوجة بتأثيرها السحري، ليس على الزوج فحسب، بل ح
على الأشخاص الحاضرين. أو قد ترمي الطقوس على النقيض من ذ
إلى الاستفادة مما يحتمل أن يكون في هذا التأثير من خير. و
الطقوس ما يرمي إلى تيسير عملية إتمام الزواج، وجعله زواجا خص
وضمان السعادة والوفاق للأسرة. وبعضها يمكن النظر إليه كبقية
طريقة الاختطاف، وهي طريقة للحصول على المرأة مخافة تمام المخا
للطابع القانوني لنظام الزواج.

إن الزواج البربري هو في الواقع ناتج عن اتفاق علني يحصل ب
أبوي الشخصين المتزوجين. إنه شراء يقوم به والد الشاب من و
الشابة، ورضى هذه الأخيرة ليس ضروريا، وفي الأغلب فإنه لا يط
منها. وفي بعض القبائل فإن حق الأب في بيع بنته، هو له حق مط
سواء سبق لها أن تزوجت أو كانت بكرا. ولابد أن هذه كانت هي القا
البدائية. فإذا حدث أن خفت حدتها في بعض الجهات، وإذا استطاع
الأرامل والمطلقات عادة أن يملكن زمام أنفسهن فمن المحتمل أن ذ
كان على غرار التشريع الإسلامي. ومن نفس الشريعة اقتبس البر
المهر الذي يقدمه الزوج للمرأة، وقد يكون المهر حينا متميزا عن ث
البيع، وحينا آخر يتداخلان، بل قد يختلطتان. وحسب القانون البرب

البدائي، فإن ما أعطي لأب المخطوبة من ماشية، أو طعام أو مال فالأب يحتفظ به كله لنفسه على ما يحتمل.

وعدد الرجال – إذا لم ينخفض بسبب الحروب الفتاكة – إنما يختلف قليلا عن عدد النساء، ومع أن حياة العزوبة أمر استثنائي. فإن أكثرية البربر يتزوجون ضروريا بزوجة واحدة، بل إن بعضهم يكرهون تعدد الزوجات مثل أهل مْزاب بالجزائر وقبائل حاحة وآخرين بالمغرب.

ومع ذلك فإن تعدد الزوجات قديم جدا بشمال إفريقيا، سابق جدا على انتشار الإسلام الذي يأذن به كما نعلم. فهناك نقش مصري من القرن الثالث عشر يشير إلى أنه بعد إحدى المعارك وقع أسر اثنتي عشرة امرأة لقائد الريبو Rebou (هم الليبيون الشرقيون) وكان قد جاء بهن (للمعركة). على أن هناك براهين أخرى أحدث عهدا، وتمتد في الزمن ما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السادس للميلاد، وتشهد بوجود تعدد الزوجات في بلاد البربر. يقول هيرودت «عند النَّصمونيين، اعتاد كل واحد أن يتزوج عدة نساء»[47]. والأهالي الذين يعيشون بداخل الأراضي لهم حسب قول سترابون[48] «نسوة متعددات». ويقول بُمْبونْيوس[49]: «كل واحد منهم له عدة نساء في آن واحد». ونقرأ في سالُسْت[50] قوله: «... عند النوميديين والموريين... لكل واحد حسب موارده عدة نساء، فلبعضهم عشر منهن. وللآخرين أكثر. وللملوك أكثر وأكثر». كما أن مصنف رواية «حرب قيْصر» في إفريقيا يشير إلى زوجات يوبا الأول. وفي عهد الدولة المتأخرة يتحدث كلوديان Claudien بمبالغة مسموح بمثلها للشاعر عن «الزوجات الألف» عند الأفارقة[51] ففي القرن السادس يذكر بْروكُبْيوس Procopius كذلك أن الرؤساء لهم عدة نسوة[52] ويحكي أن القائد البيزنطي سليمان Solomon هدد بعض

الثوار بقتل أبنائهم الذين كان يحتجرهم رهائن عنده، فوصله منهم هذا الجواب : «يحسن بك أن يكون لك قلق على أبنائك، أنت الذي لا يؤذن لك بالزواج إلا من امرأة واحدة. أما نحن فقد نتزوج الخمسين إذا واتتنا الفرص. ولا يعوزنا الأطفال أبدا»[53].

فكما يستفاد من جل هذه النصوص، فإن الأغنياء والرؤساء والملوك هم الذين كان لهم نساء كثيرات، إذ كان بمستطاعهم أن يشتروهن وأن ينفقوا عليهن.

وكذلك كان للأمراء وللملوك محضيات، كن في الغالب من الإماء ولكن لم يكن لهن اعتبار الزوجات. والأبناء الذين يولدون منهن خارج الزواج لم يكونوا يعدون أبناء شرعيين.

إن هذا الإقبال على تعدد الزوجات يفسره على الخصوص الطبيعة الشهوانية التي عند الأهالي. فالمرأة تشيخ قبل الرجل بسرعة. وأثناء شبابها فإن الولادة والرضاعة وغيرهما من الأسباب، كثيرا ما تمنعها عن الاتصال الجنسي، في حين أن الرجال لا يعنون أنفسهم بالإمساك عن ذلك. وعلاوة على هذا فإن من يتمنى كثرة الأطفال يجد في تعدد الزوجات ما يمكنه مما يتمناه، وذلك هو ما يشهد به جواب الموريين للقائد سليمان، بغض النظر عن صدق ذلك الجواب أو كذبه. وقد استطاع مسنيسا بتعدد الزوجات أن ينجب أربعة وأربعين من الأبناء. أما الأشخاص الذين هم من مستوى عادي، فالنساء لهم بمنزلة الخادمات، أي رأس مال يدر نفعا، كما هي الحال بالنسبة للإماء تقريبا. وحيث إن تعدد الزوجات يسهل الخدمات المنزلية بتقسيم الشغل بينهن، فالزوجات أنفسهن يجدن فيه بعض المنفعة.

وسواء أكان الزواج بواحدة أم بزوجات متعددات، فإن الرجال يفرضون على زوجاتهم السكنى معهم في بيوتهم. والشيء الذي يميز أساسيا الحياة الزوجية هو تكوين أسرة دائمة لا ينقطع دوامها بالسن التي لا تعود فيها المرأة صالحة للحياة الجنسية. والعيشة المشتركة لا تقبل عند البربر إلا بين أزواج شرعيين. و«الأسر الصورية» قليلة الوجود جدا بينهم. وبالنسبة للأغنياء - سواء بزوجة واحدة أو أكثر - فإن التسري بنساء من منزلة أدون، لا يلغي الزواج، بل كأنه يكمله.

والحق أن الزواج يمكن أن يفسخ لأن الرجال لهم حق التطليق. وهم يستعملون هذا الحق عن سعة في كل مكان تقريبا. وبدون أن يبرروا أسباب قرارهم. والقدر المالي الذي سبق دفعه لشراء المرأة، فإنه عند بعض القبائل يرده أب المرأة المطلقة أو يرده زوج جديد. وحق التطليق هو حق لجانب واحد، إذ المرأة، وهي ملك للرجل بحق الشراء، لا يمكنها أن تتحلل من الزواج لا بإرادتها، ولا حتى بحكم القضاء. ولاشك أن هذه عادات بالغة في القدم. والإسلام في أمر الطلاق أقل قسوة على النساء.

والرجال ليسوا ملزمين بالإخلاص للزوجة. بحيث أنهم إذا توجهوا إلى البغايا، فإن سلوكهم لا يعني غيرهم. ولا يكونون معرضين للمخاطر إلا إذا أساءوا لأحد الأزواج بإجراء علاقات مع زوجته، أو نقصوا من القيمة الزواجية لإحدى البنات بأن حرموها من بكارتها.

والزوجة ملك كلي لزوجها الذي قد يكون له الحق في المتاجرة بها. وهذه التجارة بالغة في القلة، وهي ممقوتة جدا. لأن الأسرة - وهي تستمر من ذكر لذكر - لابد أن يكون انتقال الدم فيها انتقالا حقيقيا. لهذا فإن زنى المرأة يعاقب عموما بعقاب الموت. كما أن الشريك تنزل به

عقوبات قاسية. وعندما يقول هيرودُت إن النَّصَمونيين يقبلون وجود الزواج مع العلاقات الحرة مع النساء، فإننا نتساءل : هل هذا القول مطابق للحقيقة ؟ وعلى كل حال فإننا لا نجد من ذلك شيئاً عند البربر، لا في الحاضر ولا في الماضي الذي يبلغه علمنا[54] ولا يجب أن نستثني من ذلك سوى بعض الطقوس السحرية التي كانت تقام بين مدد زمانية بعيدة، غير معروفة جيدا لهذه الليالي (ليالي الغلطة) إن صح أن النساء المتزوجات كن يشاركن فيها.

وأحسن وسيلة لمنع الزنى، هي في حرمان الزوجة من فرصة اقترافه. لكن نساء البوادي لسن خاضعات لهذه العزلة المفروضة على نساء المدن، وهي لا تتناسب مع قسم من الخدمات التي يجب عليهن أداؤها. فيخرجن سافرات الوجوه. وفي تنقلات الرحَل، يكون النساء بالضبع بين الجموع السائرة، وغالبا ما يحضرن المعارك التي يخوضها أزواجهن وإخوانهم وأبناؤهن. ولكن يجب في حياتهن العادية أن يتجنبن ما أمكن التحادث مع الرجال الذين ليسوا من أسرهن. بل ويجب أن يتجنبنهم إذا لاقينهم. وفي الأسواق وغيرها من الأمكنة العامة فإنهن لا يقتربن منهم إلا إذا كانت شيخوختهن تحول دون أي خطر في هذا الاقتراب. والاجتماعات تكون فيما بينهن، إما في المقبرة أو في جل الحفلات. أما خارج العائلة فللجنسين حياة منفصلة انفصالا تاما.

برغم الطابع السحري والمقدس الذي يعترف به في بعض الظروف للنساء، فإن البربر مقتنعون بأن النساء دون الرجال. فالزوجة تخضع للزوج خضوعا كليا. وقد يحدث لاشك أن الزوجة بسبب جمالها أو ذكائها يكون لها على الزوج تأثير قوي يجعله يحسن معاملتها أو يقبل آراءها. وبدون شك فإن القرطاجيات والرومانيات اللواتي تزوجن بأمراء

من الأهالي لم يخضعن لنوع من الاسترقاق. ونحن نعلم أي تأثير كان لصفونة بَعْل (صفونسْبي Sophonisbe) الجميلة المثقفة على فكر الملك سيفَكْس، وإلى أي حد أقلق الرومانيين زواجها الجديد. وفيما سبق ذكرنا أمثلة أخرى للقوة المعنوية التي نالتها نساء كن من دم بربري.

ولكنها أمثلة كانت استثناءات. وفيما مضى كاليوم، كانت المرأة من سواد الناس خادمة تنوء بأشد الخدمات[55]، وتسرع إليها الشيخوخة بسبب هذه الحياة القاسية، وكذلك من كثرة ما تلد.

ومع هذا فيجب القول بأن الطوارق يمتازون من بين البربر بالوضع الأحسن الذي يمنحونه لزوجاتهم. وقد رأينا أنهم وحدهم الذين يقبلون تسلسل النسب في الخط النسوي. وأن هذا التسلسل، وإن كان لا يفضي إلى نظام الأمومية، فهو نوع من التشريف للأمهات. وهناك جوانب أخرى من أخلاقهم هي أيضا لصالح النساء: إذ لا يُعامَلن بعنف، ويتمتعن بحرية كبيرة يستعملنها ويبالغن في استعمالها، ويتنقلن كما يردن، ويتحدثن مع من يشأن، ويختلطن مع الرجال في الاجتماعات الموسيقية وغيرها[56]. ولا يتزوجن إلا إذا قبلن الزواج، والمقدار المالي الذي تؤديه أسرة الزوج هو مهر، وليس ثمن شراء، ويدفع لهن لأنه ملك كلي لهن. والإخلاص للزوجية هو الواجب الوحيد المفروض عليهن، من حيث المبدأ أكثر مما هو في الواقع، لأن البغاء قلّ أن يعاقب عليه بالعقاب القاسي. وفسخ الزوجية حق لهن، كما هو بيد أزواجهن أيضا، وإن كان لا يستعمله لا هؤلاء ولا أولئك، كما أن تعدد الزوجات هو أمر استثنائي.

إننا نعترف أن هذا الوضع للمرأة عند الطوارق يجعلنا أمام مشكلة مربكة، إذ لا يحتمل أنه وضع حديث العهد وقع بعد قدوم أجدادهم إلى

الصحراء. وإذا كان لهؤلاء الأجداد نفس القوانين العائلية التي لغيرهم من البربر، فلا نرى لأي سبب من الأسباب يتخلون عنها. ونحن أميل إلى الاعتقاد بأن الأخلاق الحالية للطوارق. وهي غريبة في هذا المجال، قد نقلوها هم فيما مضى من شمال إفريقيا. وليس هذا مسوغا للتسليم بأنها كانت منتشرة انتشارا واسعا في أرض البربر خلال العصور التاريخية، على الأقل في القرون التي سبقت عهد الميلاد وكذلك في التي تلته. إن معلوماتنا مهما كانت هزيلة يمكن أن تكون كافية لتسوغ لنا التأكيد بأن الأسرة الأبوية قد كانت موجودة عند النوميديين وعند الموريين، بل ولتسوغ لنا الاعتقاد بأنه لم يوجد عندهم نظام عائلي آخر. ومن ناحية أخرى يتأكد أن حظ النساء كان على العموم حظا قاسيا جدا، لأن القانون الإسلامي - وهو أقل سخاء معهن - هو مع ذلك ألطف بهن من العادات القديمة البربرية.

ولكن الجيتوليين الرحل جيران الصحراء - التي سيهاجرون إليها فيما بعد - لا مانع لدينا من الافتراض بأنهم استعملوا تسلسل النسب حسب الخط النسوي. وكذلك فلا مانع من الافتراض بأنهم حافظوا بشدة على نظام تخلى عنه أهل الصحراء الآخرون منذ عهد بعيد. والحقيقة هي أننا ليس لدينا على هذا حجة مباشرة. فلنترك إذن هذه المشكلة المستعصية، ولنبحث حالة الأطفال في الأسرة الأبوية.

يقبل البربر كثرة الأطفال عن طيب خاطر. وقد بينا أن ذلك أحد الأسباب التي من أجلها يتخذون حين يستطيعون عدة زوجات. وحبا في استمرار وجود أسرهم، فإنهم يستقبلون بفرح ولادة الأبناء. وفوق ذلك فإن الأبناء عناصر قوة في الكتلة الاجتماعية التي ينتسبون إليها. أما البنات فقدومهن لا يقابل بمثل ذلك الفرح الكبير. ومع ذلك فلا يقع

التخلص منهن لا بالقتل ولا بالتخلي عنهن. ويقمن بخدمات في عون الأم في أشغالها المنزلية. وإذا بلغن سن الزواج كانت لهن قيمة تجارية تعوض إلى حد ما النفقات التي أنفقت عليهن. وكثيرون هم الكتّاب القدماء الذين شهدوا بأن للأفارقة أبناء كثيرين. والحقيقة هي أن هؤلاء السكان الذين يعيشون حياة صعبة جدا، لابد أن الموت في سن باكرة قد كان عندهم قويا فيما مضى كما هو اليوم.

إن الحياة المشتركة المتولدة عن الزواج تهدف على الخصوص إلى ضمان السهر على الأطفال. فالأم تعنى بهم وتربيهم كما تستطيع، بينما الأب – وهو أقل مداخلة معهم – يهيئ لهم وسائل العيش ويقوم بحمايتهم عند الحاجة. وأغلبية البربر يؤدون هذه الواجبات بعاطفة المحبة. ومن ذلك فإن سلطة الأب مطلقة مثل سلطة أب العائلة الروماني Pater Familias. ويمكنه مزاولة هذه السلطة بعنف وعلى غرار المجتمعات الأخرى التي لها نفس النظام العائلي. فإن الأب في الأصل كان له دون شك جميع الحقوق على أبنائه، وحتى حقوق الحياة والموت. أما بناته فيبيعهن هو لمن يريد الشراء. وأبناؤه يبقون حتى اليوم خاضعين لسلطته إلى زواجهم الذي لا يمكنهم أن يعقدوه بحرية. فالأب هو الذي يقرره ويفاوض في شأنه، وغالبا ما لا يستشيرهم في ذلك. ولربما أن خضوعهم كان في الماضي يستمر إلى موت الأب، لأنهم كانوا لا يخرجون من العائلة بعد زواجهم مثل أخواتهم النساء. فلم يكونوا يفعلون أكثر من إضافة حلقة جديدة إلى السلسلة الطويلة التي يكونها الذكور في هذه العائلة.

زيادة على البنوة الطبيعية التي يثبتها الزواج القانوني، فإن العرف البربري يعترف بالنبوة عن طريق التبني. ولكن خلافا للقانون الإسلامي،

فالتبني لا يقبل إلا إذا كان لابن الأخ، أي لصالح الفرد الأقرب في العائلة بعد الأبناء، أو عند عدم وجودهم. وهكذا ففي القرن الثاني قبل الميلاد كان الملك مسِبْسا Micipsa قد تبنى يوغرطة Jugurtha ابن أخيه مَسْتَنَبعْل Mastanabal.

إن الأسرة البربرية التي وصفناها في خطوطها العريضة، تؤدي أهم أدوارها الاجتماعية. وهو الاستمرار في الوجود وتضامن الاجيال. وفي عهد كان فيه المتحضرون بالعالم القديم يحدون من عدد أبنائهم، كانوا يقولون بكل سهولة : إن الافارقة لهم أبناء كثيرون كثرة تجعلهم لا يحبونهم حبا جما. وقد كان لوم هؤلاء المتحضرين تبريرا سيئا لكبريائهم. لكن سالُسْت قد أوضح في بضع كلمات بالغة في الصواب عاهة تعدد الزوجات، إذ قال [illegible] : «يفقد التعاطف في هذه الكثرة (من الزوجات)، وليس لواحدة منهن المكانة التي للقرينة الحقيقية، وإنما كلهن محقرات على السواء». ونضيف أن الوفاق قلما يخيم بين هؤلاء النساء. كما أن أبناء من أمهات مختلفات لا يرتبطون فيما بينهم برباط متين، كما لو كانوا إخوة من الأبوين. فالدسائس والضغائن والأحقاد تحوم حول الزوج، حول الأب وتسبب الضعف للمجموعة العائلية. ومع هذا فلا يجب أن ننسى أن تعدد الزوجات هو في الأخير أمر استثنائي.

والسبب الحقيقي لضعف الاسرة البربرية هو في الحالة الوضيعة للزوجة، سواء في ذلك الأسرة المتعددة الزوجات والتي فيها زوجة واحدة. ولربما أن الأمر في هذه الأخيرة أكثر. وفي هذا الموضوع فإن القانون الإسلامي كان دون شك تقدما للأهالي الذين طبقوه، وهو حق كثيرا ما جهله الناس. فالمرأة البربرية اشتريت كأنها بضاعة، وتطلق حسب هوى زوج لا تستطيع هي أن تنحيه، وتستسلم لإرادته الطاغية، وترزح تحت أفدح الأشغال. وليس لها على سيدها من سلطة سوى

جمالها الذي سرعان ما يبل، وسوى العلاقات التي تنشأ عن اعتياد البيت المشترك، وذلك إذا لم يجعل الزوج بقسوة حدا لهذه العلاقات. ولكن يعزيها على الخصوص حب أبنائها. فهو عادة حب قوي جدا ولا ينقص مع السن.

4

وكما عند الإغريق وعند الرومان وعند غيرهم كذلك، فإن الأسرة الضيقة المتكونة من الزوجين وأبنائهما، هي عند البربر جزء من الأسرة الكبيرة التي هي أيضا مؤسسة قانونية، أي إطار لا شك قد كونه، أو على كل حال اتخذه أحد المجتمعات قصد توزيع أعضائه فيه.

فبي مجموعة يكونها في الكبر عدد متفاوت من الذكور المنحدرين بالتسلسل الذكوري من جد مشترك. وينضاف لهؤلاء الرجال نسوتهم. أما البنت فإنما هن من المجموعة ومن الأسرة الضيقة إلى أن يتزوجن.

هؤلاء الأفراد الذين تجمعهم القرابة عن طريق الذكور هم المعروفون في اللاتانية باسم Agnati، وجماعتهم هذه، تسمى Gens (كنس). وهي التي تدعى في بلاد القبائل باسم تخروبت Takherroubt. (من الاسم العربي "الخروبة" بعد أن اكتسى صيغة بربرية). وتدعى في المغرب باسم إيخس Ikhs. وكان يسهل علينا أن نسميها نحن باسم العشيرة Clan لو لم يكن المحدثون من علماء الاجتماع قد قرروا إطلاق هذا الاسم (العشيرة Clan) على جماعات ذات نظام مغاير.

لقد كان منتظرا أننا في النصوص اللاتانية المتعلقة بالأهالي الافارقة، نجد اسم كنس gens هو الذي يطلق على هذه المجموعة، غير

جمالها الذي سرعان ما يبل، وسوى العلاقات التي تنشأ عن اعتياد البيت المشترك، وذلك إذا لم يجعل الزوج بقسوة حدا لهذه العلاقات. ولكن يعزيها على الخصوص حب أبنائها، فهو عادة حب قوي جدا ولا ينقص مع السن.

4

وكما عند الإغريق وعند الرومان وعند غيرهم كذلك، فإن الأسرة الضيقة المتكونة من الزوجين وأبنائهما، هي عند البربر جزء من الأسرة الكبيرة التي هي أيضا مؤسسة قانونية، أي إطار لا شك قد كونه، أو على كل حال اتخذه أحد المجتمعات قصد توزيع أعضائه فيه.

فهي مجموعة يكونها في الكبر عدد متفاوت من الذكور المنحدرين بالتسلسل الذكوري من جد مشترك. وينضاف لهؤلاء الرجال نسوتهم. أما البنات فإنما هن من المجموعة ومن الأسرة الضيقة إلى أن يتزوجن.

هؤلاء الأفراد الذين تجمعهم القرابة عن طريق الذكور هم المعروفون في اللاتانية باسم Agnati. وجماعتهم هذه، تسمى Gens (كنّس)، وهي التي تُدعى في بلاد القبائل باسم تخرّوبْت Takherroubt. (من الاسم العربي "الخروبة" بعد أن اكتسى صيغة بربرية). وتدعى في المغرب باسم إيخْس Ikhs. وكان يسهل علينا أن نسميها نحن باسم العشيرة Clan لو لم يكن المحدثون من علماء الاجتماع قد قرروا إطلاق هذا الاسم (العشيرة Clan) على جماعات ذات نظام مغاير.

لقد كان منتظرا أننا في النصوص اللاتانية المتعلقة بالأهالي الأفارقة، نجد اسم كنْس gens هو الذي يطلق على هذه المجموعة، غير

أن هذا اللفظ (أي گنس) قد أطلقه الرومانيون على القبائل Tribus. فعلى ما يحتمل كان ذلك في بادئ الأمر، حين كانوا لا يعرفونهم معرفة عميقة، وقبل أن يميزوا المجموعات العائلية Groupes familiaux التي تتكون منها القبيلة.

واللفظان Familia وTribus هما اللذان كان الرومانيون يطلقونهما على العائلة الواسعة عند الأفارقة. فبُمْبونْيوس ميلا Pomponius Méla حين تحدث عن الرحل بداخل الأراضي قال إنهم يعيشون في familiae المتكونة من Agnati. ولفظ Familia يوجد أيضا بنفس المعنى حسب رأينا في إحدى الفقرات من پْلين الشيخ Pline l'Ancien وفي أحد النقوش التونسية[58]. ومن ناحية أخرى لدينا نقوش لاتانية بها اسم لأحد الأهالي مصحوب باسم الـ Tribus. وفي هذه النقوش ورد لفظ الـTribus متبوعا باسم علم يظهر أنه يدل على شخص. فيحسن الاعتقاد أن الـ Tribus كان عبارة عن مجموعة الأقرباء الذكور(Agnats = Agnati) المسمين باسم الجد المشترك بين أعضاء المجموعة[59].

وهل تعتبر عبادة هذا الجد والآباء الموتى عنصرا من عناصر التضامن في المجموعة؟ هناك نص من هيرودت سنعود إليه فيما بعد يمكن اتخاذه علامة وليس حجة في ذلك. يقول[60] «إن النصمونيين إذا أرادوا التكهن (بالغيب) فإنهم يذهبون إلى قبور أجدادهم وينامون فوقها بعد أن يُصلوا، وينفذون ما يرونه في المنام».

وعلاوة على ما ذكر، فإذا كانت القرابة الدموية توحد المجموعة، فإن الحياة المشتركة تحافظ عليها. وذلك عند الرحّل في تنقلاتهم وفي إقامتهم المؤقتة في أمكنة مختلفة، كما عند المستقرين إما في سكنى

موحدة أو في مجموعة من المساكن المتلاصقة أو المتقاربة جداً. وهذه العيشة المشتركة أمكن في بادئ الأمر أن تكون لها نتيجة طبيعية هي الملكية المشاعة، على الأقل ملكية الأشياء التي لم تجعلها طبيعتها مخصصة للاستعمال الشخصي، مثل الأدوات والأسلحة وغيرها...

وتحتاج المجموعة لرئيس يسيرها ويمثلها أمام المجموعات الأخرى المماثلة لها، والتي هي على غرارها جزء من مجتمع أوسع. وقد يكون هذا الرئيس هو الأكبر سناً من الفرع الأكبر - كان هذا هو المعمول به في الـكنْس الروماني - أو قد يكون هو الأكبر سناً من بين جميع الأعضاء المكونين للقبيلة الذكورية Famille agnatique. ولعل البربر القدامى - كذريتهم اليوم، وكعرب الجاهلية وغيرهم من الشعوب، كان عندهم السن - لا بكورية المولد Primogéniture - هي التي تخول حق السيادة. وسنرى أن هذا كان هو القاعدة في تولي الملك في القرن الثالث للميلاد في المملكة الماسيلية. ولاشك أنها قاعدة استعيرت من القانون العائلي. وسنرى أيضاً المكانة المهمة المعطاة للشيوخ في مجالس الجماعات المشتملة على عدد تتفاوت به الأسر الذكورية. ولابد أن الأمر كان كذلك في هذه القبائل. وعلى ما يبدو فإن الرئيس لا يتصرف تصرف الحاكم المطلق، بل إنه عادة يستشير الشيوخ الذين تحرروا من السيطرة الأبوية عليهم بموت آبائهم، فأصبحوا على رأس قبائل صغيرة.

إذا كان يبدو حقيقة أن القبيلة الذكورية هي كالقبيلة الضيقة (الأسرة) طريقة لتنظيم المجتمع الواسع الكبير، فإنها قد أصبحت هيأة مستقلة. لا تقبل أن تتدخل في حياتها الداخلية أية سلطة أجنبية. فهي التي تعاقب بالموت الزوجة الزانية التي قد تُدخل بزناها دخيلا على

الجماعة. وتضامنها في مواجهة الأجانب قوي جدا. ويولد التزامات ومسؤوليات مفروضة على جميع الذكور. أما النساء فمعفيات عادة نظرا لضعفهن على الخصوص، وأيضا ربما لكونهن مقبولات داخل الجماعة فحسب. فالواجب يفرض على الجميع الانتقام من الشتائم وأعمال العنف ومن الجنايات الواقعة على أحد أعضاء القبيلة. والعقاب هو القصاص[61]. ومن حيث المبدأ، فإن العرف البربري لا يقبل التصالح المالي، وقد استقى ذلك من القانون الإسلامي. ومن جهة أخرى فإن الجماعة متضامنة في مسؤولية الجريمة التي يقترفها أحد أعضائها. والثأر يمكن أن لا يؤخذ من الجاني نفسه، بل من أي عضو ذكر آخر تكون قيمته الرجولية مماثلة تماما لقيمة الضحية.

وإذا نشب خلاف بين شخصين ينتميان لقبيلتين مختلفتين لهما نظام ذكروري، ولم يشتد الخلاف إلى حد فرض الانتقام، فيقع على هاتين القبيلتين واجب البحث عن التسوية بالتراضي، أو طلب هذه التسوية بأحد الوسطاء. وكذلك إبرام العقود فهو في القانون البربري العتيق عملية تربط مجموعتين قبليتين، وليس شخصين. وإذا كان شراء المرأة قد أصبح عملية تخص أبوي من سيتزوجان، فلدينا إشارات تدل على أن القبيلتين الذكوريتين كانتا في الأصل تشتركان في إبرام هذه الصفقة.

وزيادة على أعضاء المجموعة، فقد أمكن أن يضاف لها رجال آخرون من مستوى أحط كالأتباع والعبيد. ولكن ليس لدينا أي علم حول هذا الموضوع عن العهود العتيقة.

في أرض أطفالُها عديدون، فإنه قلما تضمحل القبائل أو تنقرض إلا بالحرب. ولكن هذه القبائل يمكن أن تنقسم على نفسها لعدة أسباب

كضعف العلاقات الرابطة، وكضعف الشعور بالعصبية بين أقرباء يتباعدون شيئا فشيئا، وكالخلافات الداخلية التي تفضي إلى انفساخ عنيف، وكالصعوبات التي تجدها هذه المجموعات التي تنمو على مر العهود في الاستمرار في الحياة المشتركة، وداخل النطاق الضيق الذي ضم الأجيال السابقة، والذي غالبا ما يصعب عليهم توسيعه، ومن ثم فيلزم الابتعاد.

5

إن القبيلة الذكورية، المتكونة من مجموعات أخرى مجهولة لدينا، تتمتع بحرية كبيرة داخل المجتمع الذي هي جزء منه، بل ويحتمل أنها كانت تنعزل ماديا وتقضي هنا وهناك حياتها في استقلال تام. يقول بُمْبونْيوس ميلا [62] : إن الرحل بداخل الأراضي يعيشون في عائلات ذكورية متناثرة، بدون قانون وبدون إجراء لمداولات مشتركة. فمن المحتمل أن الأمر كان على هذا النحو، ولكن ليس بكل مكان. وخلافا لما يعتقده ميلا Mela فإنما كان هذا في بعض النواحي الفقيرة جدا، التي بها ندرة المراعي وقلة الماء لم تكونا تساعدان العدد الكبير من الناس على التجمع، ولم تكن هذه التجمعات العائلية الصغيرة فيها تخاف من مزاحمة من هو أقوى منها على خيراتها الهزيلة. فكان لابد أن يمكث أهلها حيث هم، لأنهم أشد ضعفا من أن يقوموا إلى جهات أخرى في محاولات للسيطرة قصد تحسين مصيرهم.

ومع ذلك، فإن ضرورة تكوين جماعات واسعة قد فرضت نفسها من وقت باكر على سكان أرض البربر، وكانت هذه الضرورة أقوى من الحب الشديد للاستقلال ومن روح الفوضى اللذين يكوّنان الخط الواضح في

مزاجهم. وقد سبق أن رأينا أن الحلل الكبيرة[63] قد وجدت منذ العهود التي كان الناس يعيشون أثناءها بالمنتجات النباتية الطبيعية، وفسرنا وجودها بالحاجة إلى الدفاع وبأن منابع الماء دعت إلى ذلك. وعندما انتشرت تربية الماشية والزراعة فإن هذه الضرورة في التجمع قد زادت شدة لزومها.

إن الجهات التي في أرض البربر توجد بها مراع طوال السنة هي قليلة نسبيا. ففي التل ييبس في الصيف كلأ السهول، كما أن كلأ الجبال كثيرا ما تغطيه الثلوج، والبرد في هذه الأماكن العالية يؤلم الماشية. فيحسن والحالة هذه أو قد يلزم القيام بالانتجاع Transhumance. فالسهوب Steppes تعطي وسائل للعيش طوال الشتاء. ولكن القطعان في الصيف يجب أن تغادر هذه المجالات التي يعوزها آنذاك الماء والكلأ وأن تتجه نحو التل، أو أن تتجه إلى الأطلس الصحراوي إذا لم يكن من الأمر مناص. أما الذين يسوقونها فإن حياة الرحل مفروضة عليهم. إنني لا أتحدث هنا على الترحل الكبير الذي يمتد من الصحراء حتى التل، لأنه ناتج عن تربية الجمال التي لم تكن مستعملة بعد في العهد الذي ندرسه.

في المجتمعات القارة يكفي بعض الرعاة لسوق الماشية وحراستها، أما عندما تكون حمايتها من محاولات نهبها أمرا ضروريا. وعندما تكون هي كل ما يملكه أصحابها - أو كأنها كل ما يملكون فإن هؤلاء يكونون مضطرين لمصاحبتها، هم وعائلاتهم[64]. وكما يقول عنهم پوليب Polybe فإنهم يعيشون من قطعانهم[65]. وهم لا يسيرون عشوائيا، بل عليهم أن يتبعوا الطرق التي تتتابع فيها مراكز الماء، ويتأكدون من حرية المرور بالفجاج وممرات الجبال والشعاب والوديان، التي تبلغ بهم إلى المواقع التي يمكنهم الإقامة بها، والتي يعرفون

مواردها لأنهم عاشوا فيها في السنين الماضية. والحق أنه قد يحدث عهد طويل من الجفاف يحيل هذه الجهات إلى القحولة. وفي هذه الحالة يجب عليهم التحول إلى جهات أخرى. إلى حيث يكون قد هطل المطر. وحيثما يذهبون فلابد لهم من المجالات الواسعة التي تتطلبها تربية الماشية.

بهذا تحدث الخلافات المتعددة مع الرعاة الآخرين، فيقع الصراع على الأراضي التي تكثر بها الأمطار عادة وتضمن غزارة عيون الماء وخصوبة المراعي. وإذا انحبس المطر بالجفاف حدثت المعارك الشديدة لأجل حياة القطعان وحياة الناس. وفي الهجرات تحصل الخلافات حول نقط الماء. وبهذا فالمجموعات التي تكثر بها المواليد البشرية، والتي تنمو ماشيتها بسرعة تفرض عليها الضرورة أكثر فأكثر أن تنتشر في الأرض، وأن تطرد أو تدمر المجموعات التي تضايقها في توسعها. وتحدث كذلك الغزوات السريعة التي ليس لها من سبب سوى الطمع الكريه في خيرات الغير.

إن الحق في الحياة وإرادة حياة أفضل وكذلك الدفاع والهجوم. إن كل ذلك يفرض الاتحاد، ويفرض قدرا من الانضباط المشترك. ويفرض تكوين مجتمعات دائمة، لها القوة لصد الدخلاء عن الأراضي التي تريد الاحتفاظ بها لقطعانها، ولشق الطريق التي لابد أن تمر بها في هجراتها ذات الدورات المتكررة. ولها كذلك القوة للاستيلاء على المجالات التي تعوزها، وللقيام - إذا واتت الفرصة - بغزوات مربحة. وفي السير يقع التقدم جملة أو على أفواج، حتى لا يقع الازدحام على الآبار والعيون ولا تجف. أما في الأعلى فكل عائلة ذكورية تكوّن مجموعة من المساكن المتنقلة والمنعزلة غالبا، ولكنها مع انعزالها تكوّن قريبة من المجموعات الأخرى إلى حد يتيح بذل المساعدات. أما القطعان التي ترعى حول

الموقع فإنها تعاد ليلا إلى داخله لتحرس. ويجتمع رؤساء (شيوخ) العائلات لاتخاذ القرارات التي تعني الجماعة. وليس لدينا برهان على أن العلاقة التي تربط الأعضاء تكون قوية بعبادة جماعية.

في الأهالي يميز هيرودت تمييزا واضحا بين الرعاة والفلاحين. فالأولون يسكنون مساكن يمكن نقلها، والآخرون لهم منازل ثابتة. وبعد ذلك بكثير نجد نفس التمييز، ولكنه تمييز ليس قاطعا. بحيث إذا كان قد وجد أفارقة يتعاطون لتربية الماشية وحدها، فإن الذين يتعاطون للزراعة لم يمنعوا أنفسهم أبدا من اقتناء الماشية. ومع ذلك فمن الصواب أن يقال أن التعارض بين حياة الرعاة الرحل وحياة الفلاحين المستقرين هو تعارض سيطر خلال العصور على الحياة الاقتصادية بشمال إفريقيا.

إن الزراعة تربط المرء بالأرض، وغراسة الأشجار تربطه بها أكثر. وهنا أيضا فأسباب الخلافات وأخطار انتزاع الأرض متعددة نتيجة لذلك. فالخصومة تحدث بين الجيران على الماء الجاري الذي يمكن استعماله في السقي، والذي يمكن لأهل المنبع أن يمنعوا منه أهل المصب. والخصومة تحصل أيضا بسبب الأرض التي هي على حال من الخصوبة. والرعاة هم بصفة أخص الأعداء الطبيعيون للفلاحين. لأنهم يريدون الاحتفاظ لأنفسهم بالسهول التي يشقها الفلاحون بالمحاريث. وعندما تخرج سنابل القمح والشعير من باطن الأرض، تكون هي الطعام المفضل للماشية. والرحّل يتنقلون بسهولة منذ أن أصبحوا يستعملون الأفراس. فيقعون بغتة على الفلاحين المستقرين، وينهبون مساكنهم ويحملون معهم ما يجدون من الحبوب. وفي الحق إن الفلاحين يمكنهم خزن محاصيلهم في مخازن بباطن الأرض لا يعثر عليها العدو دائما. ولكن أملاكهم الأخرى وحريتهم، بل حتى حياتهم إذا كانوا يعيشون في

مساكن او حلل معزولة، أي وسط حقولهم، فهي تحت رحمة الرحل. والهجمات تكون مباغتة إلى حد أنهم لا يجدون في الغالب وقتا للفرار أو الالتجاء إلى أمكنة يعسر الوصول إليها.

فضمان سلامتهم يفرض عليهم إذن السكنى في قرى تحميها عوائق طبيعية، أو أسوار إذا لزم الأمر. وتقام هذه القرى على العموم قرب منبع مائي يغري الناس بان يكونوا حوله جماعة تتناسب في كثرتها مع الكمية المائية التي يعطيها النبع. وهناك أسباب أخرى تدفع بهم ليعيشوا جماعة، وهي حب الحياة المشتركة، والمصالح المتبادلة التي يمكن أن يؤديها البعض للبعض في المهمات التي تستلزم إنهاء سريعا وسواعد كثيرة، كالقيام ببناء دار والقيام بعمليات الحصاد. ولكن القرية في بلاد البربر كما في اسبانيا هي قبل كل شيء عبارة عن مجمع ذي هدف دفاعي للذين يستغلون الحقول المحيطة بالقرية. وعند الاغريق واللاتانيين فإن المنطقة التي تستغل في الزراعة ليست سوى منطقة تابعة للمدينة. بينما عند الافارقة فإن المنطقة الترابية هي التي تنشئ القرية، وذلك لقلة المدن عندهم. والقرية قل سكانها أو كثروا، لا تكون واسعة ابدا لانها في الحقيقة ليست سوى ملجأ دائم في موقع حصين. وتقام القرية طبعا أقرب ما يمكن من الحقول، بحيث يستطيع الفلاحون أن يذهبوا دون أن يضيعوا كثيرا من الوقت.

وحتى أيامنا هذه، أو إلى ما يقاربها جدا، فبكل مكان عند البربر المستقرين في بلاد القبائل والاوراس كما بالمغرب في الريف والاطلس، نجد طرازا من التجمع والتنظيم لابد أنه راجع إلى أقدم العهود العتيقة، وإن كنا لا نستطيع معرفة الطريقة التي بها كانت وانتشرت. فالقرية هي

جمهورية متكونة من عدد من العائلات الذكورية التي تحافظ على تماسكها بضمنها وعلى حقها - هي نفسها - في تسوية قضاياها الخاصة.

أما القضايا ذات الصالح العام فتجري مناقشاتها في تجمع (الجماعة بالعربية) يختلف تكوينه. وفيه تتخذ القرارات[66]. وفي الأصل لابد أن رؤساء (شيوخ) المجموعات هم الذين كان اجتماعهم يكوّن الجمهورية، أي رؤساء العائلات الذكورية. ولا يزال الأمر هكذا في بعض الجهات (بشمال المغرب وموسطته)، بينما في جهات أخرى يكون أعضاء التجمع نوابا عن هذه العائلات أو أعيانا منتخبين. وفي أمكنة أخرى فإن جميع الذكور الراشدين يحضرون التجمع. ولربما أنهم اكتسبوا هذا الحق من كونهم مدعوين للمشاركة في الدفاع عن القرية. لكن الشيوخ وحدهم هم الذين يتناولون الكلام أثناء المناقشات. وغالبا ما تكون القرارات المطلوبة قد سبق اتخاذها في اجتماع مصغر يكوّنه الشيوخ الوجهاء. وعلى كل حال فالشيوخ هم الذين يحكمون الجمهورية الصغيرة. وهكذا كانوا يحكمونها منذ خمسة عشر أو عشرين قرنا. وهناك بعض النقوش اللاتينية التي تعرفنا بشيوخ القصبات Seniores de castella أي بمجالس للشيوخ عاملة في بعض القرى.

وتفصل هذه الجماعات في قضايا مختلفة جدا : في إصلاح المسالك، ومجاري المياه، في المقبرة وتوزيع مياه السقي، وتوزيع الأرض للزراعة حيثما تكون الملكية جماعية. وتبت كذلك في الخلافات حول الحدود الملكية العائلية أو الفردية. وتبت في فرض أشغال السخرة، وفي اقتبال الضيوف كما تفصل في تقارير الاتحاد او الخلافات مع الجيران، وغير ذلك.

وبرغم طموح العائلات لأن تبقى مستقلة، فإنها يستحيل عليها أن تحافظ على كمال حقها في الثأر وعلى مسؤوليتها الجماعية، فتكون والحالة هذه الحرب الأهلية باستمرار. فلصالح النظام يجب على الجماعة أن تتدخل وتعاقب المجرمين. والتجمع يحكم بالغرامات المالية على الشتائم والسرقات. وفي حالات الإضرار والضرب والجروح وغير ذلك. وبهذا يتكون قانون صغير للجزاء. ويكون عموما غير مكتوب. وهو في الجزائر يسمى قانون (أو كانون Qanoun). واللفظ لاشك من أصل إغريقي (Κανων) استعمله اللاتانيون في إفريقيا كما في غيرها وإن كان بمعنى مغاير. ويشك جدا أن يكون هذا اللفظ أستمر معمولا به في بلاد البربر منذ العهود العتيقة. ولربما يكون انتقل إليها من المشرق في عهد حديث نسبيا. وعلى كل حال فلابد من قبول كون الأمر اشد قدما من اسمه. فالقانون العرفي للقرى البربرية - وهو بالتأكيد متقدم زمنا على الشريعة الإسلامية التي لا يتفق معها دائما - قد بدا في التكوين منذ مولد هذه الجمهوريات التي ما كانت لتعيش بدون نظام منضبط بعقوبات.

والجماعة الذي يكونها الشيوخ، أو يسيرونها، يمكن أن تكون هي السلطة الوحيدة في القرية، بل ويحتمل جدا أن الأمر كان هكذا في كل مكان. لأن النصوص اللاتانية تذكر الشيوخ Seniores ولا تورد أي ذكر لولاة (حكام) محليين بجانبهم. وهذا يتفق مع طابع هذه «الجمهوريات»، حيث إن العائلات لا تقبل إلا بصعوبة وجود سلطة خارجية.

لكن تنفيذ عزائم التجمع، والحفاظ على الامن والنظام المضمون بإجراءات الشرطة والعقوبات، تسند في الأغلب إلى عمدة Maire. وحسب ما نظن هو الوالي (الحاكم Magistratus) الذي يظهر مع الشيوخ

Seniores على أحد النقوش اللاتانية بنوميديا[67]. فالتجمع ينتخبه إما لسنة (وفي هذه الحالة يمكن تجديد انتخابه عادة)، وإما أنه ينتخب بغير تحديد للزمن ولكن مع إمكان تنحيته. ومن حيث القانون فهو وكيل أكثر مما هو رئيس. ومع ذلك فإن اختياره يقع من بين الأعيان، ويمكن أن تصير له قوة حقيقية بفضل ثروته وشجاعته وذكائه ولباقته في استمالة الأفكار وربط مصالح الناس به. وبهذا يمكن أن يخلد في ولايته، بل وأن يصيرها وراثية بالفعل.

تلك هي الخطوط الأساسية والعريقة في القدم لاشك، لتكوين القرى البربرية، أي الوحدات السياسية التي تتجمع فيها الوحدات الاجتماعية التي هي العائلات الذكورية. وهذه الأخيرة لابد أن تقدم تضحيات للصالح العام. ولكن التضحيات لا تكون سوى تنازل محدود. ثم إن القرارات التي يتخذها الشيوخ، إنما تتخذ بمقتضى اتفاق بينهم جميعا، وليس بموجب إرادة من هم أكثر عددا. وضرورة الحصول على هذه الموافقة الجماعية تدفع إلى قبول التراضي. ويصلح قانون العقوبات في الجنح على الخصوص. أما في الجرائم فالعائلات تعتبر على العموم أن شرفها لا يسمح لها بأن تتنازل عن حقها وواجبها في الثأر[68].

6

من فوق العائلات الذكورية، ومن فوق مجموعات العائلات الراعوية والجمهوريات القروية، فإن القبائل هي عبارة عن دويلات اتحادية تكونت للدفاع أو الهجوم. وذلك نظرا لأن المجموعات السفلى لا تملك كل منها على انفراد القوة للحفاظ على وجودها أو على تحقيق مطامحها في التوسع والسيطرة المربحة، أو في الانتقام.

فالقبيلة، التي لها أساس متين عند شعوب أخرى مثل الغاليين والجرمانيين الذين تلتحم عندهم عناصرها في وحدة ترابية وسياسية وإدارية ودينية واقتصادية، ليست عند البربر سوى تجميع للمجموعات التي تحافظ بشدة على سيادتها وعلى روحها الإقليمية، والتي تنفصل بسهولة عن إحدى القبائل لترتبط بواحدة أخرى عندما تملي عليها مصلحتها ذلك. فهي قبل كل شيء، بل إنها في الأغلب ليست سوى رابطة سياسية وعسكرية ضد الأجنبي. والذين يكونونها يدعون تعسفا أنهم أقرباء على الطريقة الذكورية. لأن الجد المشترك بينهم (الأعلى) ليس سوى شخص أسطوري. ثم إن السهولة التي بها تضم القبائل إلى نفسها عناصر جديدة تكفي للدلالة على زيف هذه القرابة الدموية.

منذ الألف الثاني قبل الميلاد، ذكرت الوثائق المصرية قبائل إفريقية بين وادي النيل والسدرتين. أما بالنسبة لبلاد البربر نفسها، فإن مصادرنا لا تساعدنا على الرجوع لأبعد من القرن الخامس قبل الميلاد. وفي الفصل الموالي سنذكر القبائل القليلة التي لا تتعدى العشرين والتي يعرفنا بها هيرودت، وكتاب أخرون أحدث عهدا منه حتى عهد السيطرة الرومانية. وقد كانت أكثر عددا، وكانت النطاقات الجغرافية التي عاشت فيها ضيقة المجال عادة، بحيث إن عهد أوغسطس كان فيه المئات من هذه القبائل في ولاية إفريقيا، أي في تونس وطرابلس (ليبيا حاليا) وفي شرق الجزائر[69]. وكان الإغريق يطلقون عليها اسم إثني εθνη، كما أن اللاتانيين كانوا يطلقون عليها اسم كِنْتس Gentes، وأحيانا دعوها باسم Nationes و Populi (وكلها تؤدي معنى القبيلة والشعب والعشيرة...).

والعناصر التي تتكون منها القبيلة هي حتما مجموعات الجيران الذين يتشاركون لحماية أراضيهم أشد حماية، فيصبحون بهذا

متضامنين في حماية منطقة متفاوتة السعة. ولا يمكن تصور قبيلة من غير منطقة ترابية تخص بها نفسها، أو تكون رهن إشارتها على الأقل، فتسكنها دوما أو خلال قسم كبير من السنة. وتتكون هذه الشركة عموما بين ناس يحيون حياة متشابهة. فلهم والحالة هذه نفس المصالح التي يذبون عنها. وغالبا ما تكون هيئة الأرض هي التي تعين الحدود للقبائل، شأنها في ذلك شأن القرى Les pays في أرض الغال القديمة وإن كان ذلك بصفة أخف وبكثير من المرونة، بحيث أن الكثير من المناطق الترابية للقبائل الإفريقية هي في نفس الحين مناطق طبيعية.

لقد انتشرت الزراعة ببطء عند الليبيين. فإذا كان سكان شرق تونس يتعاطون في القرن الخامس قبل الميلاد لزراعة الحبوب.وإذا كان الامر كذلك بالنسبة للسكان الذين أخضعتهم قرطاجة لسيطرتها المباشرة، فإن أكثرية النوميديين والموريين من سكان شمال الجزائر والمغرب كانوا في بداية القرن الثاني يقتصرون على تربية الماشية. وذلك حتى في الجهات التي قد تمكنهم فيها التربة والمناخ من الاقتداء بما يفعله الأهالي في شرق بلاد البربر. ولم يكن من الضروري لهذه القبائل الراعوية من أهل التل أن تقوم بتنقلات طويلة. فكان يكفيها أن يكون لها سهول للرعي في فصل الشتاء، وغابات وجبال تسوق إليها قطعانها أثناء الصيف وتجد فيها الصيد بكثرة. ولابد أن هذا المظهر المزدوج هو ما كانت عليه المناطق التي كانت القبائل تنجح في تكوينها لها أو تجتهد في تكوينه[70]. وبين سهلين أو شعبين على ملك قبيلتين مختلفتين، فإن سلسلة شجيرة تصلح لتكون منطقة حدود، وربما لا يهتم أحد بأن يخط فيها خطا لحدود مدققة. وتستطيع القبيلة أن تقيم ملتجأ بمكان عسير في حاشية الأراضي المنبسطة والجبال، فتلتجئ إليه إذا

اقتحم أرضها أعداء أقوى منها، وتضع فيه غالبا مقتنياتها الثمينة وكذلك الحبوب التي اشترتها أو استولت عليها بالقوة.

والانتقال من الحياة الراعوية إلى الحياة الزراعية يكون إما بمجهود نحو الأفضل نحو حياة أكثر اطمئنانا، وإما أن يكون انحطاطا لابد أن يرضى به ولو مؤقتا مُربَو الماشية الذين فقدوا ماشيتهم. وغالبا ما يكونون هم الذين يذهبون للإقامة حيثما يستطيعون. أما القبائل الزراعية الأخرى، فتفضل السهول حيث تتمكن من المعاقبة بين الحقول المستريحة والحقول المزروعة. ويكون لها نطاق من المرتفعات التي تقام فوقها القرى، وتحمل البساتين حين تتسع غراسة الأشجار وتنمو، بينما الغابة من الخلف تعطي الخشب الضروري للتدفئة والبناء.

ويكوّن الرعاة المقيمون بالسهوب قبائل لابد أن مناطقها الترابية واسعة جدا، نظرا للموارد الهزيلة لهذه المناطق حتى في فصل الشتاء. فإذا جاء الصيف فالقبيلة بكاملها تهاجر إلى التل أو إلى الأطلس الصحراوي. ولربما أنها تكون لنفسها هنا منطقة ترابية تكون تتمة لمنطقتها في السهوب. فتقيم بها المأوي ومخازن الحبوب. لكنها في الأغلب لابد أن تسوق قطعانها خارج ترابها وتنال حق الرعي عن رضى أو بالقهر.

وحيث إن القبائل هي عبارة عن ارتباطات لمجموعات مستقلقة، فإنها نظرا لذلك يمكن أن تستغني عن الرئيس. فالقرارات المشتركة تتخذ في مجلس لممثلي هذه المجموعات. وهو مجلس لا يجتمع إلا عندما تفرض الظروف ذلك. وهؤلاء الممثلون هم إما النواب عن جماعات الشيوخ، بل ربما هم جميع أعضاء هذه الجماعات في الحالات الخطيرة، أو هم عُمْدات القرى. ويشير كوريبوس Corippus في القرن السادس

للميلاد إلى شيوخ (أو آباء) Patres إحدى القبائل الذين قرروا استسلامها لأحد الجنرالات البيزنطيين. وكذلك في نقش لاتاني يرجع لنفس العهد تقريبا، نجد الشيوخ (أو الكبار) Seniores يكوّنون حسبما يبدو مجلسا لقبيلة أخرى.

ولا يكون الرئيس ضروريا إلا عندما يتعلق الأمر بخوض الحرب. والمجلس الفيدرالي هو الذي ينتخب إذن أحد الأشخاص ويعطيه القيادة لمدة الحرب أو لسنة. هكذا كانت الأمور تجري في بلاد القبائل Kabylie.

غير أن هذا الرئيس يمكن أن يستغل السلطة المؤقتة التي أعطيت له والنفوذ الذي ناله، والاعتراف بالجميل الذي حصل عليه بالخدمات التي أداها، فيرفض التنازل حين يحل السلام. ويمكن أن يكوّن من رفقائه في الحرب جيشا من الانصار الأوفياء، ومن الأتباع يساعدونه على البقاء في المنصب. وبهذا يصبح في الحقيقة أميرا، وليس طاغية دائما، إذ من الحصافة أنه يحترم من جانبه استقلال المجموعات المكونة للقبيلة. وقد يحدث أن يجمع ممثلي هذه المجموعات وأن يستشيرهم عند اتخاذ مقررات مهمة. وبعد ما يحوّل هذه السلطة لفائدته طول حياته، فإنه يجتهد ليجعلها وراثية في عائلته. وإذا كان انتقال السلطة يوجب عملية انتخابية أخرى - وهو ما ليس لدينا عليه برهان - فالأمر لا يكون سوى عملية شكلية.

فيما يجاور مصر نلاحظ أن قبائل اللّبو Lebou أو الرّبّو Rebou كانت عند نهاية الألف الثاني قبل الميلاد يرأسها أمراء وراثيون[71]. وفي القرن الخامس قبل الميلاد أيضا نجد هيرودُت يذكر «الملوك» لبعض القبائل الليبية. وفيما بعد ذلك فإن نصوصا إغريقية ولاتانية تذكر

للأهالي في بلاد البربر الأمراء Princes والملوك الصغار Roitelets وما يقابل هذا في الإغريقية مثل الدونسْتاي δυνάςται، وباسِلْييس Βασιλεις، والأرخنْتس αρχοντες وفي اللاتانية بْرِنْكيبس Princepes، وريكولي Reg-uli، وريكسْ Reges كما أن اللفظ البربري كَلّيد Guellid أو أكَلّيد Aguellid قد عرف منذ عهود التاريخ القديم. ومن جهة أخرى نجد الإشارة للنبلاء والكبراء مثل بْروتْوي πρωτοι، وأويكنيس ευγενις، ونوبليس Nobilles، وايلسْتريورس Illustriores وبْروكْريس Proceres، وبْريموريس Primores. فهؤلاء هم الذين كانت بيدهم القيادات، ومن حاربوا جنبا لجنب مع الملوك، ومن عملوا حراسا لهم. ويسوغ الاعتقاد بأن هذا النوع من النبل كانت تكونه العائلات التي بيدها السلطة في القبائل. ولم يكن الملوك النوميديون والموريون خصوما لهؤلاء النبلاء، وكذلك روما فيما بعد. فلاشك أنهم رأوا مصلحتهم في الحفاظ على النبالة، بل وعلى نشرها بشرط أن يكون زمامها بأيديهم. إذ الحكومة المركزية كانت تبتغي وجود رؤساء حقيقيين، يتقبلون أوامرها بسهولة، ويكونون مسؤولين أمامها، ويطيعون ويطاعون. والحكومة لم تكن تستطيع الانغماس في غمار الأعيان.

هذه الإمارات كانت أصولها وطبيعتها حربية. ويفسر هذا أن القبيلة هي كما سبق أن قلنا رابطة تكونت للدفاع والهجوم. فهي بحاجة لمن يحكم أمرها، وعلى الأقل في الأوقات العصيبة. هل يسوغ لنا أن نفترض أن البعض من هؤلاء الرؤساء كانوا ذوي صفة دينية ؟ في هذا الصدد لا نستطيع أن نذكر سوى حالة يِرْنا Ierna الأمير على قبيلة اللكْوانْطيين Laguantan في القرن السادس للميلاد. ويعرّفنا كوريبوس أن هذا الأمير كان في نفس الحين كاهنا لإله يسمى كُرزيل Gurzil.

ولكن هذا كان عملا استثنائيا، لان غيره من الرؤساء الأهالي الذين أطال كوربوس في الحديث عنهم، لا يبدو أنهم كانوا متقلدين لوظائف كهنوتية. وعلاوة على هذا، فيستحيل أن نثبت أن أداء عبادة مشتركة يكون قد خلق أي علاقة بين أفراد قبيلة ما.

7

إن القبائل أجهزة للمقاومة والصراع، وهي كثيرا ما تتصادم. وإذا كانت بلاد البربر مقسمة من حيث الطبيعة إلى عدة أقسام، فلايجب مع ذلك المبالغة في عوائق المواصلات بين هذه النواحي، لأنها عوائق أقل شدة من ضرورات الانتجاع والظعن ومن حب المغامرات والنهب. والأفارقة مشهورون بأنهم خصمون ويحبون التغيير حبا كبيرا. وفي عصور التاريخ القديم، لم تتدخل أية سلطة دينية لاتقاء الخلافات أو للتخفيف منها.

فالقبائل المغلوبة تضمحل، فيُقتل أعضاؤها، ويستعبدون ويشتتون. وأراضيها يستولي عليها الغالبون. وقبائل أخرى تتقهقر إلى الجبال حيث الدفاع أسهل من المطاردة والمهاجمة. وبهذا فإن بعض السلسلات الجبلية في بلاد البربر - ومنها جبال بلاد القبائل بصفة أخص - كانت ملجأ متسعا تكاثر به السكان رغما عن فقر التربة. على أن من المغلوبين من يمكثون فوق أراضيهم، ولكنهم يصبحون أتباعا. فالفلاحون مثلا يؤدون ضريبة عيْنية من الحبوب، ويدفعونها للرحّل سادتهم الذين يبقون عليهم، بل ويحمونهم لصالحهم.

وأخيرا ففي جهات أخرى، يقع العمل بعقود يتراضى عليها الطرفان. فالقبائل المستقرة ليست حتما تحت رحمة الرحّل : إذ يسهل

سد طريق مرورهم بأحد الجبال، وتسميم الآبار التي يعتمدون عليها في هجرتهم. والصمود في القرى الحصينة التي صينت بها الغلال في حرز أمين. وإذا لم يستطيعوا الاستيلاء بالقهر على الحبوب التي يحتاجونها - لأنهم في معاشهم لا يكتفون بمنتجات الماشية والصيد - فإنهم يرضخون لبذل الصوف والجلود مقابل هذه الحبوب. وهكذا يكون قدومهم نافعاً، بل مرجواً. وقد يساعدون مساعدة ثمينة في تنحية مجموعة أخرى من الرحل. وكذلك في تسوية بعض الخلافات مع الجيران. إذن فالعقود تبرم وتنتقل من جيل إلى جيل. وتتوثق عراها بالزواج. كما أن إحدى قبائل الرحل قد تحصل عند المستقرين على حقوق المرور والانتفاع إما مجاناً أو مقابل ضريبة عينية تؤديها لهم. ولا تربط هذه الاتفاقيات بين الرعاة وبين المزارعين فحسب. بل إن قبيلتين مثلا من قبائل الرعاة تسكن إحداهما بالسهل والأخرى بالجبل. أو إحداهما بالتل والأخرى بالسهب يكون من صالحهما معا الاستغلال المشترك لأراضيهما سواء في الشتاء أو في الصيف. وكذلك فإن قبائل ضعيفة من قبائل السهوب يمكن أن تحرز على الانتفاع أثناء الصيف بأرض تملكها قبائل تسكن التل تنتقل للانتجاع في أمكنة أفضل.

هكذا يحدث نوع من التوازن، وإن كان مزعزعا والحق يقال. فالقبائل التابعة تطمح طبعا لاستعادة استقلالها. والقبائل التي دفعت إلى الجبال وتشقى في حياتها بها تنتظر الوقت المناسب لتنزل منها. وكذلك فإن قبائل السهوب - في علاقاتها مع سكان التل - قد ترغب في السيطرة فتفضلها على الاتفاقات الودية.

إن الجبال والسهوب - ثم الصحراء من وراء السهوب حين أصبحت الصحراء منطقة بربرية - هي نقط انطلاق الفتوح في تاريخ

شمال إفريقيا. وأهل هذه الأوطان الفقيرة الذين صلب عودهم بقسوة الحياة التي يحيونها لهم مزايا حربية غالبا ما تعوز أهل السهول الخصبة والمحظوظين الذين يوهنهم خفض العيش. وتكاثُر السكان يفضي إلى الهجرات الجزئية أو الكلية، وهذه تحدث النزاعات، وفي سنوات الجفاف فإن ضرورات الرعي تحطم الحدود. والذين يتخلون للأقوياء يصبحون بدورهم مهاجمين عندما يقدرون على ذلك، من أجل أن يجدوا في مكان آخر تعويضا عن خسائرهم.

فالعديد إذن من الأسباب الخارجية يحدث تغيرات في أحوال القبائل. وهذه الاتحادات المتكونة من مجموعات مستقلة يعوزها التماسك في تكوينها الداخلي. وغالبا ما تزيد الخلافات في إضعاف هذه الوحدة الواهنة. ولكي تفرض المجموعات مصالحها آياً ما كانت هذه المصالح - فإنها تنضم إلى كتلة، أي إلى «صوف» çof يعارضه صوف آخر. وتتسع الكتلتان إلى حد اقتسام القبيلة كلها. بل إن الكتلتين قد تتجاوزان القبيلة إلى غيرها. وعن هذا الاحتياج العام للخصام تتولد أحلاف (رابطات Ligues) لا هدف لها سوى العون المتبادل ضد خصوم الحال أو المستقبل، وبدون اعتبار لأسباب الخلافات. وفوق ذلك يمكن مغادرة هذه الأحلاف دون خجل والانضمام إلى الحلف الخصم إذا كان أجدى وأنفع. على أن هذه الأحلاف (الصفوف çofs) ليست سيئة تماما، لأنها تحدث علاقات وروابط بين مختلف القبائل. وعندما تتعادل هذه الأحلاف فإن كلا منها يحدّ من غلواء الآخر إلى حد ما. ولكنها في داخلية القبائل نفسها تكون من أسباب تصدع هذه القبائل[72].

وكثير من القبائل، وهي مهددة من الداخل ومن الخارج، تعجز عن المقاومة. فبعضها يتحطم وبعضها يتصدع ويتشتت. وأخرى تضيق

لفقدها قسما من أرضها وأهلها. وعلى التراب الفرنسي، نعثر حتى اليوم على الأراضي التي كانت تكوّن مناطق القبائل الغالية. وفي إفريقيا يعثر اليوم على أسماء سلالية مشابهة، وكذلك كان يعثر عليها عند بداية العهد المسيحي في النواحي البعيدة جدا، فهي شاهدة على حدوث التصدع. إن توزيع القبائل كما أن قائمة أسمائها تتغير تغيرا عميقا على بعد بضعة قرون، ومع ذلك فهناك ظروف جغرافية غالبا ما تفرض إطارا ثابتا مع أنها مختلفة التحقق.

8

وبعض القبائل المتجاورة، التي لها نفس الأعداء، يمكن أن تتحد لمحاربة هؤلاء الأعداء. ذلك هو ما فعله الأهالي الذين كانوا يعيشون بغرب مصر، منذ الألف الثانية قبل الميلاد[73]. ولربما قبل ذلك، في عهود بعيدة حاولوا فيها اقتحام وادي النيل. وكانت هذه الأحلاف تعقد لمدة الحرب. فإذا انتهت فإن كل واحد من المتحالفين يعود لحريته الكاملة في التصرف، ولا يتردد في الإيقاع بحلفائه السابقين. وتحتفظ الوحدات الحليفة بتميز بعضها عن بعض. ولكن القيادة العليا يمكن أن يعهد بها إلى قائد مؤقت منتخب[74]. وتتخذ المقررات العامة بمجلس يكونه ممثلون عن مختلف القبائل.

على أن بعض الاتحادات الأخرى تكون حياتها أطول، فتظهر وكأنها عشيرة واحدة Peuplade، والقبائل الساكنة بناحية تشملها وحدة جغرافية عريضة كسلسلة جبلية كبرى مثلا أو عدة من السهول المتوالية. فهذا النطاق الجغرافي وتشابه ظروف العيش، وأحيانا حتى استعمال لهجة واحدة، كل ذلك يحدث نوعا من التضامن الذي لا يتأكد إلا في

الحروب ضد الأجانب. ولكنه يعتبر حقيقة ثابتة، ويتحدث باسم مشترك. ومع ذلك فالعلاقات واهية جدا، إلا إذا استطاع رئيس إحدى هذه القبائل أن يمد سيطرته على القبائل الأخرى. وبهذا يؤسس دولة صغيرة يجتهد في توريثها لذويه. وتهدف فيها السلطة الشخصية إلى أن تسيطر على المجلس الاتحادي أو على محوه من الوجود.

ولقد عرفت بلاد البربر منذ عهود التاريخ القديم تجمعات واسعة جدا، تأسست بقوة السلاح لاشك، مثل تلك التي تكونت في العصور الوسطى. ويستحيل علينا أن نصعد إلى أبعد من القرون المتقدمة مباشرة على عهد الميلاد. ولا يستطاع القول أن دولا حقيقية قد وجدت في عهد باكر في هذه المنطقة، وضمت عددا كبيرا من القبائل في محاولة لتجعل منها أمة. إن تماثل الحضارات في عهود ما قبل التاريخ لا يحتم نظرية الفتوح العنيفة الواسعة. إذن فكيف انتشرت اللغة الليبية ؟ يمكن التساؤل: ألم يفرضها غزاة قد يكونون هاجموا الشمال الافريقي، وأسسوا به دولة ؟ وإن هذه الدولة قد تكسرت، وإن اللغة المشتركة قد انقسمت إلى عدة لهجات ؟ لكن هناك افتراض آخر سائغ. وهو أن انتشار هذه اللغة قد كان بطيئا جدا، أي بسلسلة من الهجرات، والفتوحات الجزئية التي امتدت على قرون طويلة، وإن تكون اللهجات قد كان مصاحبا، لا تاليا لحركة الانتشار.

لقد درسنا رواية سالُسْت Salluste التي استقاها من الكتب البونيقية Libri punici التي كانت في حوزة الملك هِمْبسال. ففيها أن الفُرس نزلوا على الساحل المحيطي للمغرب، واختلطوا به مع الجيتوليين Les Gétules، وعاشوا معهم عيشة الرحَل. ثم إن تكاثر السكان قد حتم الهجرة وفتح الأرض المجاورة للبحر الأبيض المتوسط

التي كان يسكنها الليبيون من قبل، والتي أصبحت تسمى نوميديا Numidie. يجب طرح هذه الخرافة كلية. وعلى أكثر تقدير يمكن أن نعثر فيها على وقائع أحدث عهدا. ولكنها أرجعت إلى ماض بعيد غامض. كفتوحات حققتْها قبائل من الرحل القادمين من أقصى الغرب، الذين قد يكونون نشروا سيطرتهم على الجزائر وعلى قسم من الأراضي التونسية، مثلما حصل في القرن الحادي عشر للميلاد بخروج المرابطين من الصحراء الغربية حيث انقضوا على بلاد البربر. وسنرى أن أقوى الممالك الثلاث التي كانت موجودة في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، أي مملكة الماسيسيليين Masaesyles قد أسستها على ما يبدو قبيلة من أصل مغربي[75].

لقد أراد البعض أن يوجدوا علاقة بين رواية هِمْبسال وبين سلسلات الأنساب التي كانت متداولة في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد[76]. فقد كانت تقسم البربر إلى فرعين اثنين، هما البرانس والبتْر نسبة إلى جدّين وهميين هما برنس ومدْغيس الابتر. فهل نجد في هذا التقسيم تقسيما قديما جدا يتطابق مع التقسيم إلى ليبيين وجيتوليين، أي أولئك السكان البدائيين للشمال الافريقي حسب قول همْبسال ؟ والخلاف بين هذين الشعبين، هل سيطر منذ اقدم العهود على تاريخ البلاد، مفسرا للحروب والفتوح وتكوين الدولة وسقوطها ؟ إن اعتقاد ذلك يكون مجازفة كبيرة. وعلماء الأنساب في العصور الوسطى لابد أنهم أقاموا جداولهم - التي تختلف جزئياتها من كاتب لآخر - اعتمادا على التحالفات، وعلى التجمعات المعاصرة، أو على المكانة الممتازة التي يودونها لقبيلتهم الأم، أو على المطامح السياسية لأمرائهم. وبما أنهم يعتمدون حتى على التشابه في الأخلاق، أو في العادات وفي اللهجات

مما قد يبدو برهانا على وجود القرابة، ثم إن التوزيع الجغرافي للبُتْر والبَرانس لا ينطبق البتة مع التوزيع الذي يجعل الليبيين يسكنون التل والجيتوليين يسكنون السهوب Steppes.

ليس لدينا إذن أي وسيلة لاستعادة تاريخ الحركات الكبرى التي هزت بلاد البربر لغاية العهد الذي نلاحظ فيه وجود ثلاث دول مهمة قائمة بين المحيط والمنطقة القرطاجية. ويمكن مع ذلك الافتراض بأن الحديد والفَرس قد ضمنا توفقا كبيرا للذين كانوا يملكون هاتين الوسيلتين القويتين من وسائل الحرب واللتين أدخلتا إلى شمال إفريقيا على ما يحتمل حول نهاية الألف الثانية أو في بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وبصفة عامة يحتمل أن هذا التاريخ البعيد، قد تشابه كثيرا مع تاريخ بلاد البربر في العصور الوسطى.

فمن أرض فقيرة : من جبل أو سهب أو صحراء تنطلق إحدى القبائل وتتجه نحو الجهات الغنية. وفي إفريقيا المسلمة قد يضاف لهذا أحيانا الحماس الشديد لدين يريد أن ينتشر ويفرض نفسه. والهجوم يسيره رجل يضمن له نفوذا كبيرا ما له من ذكاء وحزم ومن نفوذ ديني، فيكون القائد حقا الذي يهيج الحماس ويثير الإخلاص المتفاني. ويمكن أن يكون التقدم سريعا جدا، وذلك في حالة ما إذا كانت القبائل التي تصيبها الموجة قد أخذت على غرة، وإذا لم تعرف أن تتحد، أو إذا انضم بعض منها إلى المهاجمين. فتتأسس دولة. والقبيلة التي نالت الهيمنة هي التي تساند الدولة وتستغلها.

لكن الدولة على العموم تكون قصيرة العمر، لأن هذه القبيلة تستنزفها الحروب أو الملذات. والرجل الذي قادها ونصبته ملكا يغيب،

وغالبا ما تكون ذريته عاجزة. ولكي تستمر الدولة التي أنشئت على هذا الغرار لابد من أن تنظم نفسها، ولابد من تثبيت ولاية العهد بصفة تجنب المنافسات العنيفة. لابد للسلطة المركزية أن تعتمد على أطر إدارية وعلى قوات عسكرية تخلف القبيلة الواهنة. ولابد من شرطة سريعة وناجعة تحمي وتضمن إخلاص السكان المستقرين الذين لابد للدولة أن تعتمد منهم بالخصوص على مواردها المالية. وبغير هذا فهناك الفوضى والحروب الأهلية التي تكاد لا تنقطع. وهناك عدم القدرة على مقاومة اندفاع جديد لاحدى القبائل التي تخرج من جبل أو سهب مطالبة بدورها في الهيمنة.

وعلاوة على هذا، فإن أسبابا جغرافية تعارض إقامة وحدة دائمة، إذا لم تفرضها عزيمة شديدة وبنية قوية. فالاراضي المعزولة أو التي يصعب الوصول إليها مثل الاوراس، وبلاد القبائل الكبرى والريف... إلخ. تدافع عن استقلالها أو تستعيده. ثم إن بلاد البربر هي في آن واحد جد مستطيلة وأضيق من أن تستطيع سلطة واحدة البقاء بها من المحيط إلى السدرتين. والشريط الأرضي يقسم إلى عدة أقسام. والطبيعة تفرض تجزئات تحددت مواقعها بالحرب بين الناس أو بتراضيهم. ففي العصور الحديثة نجد تونس والجزائر والمغرب. وفي العصور الوسطى نجد مملكة الحفصيين في تونس وشرق الجزائر، ومملكة بني زيان في موسطة الجزائر وغربها، ومملكة بني مرين في المغرب. وفي الأعصر القديمة، وقبل الفتح الروماني، وخارج منطقة التراب البونيقي، نجد ممالك المسيليين، والماسيسيليين والمور. وكلها دول تنفر من قبول الحدود المصطنعة القائمة بينها كحدود نهائية، والتوازن دائما غير مضمون.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الثاني

قبائل وأمم وشعوب

1

في بعض الكتابات الاغريقية نعثر على أسماء بعض القبائل أو الاقوام الذين كانوا يسكنون الشمال الإفريقي قبل الفتح الروماني. وندعوها "قبائل أو أقواما" لأن من المحتمل أن هذه الأسماء لا تدل على قبائل، بل على مجموعة قبائل تجمعها روابط متينة إلى حد ما.

فهيرودت يذكر حول أواسط القرن الخامس عددا منها على طول البحر الأبيض المتوسط[77]. وهو قد عرفها إما بروايات شفوية تلقاها من مصدر إغريقي وإما بواسطة كتّاب أقدم منه، وعلى الخصوص منهم هيكاتي المليتي Hécatée de Milet، الذي كتب مؤلفه الجغرافي في نهاية القرن السادس أو بداية الخامس.

ففي سَدْرة الكبرى كان يعيش عيشة الرحّل النَّصَمونيون Nasamons وهم شعب كبير العدد[78]. فقد كانوا في أول الأمر يقيمون

بالساحل الشرقي لهذا الخليج، ولكنهم بعد ذلك انتشروا على ساحله الجنوبي في محل البسيليين Psylles الذين اختفوا من الوجود. وكانوا عدا هذا يذهبون كل سنة إلى واحة أوجيلا Augila لقطف التمر : فيجوز الاعتقاد بأنهم أخضعوا فلاحي هذه الواحة فجعلوهم أتباعا.

والماصيون Maces يقيمون على الساحل الغربي لسدرة الكبرى، وخلف ذلك في الناحية التي يجري فيها نهر الكينبْس Cinyps، فإن هذا النهر يصب في البحر على بعد قليل شرقي لبْدة Lebda التي كانت في العصور القديمة تُدعى باسم لِبْتيس الكبرى Leptis Magna.

وبعيدا إلى الغرب هناك أرض الجنْدانيين Gindanes. وأمام هذا الشعب، فإن اللوتوفاجيين Lotophages يقيمون «على الساحل بالقسم الذي يبرز، أي على ما يحتمل بالأرض الممتدة بين ناحية نهر الكينبْس وسدْرة الصغرى. واسم اللوتوفاجيين قد ذكر من قبل في الأوديسة[79]. ولكننا لا ندري أين كان الشاعر يجعل موطن هذه العشائر. ونجده أيضا في القرن الرابع مذكورا في رحلة سيلكْس المشبوه Pseudo-scylax، ومستعملا في الدلالة على أولئك الذين سماهم هيرودت بنفس الاسم. وبعد ذلك فإن هؤلاء الذين سماهم هومروس Homère باسم اللوتوفاجيين قد وقع البحث عنهم في جهات أخرى. ولا محل للافتراض بأن الاسم الإغريقي هو ترجمة لاسم ذي أصل أهلي، ولربما أن هؤلاء اللوتوفاجيين لم يكونوا يشكلون قبيلة خاصة، ومن المحتمل أن الإغريق قد أطلقوا هذا الاسم على الجنْدانيين الذين كانوا يعيشون على ضفاف الساحل والذين رأوهم يقتاتون بثمار اللوتُس (الزفزوف Jujubier).

وحول بحيرة تريتونيس الكبيرة Lac Tritonis كان المَخْلوسيون Machlyes والأوصيون Auses، الذين يفصل بينهم نهر تريتون Triton

الذي ينصب في البحيرة. وإذا كان يستحيل التعرف على النهر، فالذي لا شك فيه هو أن البحيرة هي قعر سدرة الصغرى.

كل هذه العشائر كانت من الرحل. وخلف الأوصيين (بغرب نهر تريتون)[80]. فإن هيرودت يعرف ليبيين آخرين غير هؤلاء يتعاطون للزراعة ويسكنون المنازل. ويحسن البحث عنهم في تونس، على طول الساحل الشرقي، الذي أخطأ فيه كاتبنا هيرودت وأعطاه سمتا عاما متجها من الشرق إلى الغرب. ويوجد في جهتهم، كما يقول هيرودت، جزيرة كورونيس Cyraunis، التي هي اليوم جزيرة قرقنة. هناك أولا المكسو Maxyes، ثم الزويك Zauèces وآخيرا الكوزنطيون Gyzantes. وفي أرض هؤلاء الكوزنطيين توجد جبال يمكن أن تكون هي سلسلة جبال زوجيطان Zeugitane، الواقعة فوق سهل أنفيدة Enfida. وبهذا نصل حتى الجهات التي كانت ضمن المنطقة الترابية لقرطاجة، وكانت من بعد قسما من الولاية الرومانية المنشأة سنة 146 ق.م.

إن أكثرية القبائل التي أوردها هيرودت لم تعد للظهور بعد في الأعصر المتأخرة. ويستثنى من ذلك النصمونيون Nasamons والماصيون Maces. فالأولون وهم النصمونيون استمروا يسكنون بالسواحل الشرقية والجنوبية بسدرة الكبرى، على الأقل إلى نهاية القرن الميلادي الأول، كما نجد الماصيين حيث ذكرهم هيرودت. وتعرفنا إحدى رحلات أواسط القرن الرابع ق.م[81]، بأن أرضهم كانت تمتد في أن واحد على الساحل وعلى الأرض الجبلية الواقعة إلى الخلف.

وهناك أسماء لبعض القبائل نعرفها من بعض الكتابات المتأخرة عن عهد هيرودت : فالأربيديون Erebides والميماكيون Mimaces ذكروا في فقرات مأخوذة من فيلستوس السرقوسي Philistos le syracusin

الذي كان يكتب في النصف الأول من القرن الرابع، كما أن المِنْدونيين Myndônes ذكروا في فقرة من التاريخ الذي كتبه إيفور Ephore حول موسطة نفس القرن. فالأربيديون - الذين كانوا قسما من اللوتوفاجيين حسب قول فيلِسْتوس – لابد من البحث عنهم بين خليجي سَدْرة. وقد ذكرهم كذلك بَطليموس في العهد الإمبراطوري الروماني كما ذكر الميماكيين الذين مدح إيفور فطنتهم ورفاهيتهم.

إن الرواية التي خلفها لنا ديودور الصقلي عن حملة آكاطُكْليس (في نهاية القرن الرابع) تقدم لنا اسمين، هما : اسم الزوفونيين Zuphônes واسم الاسْفوديلوديين Asphodélodes[82]، الذين كانوا يشبهون الاثيوبيين في لون بشرتهم. ولربما أن الأولين كانوا يسكنون موسطة القطر، أي في بلاد خُمير. وعلى غرار الاوتوفاج فإن أسفوديلود تسمية إغريقية (ربما هي مترجمة عن البونيقية) وربما أن أصلها هو عادة هؤلاء الأهالي الذين كانوا يعملون أكواخهم من نبات البروق Asphodèle.

هناك نص إغريقي نقله پوليب Polybe[83]، وهو يتعلق بكتابة كان حنيبعل قد نقشها بلغتين في إيطاليا وذكر فيها الشعوب الإفريقية التي حشد منها الفرسان سنة 219-218 ق.م وهم اللرجيتيون Lergètes[84] كما ذكر فيها من بين النوميديين كلاً من المسيليين Massyles والماسيسيليين Massassyles والمكويين Maccoiens والموروسيين Maurusiens وهؤلاء المسيليون والماسيسيليون وكذلك الموروسيون سنجدهم من بعد رعايا لثلاث ممالك. ونجهل أين كان يعيش اللرجيتيون والمكويون Maccoiens.

وإبان حرب المرتزقة والحرب البونيقية الثانية ذُكر اسم الميكتانيين Micatanes وهم نوميديون ثاروا على قرطاجة. ونجهل موقع هذه القـ

وكذلك الشأن بالنسبة لنوميديين آخرين يدعون باسم الأرْياكيديين Aréacides وهم الذين كان زعيمهم قد جعل نفسه رهن إشارة حنيبعل حين كان هذا الأخير بهَدْروميت (سوسة) سنة 203-202.

وقد ورد اسم الصوفكْسيين Sophaces في إحدى الفقرات من آسكندر بلِهِسْتور Alexandre Polihistor، وهو من كتاب القرن الاخير قبل الميلاد وكان ينقل عن كْليوديم Cléodème أحد مؤرخي اليهود. ويقال إن اسمهم من صوفون Sophon الذي هو من ذرية إبراهيم وهركول. ولا ندري أين كانت تقع هذه القبيلة التي كانت سببا في هذه الترهات.

وأخيرا فإن نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas المعاصر لأغسطس قد تحدث نقلا عن مصادر قديمة جدا وذكر بعض العشائر الإفريقية. ففي الفقرات التي وصلت إلينا من هذا الكاتب تبدو بعض الأسماء محرفة، وليس من المؤكد أن جميع الذين يسميهم نيقولا هم ليبيون حقيقة. فهناك مثلا Basoulieis أي Masoulieis وهم المسيليون Massyles رعايا إحدى الممالك. وهناك Ialchleuies الذين لاشك أنهم المخْلوس Machlues عند هيرودْت، وهناك Büaoi وكذلك Datholibues وPanébo وAlitemnioi وكلها قبائل تبقى مجهولة.

إنها لحصيلة هزيلة وعديمة القيمة[185] وعلى العموم فإننا لانكاد نعرف شيا عن انتشار القبائل وتوزيعها قبل العهد الروماني.

2

في القرن الثالث قبل الميلاد نجد الأهالي الذين يعيشون بين المنطقة البونيقية والمحيط يشكلون ثلاث أمم على رأس كل منها ملك.

إحدى هذه الممالك كانت تمتد على الشمال الغربي، وهي مملكة المُور الذين كان الإغريق يدعونهم باسم Mauroùsioi (موروسيوي) وهو لفظ نجده عند پوليب[86]، وعدة كتّاب أحدث منه عهدا[87]. وقد كان اللفظ مستعملا قبل پوليب، إذ نجده في النص الإغريقي الذي نقشه حنيبعل بلغتين. وكذلك فإن ديودور الصقلي Diodore de Sicile قد استعمله في الكلام على أحداث جرت في نهاية القرن الخامس ق.م. ولعله استعاره من تيمي Timée (نهاية القرن الثالث). ثم إن الرومانيين الذين كانوا يستخدمون المراجع الإغريقية قد كتبوه أحيانا بصيغة موروسيي Maurusii. وكذلك نعثر على الصفة موروسيوس Maurusius عند بعض الشعراء[88]، وحتى في بعض النقوش الإفريقية. ولكن، وكما نبه على ذلك سترابون، فإن الاسم اللاتاني هو موري Mauri، ولنا من ذلك عدة أمثلة ابتداء من مؤلف حرب إفريقيا Bellum Africum وسالُسْت. ومن قبيل التقليد للرومانيين فإن بعض الاغريق في العهد الامبراطوري كانوا يكتبون موروي Maûroi عوضا عن موروسيوي Maurusioi. أما الإسم المستعمل عند الأهالي فكان حسب سترابون، هو نفسه عند الرومانيين. فلابد أن يكون إذن أكثر شبها بموري Mauri منه بموروسيوي Maurusioi. ولا نعرف أي مثال للصيغة التي كانت مستعملة بالبونيقية.

لقد اقترحت في العهود القديمة وفي أيامنا كذلك أصول مختلفة لهذا الاسم[89]، وبالطبع، لابد من تنحية الاشتقاق المذكور في الكتب البونيقية للملك هيمبسال والتي أوردها سالُسْت، وتقول إن موري Mauri قد حرفها الأهالي عن اسم ميدي Médi، أي الميديين رفقاء هركول مع الفُرْس والارمينيين. ويجب كذلك تنحية الاشتقاق المأخوذ من اللفظ الإغريقي موروس Maûros (وهي أموروس Amaûros) بمعنى مظلم، والذي حاولوا تفسيره باللون الغامق للأهالي[90]. ولنلاحظ - من غير داع

لبراهين أخرى – إن الإغريق كانوا يقولون Mauroùsioi ولم يستعملوا Maûroi إلا بصفة استثنائية، وتبعا للاستعمال اللاتاني. وعدا هذا فيحتمل أن وجود لفظ موروس Maûros في لغتهم وسمرة لون الموريين قد ساعدا على ذلك. ولكنه يكون مجرد تلاعب بالألفاظ.

وقد تقدم بوشار Bochart العالم الشهير بالعبرانيات باشتقاق من الفينيقية اعتبره الكثير رأيا جذابا[91]. وهو لفظ يعني (الغربيين Occidentaux) أي أن القرطاجيين يكونون قد أطلقوا اسم موحاريم[92] Maouaharim على سكان الشمال الغربي لإفريقيا، مثلا سمى العرب هذه المنطقة باسم (المغرب). وتكون هذه التسمية الجغرافية ذات الأصل الأجنبي لم تصبح اسما سلاليا إلا في وقت متأخر. ومع ذلك فليس هناك سبب وجيه لرفض قول سترابون الذي يجعل الاسم موري Mauri أصلا أهليا. وكون القرطاجيين عندما استعملوه قد حرفوه ليجعلوا له معنى في لغتهم. فذلك أمر ليس مستحيلا، ولكن ما دمنا لم نعثر على نص يعطينا الإسم البونيقي، فيحسن الامتناع عن الافتراضات التي لا طائل تحتها.

هناك فقرة من بلين الشيخ[93] تسوغ الافتراض بأن الاسم الليبي كان في الأصل يدل على إحدى القبائل. يقول : «من بين قبائل الولاية (الرومانية) (بموريطانية) الطنجية. أهمها كانت فيما مضى قبيلة الموري Mauri وهي التي أعطتها اسمها ودعاها الكثير باسم موروسي Maurusii. وقد أحالتها الحروب إلى بضع أسر». فعلى غرار كتامة ومصمودة وغيرهما في العصور الوسطى تكون هذه القبيلة قد أسست دولة، ثم أنهكها العمل المضني الذي تفرضه صيانة سيادتها. ومع ذلك فالدولة تكون قد استمرت في الوجود بالاعتماد على تأييدات أخرى.

والمنطقة التي امتدت عليها (الدولة) كان يسميها الإغريق موروسيا Maurousia، ودعاها الرومانيون موريطانيا Mauritania مقتفين فيها على ما يبدو الصيغ التي اتخذوها في أسماء بعض المناطق الأسبانية مثل تُرْديطانيا Turdetania وكَرْبِطانيا Carpetania.

ومملكة الموريين Maures كانت موجودة منذ أواسط القرن الرابع ق.م[94]، ولربما حتى قبل ذلك[95]. والقرطاجيون الذين كانت لهم مستوطنات على الساحل المغربي، كانت لهم مع ملوك هذه الدولة علاقات يحافظون عليها. وفي نهاية القرن الثالث ذكر اسم أحد ملوك الموريين، وهو باكا Baga الذي كان ملكا قويا[96]. وبعد ذلك بقرن من الزمن فإن بوكوس Bocchus صهر يوغرْطة قد كان حسب قول سالُسْت ملكا على جميع الموريين.

هذه المملكة كانت تضم عدة قبائل شملها اسم الموريين. وكانت شمالا تقابل أسبانيا ويحدها المحيط غربا. ولا يبدو أنها تقدمت بعيدا نحو الجنوب، فمن هذه الجهة كانت تحدها عشائر مستقلة في أول الأمر على الأقل، وهي المعروفة باسم الجيتوليين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد.

ومن ناحية الشرق فإن نهر مُلوشا Mulucha كان في مجراه الأسفل يكوّن الحد بين مملكة موريطانيا ومملكة نوميديا، وذلك أثناء النصف الثاني من القرن الثاني، أي في عهد مِكِبْسا Micipsa ويوغرْطة وهو ما يصرح به سالُسْت. أما سترابون[97] الذي ربما يعتمد هنا على أرْتِميدور (حوالي سنة 100 ق.م) أو ربما اعتمد على بوزدونْيوس (بعد الأول بقليل) فيذكر مُلوشا (ملوخاث Molochath) على أنها الحد بين الموريين والماسيسيليين[98]. وقد سقطت مملكة سيفَكْس في يد مسنيسّا ملك المسيليين ويد أعقابه مِكِبْسا ويوغرطة. وقد سبق أن رأينا أن مُلوشا

كانت الحد الغربي لمملكتهم التي اتسعت رقعتها هكذا. وفي أواسط القرن الأول ق.م صارت مَلْوية باسْمَين هما مُلوشا Mulucha ومَلْوا Malva. حداً بين مملكتين للموريين[99]. وكذلك الشأن في سنة 42 للميلاد. كما كانت طوال قرون حدا بين الولايتين الرومانيتين. أي موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية[100].

حقيقة إن أحد الكتاب قد نقل عنه بمْبونْيوس ميلا P.Méla وبلين الشيخ Pline l'Ancien، وأنه أورد نهرا باسم ملوشا Mulucha. وحسب ما أورده هذا الكاتب يكون هذا النهر ليس هو ملْوية. بل هو مجرى مائي آخر بعيد إلى الشرق. وكذلك حتى إلى شرق سيكا Sigga. فيكون هو نهر لمقْطع La Macta أو نهر الشليف Chélif. لكن ميلا وبلين يضيفان أن هذا النهر كان يشكل «الحد بين المملكتين. مملكة بوكوس ومملكة يوغرطة» كما يقول ميلا. والحد بين «بوكوس والماسيسيليين» كما يقول بلين[101]. ولكن حيث إننا نعلم أن هذا الحد كان واقعا غربي سيكا وبمصب نهر ملْوية. فلابد من القول بأن الكاتب الذي نقل عنه كل من ميلا وبلين قد ارتكب خطأ. ولماذا وقع في الخطأ؟ الجواب هو أنه ربما يكون نهر المقطع أو نهر شليف قد حمل على غرار نهر ملوية اسم مُلوشا[102]. وربما أن أحد النهرين قد استخدم حدا في عهد بوكوس بعدما أذنت له روما بضم قسم من مملكة يوغرطة إلى مملكته هو. إن أحد الافتراضين أو هما معا قد يفسران لنا الاضطراب الحاصل. ولكن المتأكد هو أن نهر ملْوية كان يشكل حدا لممنكة الموريين. وأنه بعد ذلك أصبح نهر حدود. وحتى في أيامنا كثيرا ما قيل أنه يجب أن يكون الحدود المشتركة بين المغرب والجزائر. على أن الأسباب الجغرافية ليس فيها مدعاة للتبرير. لأن المجرى الأسفل لملْوية لا يفصل بين مناطق

مختلفة. والفواصل الطبيعية بين المنطقتين تجدها بعيدا إلى الشرق أو بعيدا إلى الغرب. ومنذ العهود العتيقة، قلما توقف سادة المغرب أو سادة غرب الجزائر عند ملوية هذه. فقد كان هذا النهر في الماضي مجرد حدود اتفاقية لا غير.

في أواخر القرن الثاني وفي أواسط الأول ق.م تقدمت حدود المملكة الموريطانية نحو الشرق في المنطقة التي كانت تسمى باسم نوميديا، ووصلت عند البحر الأبيض المتوسط إلى مصب نهر أمباسكا Ampsage (الوادي الكبير) بالشمال الغربي لقسنطينة. وهناك الحد الشرقي لموريطانيا القيصرية إحدى الولايتين الرومانيتين اللتين كونتهما روما بعد استيلائها على المملكة. وصار اسم موري Mauri تابعا لهذا التقدم، بل إنه امتد إلى أبعد مما امتد إليه اسم موريطانيا الذي بقي محصورا في حدود الولاية الرومانية التي أطلق عليها. وصار يدعى باسم موري Mauri جميع الأهالي ببلاد البربر، حتى الذين كانوا يعيشون بالولايات الإفريقية الأخرى.

وقد سبق لكاتب قصة حملات يوليوس قيصر أن أطلق صفة موري على الفرسان النوميديين، كما أطلق هوراس صفة مورا Maura على مياه سدْرة. وفي القرن الثاني للميلاد نجد مؤرخا - أو على الأصح أحد علماء البيان Rhèteur -- وهو فلوروس Florus يسمي النوميديين باسم موري، وربما كان ذلك عن خطأ. وانطلاقا من القرن الثالث، وعلى الخصوص في عهد الامبراطورية السفلى وعهد الونْداليين وعهد البيزنطيين، فإن تعميم إطلاق لفظ موري -- وبالإغريقية موروسيوي Mauroùsioi – قد أصبح شائعا جدا. بحيث إن جميع الأهالي من المحيط الأطلسي إلى سرنيكا (برقة) قد أصبحوا موريين Maures.

وليس لدينا من سبب للاعتقاد بأنهم أنفسهم، قد تقبلوا هذا المدلول البالغ السعة الذي اتخذه اسم ربما كان من قبل محدودا في إحدى قبائل المغرب. وعلى كل فإن هذا الاسم لم تحتفظ به اللهجات البربرية ولا اللغة العربية. والأوربيون هم الذين أطلقوه من جديد على بعض سكان إفريقيا: من أهل المدن الذين ينحدر الكثير منهم من المور Mores المطرودين من أسبانيا، والرحّل بالصحراء الغربية.

بين مملكة الموريين ومنطقة التراب القرطاجي، كانت ـــ ـــ في القرن الثالث ق.م مملكتان أخريان. هما مملكة الماسيسيليين Masaesyles ومملكة الماسيليين Massyles. ولاشك أن هذين الاسمين اسمان أهليان، ولابد أن الصيغ الليبية للمفرد تكون مسيْسول Masausoul أو مسيّْسيل Masaïsil، وكذلك مسول Masoul أو مسيل Masil. والأجانب كتبوها وصرفوها على عدة صيغ. فبالنسبة للماسيسيليين فإن الأكثر تداولا في الإغريقية هي مسيسوليوي Masaïsulioi أو مسيسولوي Masaisouloi ولربما يتكرر حرف السين بعد الميم، وفي اللاتانية نجد مسيسيلي Masaesylii ومسيسيلي Masaesyli. وبالنسبة للمسيليين Massyles في الإغريقية نجد مسوليوي Masylioi ومسوليوي Massylioi ومسولوي Massuloi ومسوليس Masuleis وفي اللاتانية مسوليي Massylii ومسولي Massuli. والماسيسيليون كانوا قبيلة قبل أن يعطوا اسمهم للدولة. ويقول بلين الشيخ إن هذه القبيلة فيما مضى كانت في المنطقة التي أصبحت هي ولاية موريطانيا الطنجية. وقد اندثرت بسبب الحروب مثل جارتها قبيلة الموريين وأن أرضها قد استولى عليها الجيتوليون. فإذا صح هذا. فلابد أن نستنتج منه أن الماسيسيليين - أو على الأقل عددا كبيرا منهم - قد خرجوا من داخل المغرب وذهبوا للاستيلاء على أكبر قسم من الجزائر. ويذكر كل من بلين وبطليموس قبيلة أو قبيلتين من الماسيسيليين في موريطانيا القيصرية.

فيمكن لمن شاء أن يعتقد أنهما قسمان من القبيلة الغازية سكنتا بالأرض المفتوحة، على أن هناك افتراضات أخرى ممكنة.

أما المسيليون Massyles فلاشك أنهم أيضا كانوا قبيلة. ونجهل أين كانت تقع أرضهم. ويذكر إيزيدور الإشبيلي Isidore de Séville وهو كاتب متأخر العهد جدا أن غير بعيد من الأطلس، أي في المغرب توجد مدينة اسمها مسيليا Massylia، ومنها أخذ المسيليون اسمهم. ويشير بلين من جانبه إلى وجود قبيلة المسيلي Massyli بولاية إفريقيا (بين نهر أمْبساكا Ampsaga وسرِنيكا Cyrénaïque أي برقة).

ومن ناحية أخرى فبالشمال الغربي للأوراس، بالقرب من بركة مائية سماها القدماء البركة الملكية Lacus Regius، يوجد حتى اليوم ضريح ضخم اسمه المدْغاسن Médracen، ولاشك أنه مقبرة لملك عظيم. ويمكن التأريخ له بالقرن الثالث ق.م. فلماذا وقع الاختيار على هذا الموقع؟ إنه لا توجد بالجوار أي مدينة يمكن أنها كانت عاصمة لدولة كبيرة. أفلا يكون هذا الملك قد أقام ضريحه في الموطن الصغير لأسرته؟ فوق تراب القبيلة التي قادها هو أو أحد أجداده ونجحت في تأسيس دولة جديدة؟ ولربما أن الأوراس كان مهدا لأسرة قد تكون ذهبت للملك بسيرتا Cirta أو بمكان غيرها. فهذه السلسلة الجبلية كانت في عهود مختلفة بعد ذلك قد لعبت دورا تاريخيا مهما[103]. ولكن مع ذلك، ورغما عن اسم «ضريح سيفكْس» أو «ضريح مسنيسا» الذي أطلقه بعض الأثريين الهواة على المدْغاسن، فليس لدينا أي سبب جدي لنعزو هذا الأثر لملك ماسيسيلي أو ملك مسيلي.

وقد ورد ذكر الماسيسيليين منذ 220، قبل الحرب البونيقية الثانية وأثناءها. وكان ملكهم آنذاك هو سيفكْس Syphax. ولا نستطيع أن نقول متى تأسست المملكة التي سميت باسمهم.

أما المَسيليون فهناك نص غير وثيق جدا يذكرهم من عهد باكر ويذكر ملكهم في عهود الحرب البونيقية الأولى[104]. فملكهم گايا Gaïa أثناء الحرب البونيقية الثانية، كان من أسرة تداولت السلطة الملكية منذ عدة أجيال. ونَرَفاسْ Naravas الذي كان إبان حرب المرتزقة قد أدى خدمات جليلة لعَملْكار برْكا. وكان هذا الأخير قد واعده بتزويجه من ابنته. إن نرَفاسْ هذا كان قائدا للنوميديين. وكان قد خلف آباه. فهل كان ينتسب لهذه الأسرة (الموسوليين) ؟ ذلك ما نجهله وكذلك لا نعلم أين كانت تقع أراضي أيلوماس Ailymas، هذا «الذي كان ملكاً على الليبيين» والذي كان في نهاية القرن الرابع حليفا ثم عدوا لاكاطُكْليس.

وماهي المساحة التي كانت لكل من مملكة الماسيسيليين ومملكة المَسيليين ؟ حسب سترابون (نقلا عن أرْتميدور أو عن بوزيدونْيوس) فإن أرض الماسيسيليين كانت تقع بين ملُوشا (ملْوية) ورأس تْريتون Cap Trèton، المعروف اليوم باسم رأس بوقرْعون Cap bougaroun شمالي قسنطينة. وعند رأس بوقرعون هذا تبدأ أرض المسيليين. ولربما أن الحدود الدقيقة كانت تقع بمصب نهر أمْبساكا بالجنوب الغربي لهذا الرأس. وعلى غرار ملُوشا كان نهر أمْبساكا في العهود القديمة حداً تقليديا بين أراضي يوبا الثاني وولاية إفريقيا، ثم بين الولايتين الرومانيتين وكان هذا الحد مجرد حد سياسي، لأن هذا النهر، كما هو الشأن بالنسبة لملُوشا لم يكن يفصل مناطق جغرافية متميزة.

وهناك نصوص أخرى تتفق مع المعلومات التي أفادنا بها سترابون، عن نهاية القرن الثالث، في العهد الذي كانت فيه مملكة الماسيسيليين في قبضة سيفكْس. وبما أن هذه المملكة قد انهارت، وبعد انهيارها استمرت المنطقة الموجودة بين ملْوية ورأس بوقرْعون

تعرف باسم أرض الماسيسيليين - مع أنها أصبحت ملكا للملوك المَسيليين - فيعتقد أن الحدود هنا هي حدود قديمة يقرها الاستعمال. في داخل الأرض كان سيفَكْس يملك في سنوات 206 - 203 ق.م مدينة سِرْتا Cirta (قسنطينة). وحسب تيت ليف Tite-Live فإن هذه المدينة كانت قسما من أراضيه القديمة. وليس مما أخذه حديثا من أيدي المسيليين. فإذا صح هذا فإن مملكة المسيليين قد كانت أقل سعة من مملكة الماسيسيليين. بحيث لم تكن تشمل سوى القسم الشرقي من ولاية قسنطينة شرقي سِرْتا. إذ حدود الولاية البونيقية المتاخمة للمملكة في النصف الثاني من القرن الثالث لابد أنها - على وجه التقريب - هي الحدود الفاصلة بين الجزائر والقطر التونسي. وحقيقة إن الحدود كانت فيما قبل أكثر قربا من قرطاجة. وأن القرطاجيين قد توسعوا على حساب المملكة المسيلية على ما يحتمل. وعلاوة على ذلك، يبدو أن الخصومات والحروب والتغييرات في الحدود كثيرا ما تحدث بين الدول المتجاورة. والمصادر تذكر لنا ذلك فيما يخص عهد سيفَكْس وكايا[105]. والممالك الثلاث كانت عبارة عن خليط من القبائل التي كان من بينها من قد تجد فائدة في تغيير الملك. ويحتمل أن بعضا آخر منها كان بمستطاعه أن يحفظ أو أن يستعيد استقلاله حتى داخل هذه الممالك.

ومن ناحية الجنوب فإن مملكة الماسيسيليين ومملكة المسيليين قد كانتا - على غرار موريطانيا - تحدهما قبائل جيتولية، بعضها حر تماما، وبعضها خاضع خصوصا إلى حد يجعلها تابعة أكثر من كونها رعية.

أما سيفَكْس فإنه بعدما ضم لمملكته ولبضعة شهور مملكة المسيليين قد انهار في سنة 203. ولا ندري هل هناك ما يحتفظ به من المرويات التي تجعل من ابنه وِرْمينا Vermina خلفا له على قسم من

الماسيسيليين، والتي تُظهر لنا حفيذه أركوبارْزان Arcobarzane قبيل الحرب البونيقية الثالثة قادرا على حشد جيش قوي[196]. والشيء الأكيد هو أن مسينيسا، عند وفاته سنة 148، قد كان سيدا على جميع المنطقة الممتدة من موريطانيا حتى الولاية البونيقية (التي أصبحت رومانية قبل ذلك بسنتين). أي كانت تمتد من نهر ملْوشا حتى نهر تُسْكا Tusca قرب طبَرْقة. وكما فعل هو فإن ابنه مسيبسا Micipsa وحفيده يوغرْطة Jugurtha قد جمعا في قبضتهما مملكة المسيليين التي هي ميراث آبائهما، وجمعا أيضا في قبضتهما مملكة الماسيسيليين التي وقع عليها الاستيلاء واعترفت روما به. ومن الناحية الرسمية، فقد استمروا يدعون بالملوك المسيليين حتى في المناطق التي كانت من قبل ملكا للملوك الماسيسيليين.

وكذلك فإن أسماء ماسيسيلْيا Masaesylie ومسيلْيا Massylie وأرض الماسيسيليين والمسيليين، كلها أسماء وقع الاحتفاظ بها زمنا على أنها أسماء لها دلالات جغرافية[197]. ولربما كانت تقع على تقسيمات إدارية بالمملكة النوميدية في عهد مسينيسا ومن خلفه على الملك من ذريته، بينما لم يحتفظ بهذه الأسماء في العهد الروماني مثلما احتفظ بموري Mauri وجيتولي Gaetuli ونوميداي Numidae. وقد رأينا من قبل أن بعضا من قبائل الماسيسيليين والمسيل - وكانت غير ذات أهمية قد استمرت في الوجود بولاية موريطانيا القيصرية وبولاية إفريقيا كذلك. فبعض الأهالي كانوا لا يزالون يحملون من الأسماء الشخصية اسمي القبيلتين الشهيرتين اللتين كان ينتمي إليهما كل من سيفكْس ومسينيسا. وختاما، فإن بعض الشعراء اللاتانيين قد استخدموا لفظ مسيلوس Massylus، اسما أو صفة (وأحيانا استخدموا مسيلْيوس Massylius) للدلالة بصفة مبهمة على أشخاص وعلى أشياء من إفريقيا.

3

إن لفظ ليبوس Libyes قد كان مستعملا عند الإغريق للدلالة إما على مجموع سكان شمال إفريقيا، أو على قسم منهم.

وأصل اللفظ إفريقي، فبعض الوثائق المصرية الراجعة لما قبل الألف الأول قبل الميلاد، تذكر الربو Rebou أو اللبو Lebou على أنهم عشيرة Peuplade كانت تسكن بين وادي النيل وخليجي سدرة[108]. وقد عرف الإغريق هؤلاء اللبو، إما عن طريق غير مباشرة أي بواسطة المصريين، أو عرفوهم مباشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد أسموهم باسم ليبوس Libyes وسموا أرضهم ليبوي، وهو الاسم الذي نجده في الأوديسة.

ومنذ القرن السادس، فإن اسم ليبوي Libye هذا قد وقع إطلاقه من لدن بعض الجغرافيين الأيونيين Ioniens على جميع القارة الإفريقية[109]. واحتفظ منذ ذلك العهد بهذه الدلالة، ولم يحدث خلاف سوى بشأن الحدود التي يحسن أن تكون لليبيا من الجهة الشرقية. فبعضهم كان يرى أنها هي نهر النيل، بينما كان البعض الآخر يرى أنها هي خليج السويس والبحر الأحمر، وأخيرا كان الغير يرى أنها الحدود الغربية لمصر.

على أن لفظ ليبوس Libyes لم يكن له نفس الانتشار الواسع، إذ يقول هيردوت[110]: «...إن ليبيا يعمرها ...شعبان أهليان... الليبيون Libyes (Libyens) والأثيوبيون. ويسكن الأولون في الشمال والآخرون بجنوب ليبيا Libye».

وعند بعض الكتاب الأحدث عهدا، نجد لفظ ليبوس Libyes وقد أطلق على جميع سكان إفريقيا الشمالية من مصر إلى المحيط، ومن

البحر الأبيض المتوسط إلى الأراضي التي يعيش بها الأثيوبيون، بحيث إن النوميديين والموريين مثلا هم ليبيون. بل وفي بعض الأحيان فإن لفظ ليبوي Libye، لا يدل على القارة كلها، وإنما يدل على شمالها فحسب.

وارتبطت باللفظ ليبوس Libyes أيضا دلالة أضيق وذلك كما يتضح من عدة فقرات من ديودور الصقلي (الذي يكون ربما قد نقل عن تيمي Timée أو عن دوريس Douris)، ومن بوليب Polybe ومن أپيان Appien فقد سمى الإغريق بهذا الاسم اولئك الذين سماهم الرومانيون باسم أفري Afri، وهم أهالي المنطقة الخاضعة للسيطرة القرطاجية الرسمية، نقيضا لنوماديس Nomades الذين كانوا يعيشون خارجها. وهذه المنطقة - أو على الأصح ما بقي منها بعد الاغتصابات التي اغتصبها منها مسنيسا - استولى عليها الرومانيون في أواسط القرن الثاني. وأصبحت هي الولاية الجديدة، أي ولاية إفريقيا Africa عند الرومانيين تسمى عند الإغريق باسم ليبوي Libye. وذلك أمر طبيعي نظرا لأنها كانت آهلة بالليبوس Libyes.

ومن المحتمل أن القرطاجيين استعملوا هم أيضا هذا اللفظ في تسمية الأهالي. فبعض نقوش قرطاجة البونيقية تذكر أشخاصا يسمون LBY وLBT و LOUBI و LOUBAT أي حسب ما يبدو (الليبي والليبية). وبعد ذلك في أوائل العهد المسيحي، نرى أحد النقوش النيوبونيقية Néopunique يطلق صفة (قائد الجيش ببلاد اللوبيم) LWBYM Loubim على بروقنصل ولاية إفريقيا، أي ولاية ليبوي Libye بأقلام الإغريق. فهل وقع اقتباس في هذا من الاغريق ؟ أو هل إن الفينيقيين منذ عهد بعيد يكونون قد استخدموا هذا الاسم الذي ربما استعاروه من المصريين ؟ وعلى غرار الإغريق يكونون قد أطلقوه أولا على الأهالي الذين يعيشون

في غرب مصر ثم على الذين يعيشون أبعد منهم إلى الغرب ؟. ويمكن الافتراض بأن العبرانيين عرفوه عن طريقهم، لأنه موجود بصيغة لِهابِيمْ Lehabim في فقرة قديمة جدا من سفر التكوين، كما يوجد بصيغة لوبيم Loubim في نصوص أحدث عهدا بالتوراة.

وبعض النقود المؤرخة بالنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد تحمل الكتابة الإغريقية ليبوون Libyon، وعلى أكثريتها يظهر الحرف البونيقي[111]. فهي إذن نقود ضربت في إقليم إفريقي متفتح في نفس الحين للتأثيرات الهيلينية وللتأثيرات القرطاجية، أي في منطقة السِـ...ـنّين. وهي تبرهن على أن الأهالي يستخدمون اللغة الإغريقية، وكانوا يقبلون التسمية التي يطلقها الإغريق عليهم. ولكن ليس لدينا برهان على أن التسمية كانت مستعملة عند الذين كانوا يستعملون لغتهم وحدها. حقيقة إننا نجد الليبوس Libyes مذكورين مع الجيتوليين بأنهم أقدم السكان بشمال إفريقيا. نجد ذلك في الرواية التي ساقها سالُسْت نقلا عن الكتب البونيقة للملك النوميدي هيمْبسال Hiempsal، وأكد أنها رواية مطابقة لآراء أهل البلد. ولكنها حسب ما يلوح رواية مستعارة إما عن بعض القرطاجيين أو عن بعض الإغريق.

ويقسم هيرودوت الليبيين إلى رعاة Nomades وإلى فلاحين arotères. وبالنسبة له فإن لفظ Nomades هو وصف من اللغة الإغريقية يدل على نمط العيش، وكذلك فقد استعمله كل من هيكاتي Hécatée وهلّنيكوس Hellanicos وبنّدار Pindar بمناسبة الحديث عن بعض الأهالي الأفارقة[112].

ولكن لفظ نوماديس Nomades أصبح اسما عَلَماً يطلق على أحد الشعوب أو على مجموعة منها. فنجده بهذه الدلالة في تاريخ الحروب

البونيقية التي رواها بوليب[113]. وبدون شك فلابد من الذهاب إلى أبعد من هذا التاريخ، بحيث إن ديودور الصقلي – في نقله عن أحد كتّاب أوائل القرن الثالث وهو تيمي Timée أوْ دوريس Douris – قد ذكر وجود النوماديس في الحروب التي جرت في نهاية القرن الخامس والرابع[114]. كما يبدو أن إراتُسْتين Eratosthène عند نهاية القرن الثالث، عرف هو أيضا النوماديس بإفريقيا. أما اللاتانيون فيستعملون صيغة نوميداي Numidae التي نجدها عند سالُسْت في كتابه عن يوغرطة، ونجدها عند تيتْ ليڤ في روايته عن الحرب البونيقية الثانية، وكما نجدها في جُسْتان Justin الذي اختصر طْروكْ بومْبي Trogue-Pompee بمناسبة ذكره لأحداث وقعت في القرن الخامس وغير ذلك[115]. وفي نهاية القرن الثاني، فإن انتصارات ميتِلوس Métellus على يوغرطة قد أضفت على ميتِلوس لقب نوميديكوس Numidicus. ويحتمل أن لفظ نوميداي قد استعمله الرومانيون منذ القرن الثالث أي من العهد الذي جعلتهم حروبُهم ضد قرطاجة يتصلون بأهالي بلاد البربر.

فهل اسم نوماديس Nomàdes هو من أصل إغريقي صرف، بتحويل نوماديس إلى اسم علم (الرعاة) ؟ ولفظ نوميداي Numidae، هل له (أي لنوماديس) صيغة لاتانية مع اعترافنا أنها صيغة غير مألوفة؟ لقد جرى البعض على اعتقاد ذلك، وليس لنا من سبب حاسم لإنكاره.

ومع ذلك فإن افتراضا آخر يمكن تقديمه : ألا يمكن أن يكون الإغريق واللاتانيون قد وجدوا ببلاد البربر اسماً سُلاليا ينطق به بما يقارب Nomàdes وNumidae ؟ فيكون الأولون (الإغريق) قد غيروه إلى نوماديس Nomàdes باستعمالهم لتورية سهلت الأمر نظرا لأن أكثرية هؤلاء الأفارقة كانوا من الرعاة، كما يكون الرومانيون قد اعتمدوه

فحسب مع إخضاعه للحالة الأولى من قواعد الإعراب في لغتهم. ولربما أن هذا اللفظ الأهلي قد وقع إطلاقه في أول الأمر على قبيلة مهمة كانت أقسام منها لا تزال موجودة بجهات مختلفة في عهد الإمبراطورية الرومانية[116]. ولربما أن إطلاقه امتد إلى مجموعة من السكان إما على يد الأهالي أنفسهم، وذلك أمر لا حجة عليه، وإما على يد الإغريق، أو على يد القرطاجيين قبل الإغريق.

هذه كلها افتراضات واهية. ولكن المؤكد هو أن اسم نوماديس نوميداي Numidae قد أطلقه كتاب متعددون على جميع الأهالي بشمال إفريقيا باستثناء سكان المنطقة البونيقية، ثم سكان الولاية الرومانية الذين كان اسمهم ليبوس Libyes وأفْري Afri. فديودور الصقلي[117] (نقلا عن تيمي ؟) يقول إن النوماديس كانوا في نهاية القرن الرابع يشغلون قسما كبيرا جدا من ليبيا حتى الصحراء. وسالُسْت أطلق اسم نوميداي على أهل كَبْسا Capsa (قفْصة) بجنوب القطر التونسي. وكذلك الأهالي الذين كانوا يعيشون في لبْتيس الكبرى Leptis Magna بين السدْرتيْن. وكذلك فإن حنّيبعْل في أحد النقوش باللغة الإغريقية، وكذلك غيره قد وصفوا الموريين بكونهم نوميديين.

على أن هذا الاسم قد أخذ مدلولا أضيق. وذلك أن الجيتوليين الذين كانوا يسكنون بداخل الأراضي، والموريين الذين كانوا يسكنون بشمال المغرب، قد وقع التمييز بينهم وبين النوميديين حقيقة الساكنين بالمنطقة المجاورة للساحل، والتي كانت واقعة بين مملكة الموريين والولاية القرطاجية. وقد كانوا في القرن الثالث رعايا للملوك الماسيسيليّين والمَسيليّين. وقد وصف هؤلاء وأولئك بأنهم ملوك النوميديين، وبهذه الصفة وصفوا على الأقل في بعض النصوص

الإغريقية واللاتانية، إذ لا يوجد برهان على أنهم لقبوا أنفسهم بهذا اللقب. وبانعدام المملكة الماسيسيلية من الوجود، فإن الملوك المسيليين قد نشروا سيطرتهم من نهر مَلْوية حتى طَبَرْقة، وكان هذا هو القطر الذي صار يسمى باسم نوميديا Numidia. وقد ذكرنا من قبل أنها صارت بعد ذلك تابعة جزئيا لمملكة الموريين، التي جعل منها الرومانيون في 42 للميلاد ولايتين بموريطانيا. وأصبحت حدود نوميديا من جهة الغرب هي نهر أمْبساگا Ampsaga. إذ تراجع إلى هنا اسم نوميداي Numidae أمام اسم موري Mauri الذي امتد إلى بعيد جدا نحو الشرق. ولو أنه مع ذلك لم يمْحُ اسم نوميداي في المنطقة التي احتفظ لها الرومانيون باسم نوميديا الرسمي.

وكما نرى، فإن هذين الاسمين : نوماديس ونوميداي يمكن أن يكونا من أصل أهلي - وذلك ما لا أستطيع تأكيده - ولكنهما حسب ما يبدو مدينان للإغريق وللرومانيين بالانتشار المتغير حسب حدود الدولة والولايات.

ولفظ كيتولوي - Gaetoúloi كيتولي Gaetuli نلاقيه من نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. وهو يدل على الأهالي الذين يبدو أنهم في أول الأمر قد وقع خلطهم بدون تمييز في مجموعة الشعوب المسماة نوميدية. ونستطيع الافتراض - دون تأكيد - أن الاسم كما في «ماسيسيليين»، و«مسيليين»، و«موريين»، وربما النوميديين قد كان في أول الأمر إما لقبيلة، وأنه امتد إطلاقه بعد ذلك على كثير غيرها.

ولكن الجيتوليين Gétules لم يؤسسوا دولة أبدا. فهم سكان منطقة شاسعة تمتد من جنوب المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط التي كان يعيش بها الموريون والماسيسيليون والمسيليون ورعايا قرطاجة

وروما إلى شمال الحاشية الصحراوية التي كان يسكنها الأثيوبيون هنا وهناك. فكلمة گيتوليا Gaetulia كانت إذن تعبيرا جغرافيا يطلق على سلسلة من السهول الجافة والعارية عموما، وكذلك على سلسلات الجبال التي تحدها من جهة الصحراء. وكانت الحدود الجنوبية لهذه المنطقة تفصل أراضي البيض عن أراضي السود. ولكن ليس لنا أي برهان على أن جيتوليا Gétulie قد كان لها في الشمال حدود بالمعنى السلالي (أناسية Anthrogiques). وحيث إن المناخ وبنية التربة لم يفرضا كذلك حدودا مدققة، فيجوز الاعتقاد بأن اسم الجيتوليين قد أطلق على العشائر التي كانت عند تأسيس ممالك الموريين والماسيسيليين والمسيليين، قد بقيت خارج هذه الدول.

في المغرب كانت قبائل جيتولية بين وادي أبي رقراق، وساحل المحيط والأطلس نفسه[118]. وأهمها هي قبيلة الأطلوليين Autololes التي كانت لها منطقة ترابية واسعة جدا، تمتد مما يجاور الرباط إلى ما بعد الصويرة. وكانوا مع جيتوليين آخرين هم البنْيور Banures قد استولوا في وقت لا ندريه على أراضي قبيلتين منهارتين، سبق أن لعبتا دورا تاريخيا عظيما وهما قبيلة الموريين وقبيلة الماسيسيليين. وقد كان لهؤلاء الأطلوليين شهرة كبيرة في العالم الروماني. فكان من الشعراء لوكانْيوس Lucainius وسيلْيوس إيطاليكوس Silius Italicus وكلوديان Claudien وسِدْوان أبولينير Sidoine Apollinaire قد أدخلوهم في عروض Développements وإن كانت لا تتطلع إلى التدقيق الجغرافي.

أما في شرق الجزائر، فلابد أن الحدود الشمالية لأرض الجيتوليين كانت تمر على مسافة قليلة جنوبي قسنطينة، وكانت قريبة جدا من مداورش Madaure (بين سوق أهْراس وتبسّة) وفي الجنوب كان نهر

نِگْريس Nigris يفصل بين جيتوليا وآثيوبيا، ويحتمل جدا أنه هو نهر جِدي Djedi الذي يمتد من أحواز الأغْواط Laghouat حتى الجنوب الشرقي لبِسْكرة. أما بجنوب ولاية إفريقيا Africa، فإن الجيتوليين كانوا يصلون لساحل سَدْرة. وكذلك فإن الجيتوليين قد ذكر لهم وجود بمقاطعة طرابلس، بل وحتى في مقاطعة سرنيكا Cyrénaïque (برقة).

جميع هؤلاء الأهالي كانوا تقريبا من الرحل، خصوصا وأن قسما كبيرا من أراضيهم لم يكن يتناسب مع نمط آخر للحياة. إن ضروريات حياتهم الرعوية، بل أكثر من ذلك، حبهم للنهب، كل ذلك كان يجعلهم على اتصال بجيرانهم في الشمال. مما جعل الملوك النوميديين والموريين ملزمين بنشر سيطرتهم على الجيتوليين. وهي سيطرة يبدو أنها لم تكن مكينة أبدا. ويعتقد أن الجيتوليين كانت لهم أيضا علاقات مع الاثيوبيين.

4

نجد عند المؤرخين والجغرافيين العرب اسما يطلق على جميع السكان الأصليين بشمال إفريقيا، وهو البربر - البرابرة (مفرده بربري). وقد استعمله الاوربيون. فالفرنسيون استعملوه بصيغة Berbères. ولابد من القول بأنه في لغة التخاطب قليل الاستعمال عند القبائل العربية أو المستعربة وأن القبائل التي تتكلم باللهجات المسماة بربرية لا تستخدم هذا اللفظ في الدلالة على نفسها.

والاصول التي يذكرها لهذه الكلمة كتّاب العرب في العصور الوسطى تعتمد على مقاربات لفظية ليس لها أي قيمة. كما أن بعض العلماء المحدثين أكدوا أنه اسم سلالي سابق في الزمن على الفتح الروماني[119]. فهو حسب البعض قد كان منذ عهد بعيد جدا الإسم الذي

يكون شعب كبير قد اتخذه لنفسه واستمر الإسم موجودا هنا وهناك أثناء العصور التاريخية القديمة، ثم عاد له مدلوله العام الذي كان له من قبل. وحسب الآخرين يكون الإسم قد دل على قبيلة هامة أو على عدة قبائل مهمة، ويكون العرب عمموا إطلاقه.

لقد سبق أن أوضحنا[120] أن تدعيم الافتراض الأول لا معنى فيه للبحث عن براهين من خارج بلاد البربر، أي في إفريقيا الشرقية وربما حتى في خارجها. ولا داعي لأن نقبل القول القائل بأن المنطقة التي كانت في عهد الإمبراطورية الرومانية تسمى برباريا Barbaria (وهي أرض الصوماليين)، ولا بأن البْرابْرا Brabra بوادي النيل بجنوب مصر، كلها براهين على وجود رابطة مما قبل التاريخ، رابطة في الدم والإسم مع بربرنا اليوم[121].

أما البراهين المقدمة لتدعيم الافتراض الثاني فليست أحسن من الأولى. ومن الغفلة أن ينخدع المرء للمشابهات اللفظية فيتذكر السُبُرْبور Suburbures القبيلة النوميدية الكبيرة التي كانت في القرن الميلادي الاول. ومن المحتمل أن الباربار barbares الذين ذكرهم أحد كتاب العهد الأدنى، كانوا في الحقيقة هم البوار Bavares، القبيلة الأخرى التي كانت أقسام منها منبثة في جهات مختلفة. وما معنى كلمة بارباري Barbari الواردة في تسمية Promonturium Barbari أي الرأس، بمعنى «المرتفع البارباري»، الذي أورده الكشاف الروماني للطرق المعروفة بمسالك أنْطونان Itinéraire D'Antonin وذكر وجوده بساحل الريف ؟ إننا لاندري ذلك، ولربما أن اللفظ فيه تحريف، وعلى كل فلا شيء يبرهن على أنه يتعلق باسم إحدى القبائل. إن اسم بني برْبَر Beni Barbar الذي أطلق على سكان جبل شيشار J. Chechar بشرق الأوراس، وقبلوه، وكذلك

اسم البرابر Brâber الذي أطلق على أهل الأطلسيْن المتوسط والأعلى الشرقي بالمغرب، والذي لا يستعمله هؤلاء الجبليون، هما اسمان لا يرجعان حسب رأينا لعهد بعيد، وهما لاشك عبارة عن استعمالات جهوية للفظ اللاتاني بارباري Barbari واللفظ العربي برابر Brâber، وهذا اللفظ الأخير مشتق بالتأكيد من Barbari. هذا رأي جملة من العلماء، ويبدو لنا رأيا صحيحا.

وكلمة بَرْبروس Barbarus لفظ استعاره اللاتانيون من الإغريق Bäebaeos الذي هو من أصل هندي أوربي. وهو يعني الذين يتكلمون بلغات غير الإغريقية وغير اللاتانية. وبمعنى أعم، يعني الذين هم أجانب عن الحضارة الإغريقية الرومانية. وهم، نتيجة لذلك قد مكثوا في حالة من الاتضاع. وهناك مجموعة للنصوص من سالُسْت ومؤلف حرب إفريقيا Bellum Africum إلى كوريبوس Corippus كلها تشهد بأن الرومانيين كانوا يطلقون إسم بارباري Barbari على الأفارقة الذين لم تكن لهم لا لغة الآخرين ولا أخلاقهم. فكان اللفظ تحقيرا، ولابد أن الأهالي لم يكونوا يرضون به. وتحسن ملاحظة شيء هو أن كراسة صغيرة في النحو، يمكن تاريخها بالقرن الثالث وهي عبارة عن قائمة بالتعابير المستهجنة، تذم استعمال باربار Barbar في محل بربروس Barbarus، لكن من المحتمل جدا أن هذه القائمة قد كتبت في قرطاجة. إذن ففي اللهجة اللاتانية الشعبية بإفريقيا تكون صيغة بربروس قد اتخذت الصيغة التي استعملها العرب.

ولقد وجد الفاتحون المسلمون عند قدومهم طائفتين متميزتين من السكان، إحداهما تتحدث باللاتانية وكانت مسيحية، والثانية حافظت على لغتها وعاداتها كما حافظت في الغالب على آلهتها الوثنية. فالأولون

كانوا هم الروماني Romani والآخرون هم البارباري Barbari. وقد حافظ العرب على الإسمين، بحيث دعوا الأولين باسم الروم Roum ودعوا الآخرين باسم البرابَر Brâber[122]. وهذا الاسم الأخير حوفظ عليه في الكتابات الأدبية، ولم يحتفظ به إلا قليلا في لغة الشارع التي ليس لها اليوم لفظ عام إطلاقه على من يسميهم الفرنسيون بعد الإغريق والرومانيين والعرب باسم البربر Berbères. فهو لم يطلق إلا على مجموعة هامة من الجبليين المغاربة.

فيجب إذن التخلي عن الرأي الذي يقول إن اللفظ اسم سلالي له أصل أهلي ويرجع لتاريخ بعيد.

وعلى العكس من ذلك اسم أمازيغ Amazigh، وتَمَزيغْت في المؤنث وإيمزيغن Imazighen في الجمع. فكثير من البربر يسمون أنفسهم هكذا، كسكان الريف المغربي، وأهل الأطلسين المتوسطي والأعلى (هم الذين يسميهم العرب البربر)، والذين يتكلمون لهجة بربرية في الصنْد Sened بجنوب القطر التونسي، وأهالي جبل نفوسة بمقاطعة طرابلس، وإحدى القبائل بناحية غدامس بالصحراء، وطوارق العَيْر Aïr. وهناك عدة لهجات تسمى تمزيغْت، كلهجات الريف، والبرابر Brâber، والأوراس، وفكيك، وجربة، والصنْد، ومزاب، وغير ذلك. والانتشار الكبير الذي عرفه هذا الاسم تشهد له جداول الانتساب التي تم وضعها في العصور الوسطى، ففيها يذكر بطل أسطوري هو مازيغ Mazigh على أنه جد البَرانس الذين هم إحدى سلالتي البربر، وتذكر تمزيغْت من بين أجداد السلالة الأخرى وهم البُتْر.

ونفس الإسم يظهر أمامنا منذ التاريخ القديم. فقد أطلق على بعض الأفراد، إذ نجده مستعملا هكذا في نقوش ليبية بصيغة م س ك M S K،

وفي نقوش رومانية على صيغ مَزيك Mazic، ومَسيك Masik، ومَزيكْس Mazix، وفي المؤنث مَزيكا Mazica بإعراب لاتاني، ولعل مَساك Masac هو نفس الاسم منطوقا به ببعض التغيير.

ونفس الإسم كان كذلك في القرن الميلادي الأول اسما لعدة قبائل. فبطلمي يذكر المازيكس Mazices في موريطانيا الطنجية، بالأرض التي تُسمّى اليوم باسم الريف[123]. كما ذكرهم بالقيّصرية بناحية ملب... وهؤلاء قد عادوا للظهور في نقش لاتاني اكتشف بمليانة نفسها، وكذ... في الرواية التي خلفها لنا أمْيان مَرْسلان Ammien Marcellin عن ثـ... فِرْموس Firmus عند نهاية القرن الرابع. كما أن نقشا آخر من إفريقيا يرجع لنهاية القرن الثاني أو لبداية القرن الثالث يذكر الـ : Mazices[124] regionis Montensis، الذين حاربتهم الجيوش الرومانية، ونحن نجهل أين كانت تقع أراضيهم، ولربما أنهم التبسوا بإحدى القبيلتين السابقتين. وفي عهد الدولة السفلى فإن المازيكس، وهم قوم من الصحراء، كانوا من جهة أولى يقومون بغارات في الواحات الواقعة غربي مصر، ومن جهة أخرى بغارات في مقاطعة طرابلس. ووجود قبيلة من المازاكس Mazaces في نوميديا في القرن الخامس يؤكده على ما يظهر وجود أسقفيتين مازاكيتين Deux Episcopies Mazacences. وكذلك، فإن المور المعروفين باسم المازازيسس Mauri Mazazeses قد ذُكروا في موريطانيا في وثيقة ترجع لنهاية القرن الثالث.

إن الاسم الذي كتبه الإغريق واللاتانيون بصورة Mazaces لابد - أو ربما - أنه خص بعض القبائل الإفريقية قبل السيطرة الرومانية. ففي خرافة تأسيس قرطاجة على يد ديدون Didon، نجد مَلك الأرض التي أُقيمتْ فيها مستوطنة صُور قد كان رعاياه من المازيكس حسب

قول أُسْتَاث Eustathe، أو كانوا من المَكْسيطاني Maxitani حسب قول جُسْتان. ولربما أنه نفس الإسم الذي نجده بصيغتين بينهما اختلاف قريب، عند هيكاتي Hecatée حوالي سنة 500 ق م وعند هيرودُت حوالي القرن الخامس ق م. فالاول يذكر اسم Mazyes في ليبيا والثاني يذكر مكْسو ويجعلهم بغرب نهر تْريتون Triton أي على الساحل الشرقي للقطر التونسي.

في بعض النصوص اللاتانية التي أكثرها شعري. فإن اسم مازاك Mazaces لايطلق بالضبط على قبيلة أو على العديد من القبائل، وإنما له مدلول عام ومبهم. وقد سبق أن رأينا أن لفظ مسيلي Massyli استعمل بنفس الصفة.

كما أن تاليفا جغرافيا من القرن الرابع للميلاد -- أشرنا له من قبل - ذكر أن في الصحراء، خلف إفريقيا الرومانية يوجد باربار Barbares يدعون باسم Mazices و Aethiopes[125]. ويبدو أن هذين الإسمين Mazices و Aethiopes هنا يدلان حقيقة على مجموعة من القبائل المنتشرة على مسافات شاسعة. وهذا المعنى غير مشكوك فيه. في مؤلف جغرافي آخر يرجع لعهد متأخر جدا، حيث أشير إلى (gentes Mazices Multas)[126] بل يصح الاعتقاد بأن هيكاتي كان يعطي مدلولا واسعا لاسم مازوس Mazyes، إذ ينقل عنه أتْيان البيزنطي قوله «مازوس الرحّل بليبيا». ومن نفس العهد تقريبا أي بداية القرن الخامس ق م، فإن النقش الجنازي لملك الفُرْس داريوس (دارا) يذكر في نهاية قائمة الشعوب التي كانت خاضعة للملك العظيم الماكييا Makiia (او الماسييا Massiia) والكرْكا Karka الذين ربما يحسن البحث عنهم في شمال إفريقيا. فبعض العلماء ومنهم أوبرْت Oppert رأوا في

هذا أهالي هذه المنطقة والقرطاجيين، وقالوا عن صواب أو خطـ بالتقارب بين اسم ماكيبا Makiia وبين Mazyes، وMaxyes وMazices.

واللفظ الذي لايزال موجودا بصيغة آمازيغ، إيمازيغن، يبدو أنه كان منذ عهد بعيد جدا يدل على قسم كبير من سكان إفريقيا الشمالية.

ولربما أنه قبل أن يكون اسما علما على القبائل والأفراد، كان لفظ من ألفاظ اللغة المستعملة، فكان صفة. وفي القرن السادس عشر نجد ليون الإفريقي (محمد الوزان الفاسي) يؤكد أن جميع البربر لهم لغة واحدة، يسمونها جميعا باسم أكل آمزيك aquel amazig ويذكر أن معناه اللغة النبيلة Langue noble. لكن لوحظ عليه أنه أخطأ في المعنى[127]، وأن الأمر يتعلق بالشعب وليس باللغة، لأن كلمة Kel اسم جمعي معناه (أهل كذا...) في بعض اللهجات. فتكون ترجمته هي «الشعب النبيل». ومن جهة أخرى يعتقد بعض العلماء[128]، أن لفظ آمازيغ كان معناه (الحرّ) في أول الأمر. ويمكن تقريب اللفظ الذي ندرسه إما مع لفظ آرياس Aryas[129] ومعناه «النبلاء» أو مع لفظ فرنك Frances (الفرنج) ومعناه الأحرار.

وكيف نفسر انتشار هذا الاسم على عدة مجموعات بربرية؟ هل إن شعبا غازيا[130]، قد سيطر في عهد مجهول على قسم كبير من شمال إفريقيا، ونشر به لغته، وميز نفسه باسمه عن رعاياه والخاضعين لسيادته؟[131] وقد يكون بعد ذلك انقسم وتجزأ فكوّن عدة من القبائل. ولكن يمكن القول بافتراضات أخرى لاداعي لعرضها هنا لعدم وجود أي برهان قوي يدعمها.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الثالث

الملوك ورعاياهم

1

في الدول التي تكونت ببلاد البربر قبل الاستيلاء الروماني كانت الملكية على الخصوص إمرة حربية. وكان من المستحسن أن يقوم بها الرجال. ولا نرى أن النساء قد وقع قبولهن فيها، باستثناء كليوبترا صلِيني Cleopâtre Séléné التي كانت حوالي عهد الميلاد على الأرجح شريكة لزوجها يوبا الثاني، الذي هو الملك قبل الأخير بموريطانيا. ولكنها كانت أجنبية، بنتاً لمصرية وروماني. وإذا كان صحيحا أن المُلك كان مشتركا بينها وبين يوبا، فإن هذا التقسيم (أو الاشتراك) قد أوجبته إرادة الإمبراطور أوغسْطس، بحيث يبدو أن الملكية كانت مخصوصة بالذكور في العهود التي كانت فيها الدول الأهلية متمتعة باستقلالها.

وكانت وراثية، غير أن هذا المبدأ لم يجر تطبيقه بصفة واحدة. إذ نلاحظ كيفيات مختلفة في تنقل السلطة الملكية.

فبالنسبة للمسيليين في القرن الثالث ق.م كانت المَلَكية ملكا لإحدى العائلات، بالمعنى الأوسع لهذا اللفظ، أي كانت ملكا لمجموعة من الأنسباء Agnats الذين يصعدون بانتمائهم عن طريق الذكور إلى جد مشترك. وهو جد حقيقي ومؤسس تاريخي للأسرة المالكة. وبعد ذلك لاشك، فإن حب تمجيد مقام الأسرة المالكة هو الذي أوجد جداول الأنساب الأسطورية التي تجعل للأسرة المالكة أصولا إلهية. وسواء أكانت إلهية أم بشرية فحسب، فإنها كانت تشكل في الأمة مجموعة ذات نفوذ. وكان يجب لأفرادها التشريفات الخصوصية.

كان الرئيس في هذه الأسرة هو الأكبر سنا من بين الذكور الأحياء المولودين من الزيجات الشرعية. وهو الذي ينال الملك وبعد موته يتحول الملك لمن أصبح هو الأكبر سنا من بين مجموعة الذكور الأنسباء. هذه هي القاعدة التي اتبعت بعد موت كايا Gaïa حوالي 207 ق م[132]. ولم يتول الملك بعده ابنه مسنيسا الذي كانت سنه آنذاك نحوا من ثلاثين سنة. بل الذي خلفه على الملك هو أوزلكيس Oezalcés الذي كان آنذاك طاعنا في السن، وهو أخو كايا. ولما مات أوزلكيس بعد ذلك بقليل خلفه ابنه الأكبر كبوسا Capussa ولابد أنه كان أكبر سنا من مسنيسا، إذ لاشيء يدل على أن مسنيسا قد طالب إذ ذاك بحقوقه الشرعية.

هذا الترتيب في تولي الملك، لم يكن خاصا بالمسيليين، بل لقد عملت به شعوب أخرى، بحيث إنه عرف في نفس الزمن بالهضبة الأيبيلاية مثلا كما سنجده بعد ذلك عند الونداليين. وفي القطر التونسي، كان هو المعمول به حديثا عند البايات الذين أخذوه عن الترك. ويمكن الافتراض بأن نفس النظام، الذي هو تطبيق القانون العام لأسر الأنسباء الذكورية familles agnatiques، كان في الأصل معمولا به في الممالك الأهلية الأخرى، عند الماسيسيليين والموريين.

لكن هذا الترتيب لم يحافظ عليه. لأنه - من جهة أخرى - كان يعرض بالدولة لأن تقع في أيدي شيوخ فاقدين لقوى الجسم والفكر الضرورية لتأدية مهامهم، وذلك ما قد يدفع ببعض الأمراء الشباب من ذوي الطموح إلى الاستيلاء على منصب لاحق لهم فيه. ومن جهة أخرى، كان طبيعيا أن الملوك يودون ترك الملك بعدهم إلى أبنائهم هم، أو إلى أخ لهم إذا تعذر الأمر، ولا يتركونها إلى أفراد من قرابتهم الدنيا أو البعيدة. فقبل عهد الملك كايا كانت هناك منافسات في أسرة المسيليين الملكية المنقسمة إلى شعبتين متعاديتين. ولما توفي كبوسا Capussa بعد أن حكم مدة قصيرة، فإن أخاه لكومازيس Lacumazès، وكان لا يزال طفلا، هو الذي نصب ملكا. وكان ذلك بإرادة أمير آخر ينتمي للشعبة المنافسة لكايا. أما مسنيسا الذي كان أكبر سنا من لكومازيس فلابد أنه عمل للفوز بحقوقه بحد السلاح[33].

وقد توفي مسنيسا سنة 148 ق م عن تسعين سنة. ولا يحتمل مطلقا أن يكون قد بقي آنذاك في نوميديا من أفراد عائلته من هو أكبر سنا من أبنائه، فيكون له حسب التنظيم القديم الحق في تولي الملك. وكان أبناؤه الشرعيون: مسيبسا Micipsa وكلوسا Gulussa ومستنبعل Mastanabal هم الذين خلفوه. أما أبناء الجواري فهم مبعدون عن الملك. وهل تمنى مسنيسا أن يؤول ميراثه لابنه الأكبر مسيبسا، أو أن يخص به الأخوة الثلاثة؟ إنه كان قبل موته قد كلف سيبيون الإيميلي Scipion Emilien بتسوية تركته. ونحن نجهل ما إذا كان الروماني قد سواها وفق إرادة الميت، إن صح أنه عرف هذه الإرادة. وعلى كل فإنه قرر أن يكون هناك ثلاثة ملوك، تكون المملكة بينهم مشاعة، ولكنهم يتقاسمون فيما بينهم المهام المليكة التي هي الإدارة والحرب والعدل. ولاداعي للاعتقاد بأن سيبيون قد استرشد في هذا بسباقات يكون قد عثر عليها في تاريخ

المسيليين، بل نرى جيدا – على النقيض من ذلك – أن روما كانت مصلحتها في تجزئة السلطة العليا في الدولة الشاسعة الأطراف التي كونها مسنيسا. وزيادة على هذا فإن مِسِبْسا قد عاش طويلا بعد أخويه، فصار بذلك السيد الوحيد على المملكة.

وقد أوصى مسبْسا بالملك من بعده لابنَيْه أذَرْبَعْل Adherbal وهيْمبسال Hiempsal، وليوغرْطة Jugurtha إبنه بالتبني. ولولا هذا التبني لما كان ليوغرطة أي حق، لأنه إذ كان أبوه هو مسْتنبعل فإن أمه لم تكن زوجة بل كانت حظية. وغير هؤلاء الأمراء الثلاثة، نعرف أعضاء آخرين من الأسرة المالكة، وهم مسيڤا Massiva ابن كُلوسا وكَوْضا Gauda ابن مسْتنبعل الذي لا شك أن مولده لم يكن شرعيا، فلم يكن نتيجة لذلك أهلا لاعتلاء العرش[16]. ولسنا ندري هل كانوا أكبر سنا من أبناء مسبْسا، وهل عند موت هذا الأخير يكون لهم الحق في تولي الملك بعده وفقا للنظام الذي كان معمولا به عند المسيليين في نهاية القرن الثالث. أما كوْضا فقد عينه مسبْسا وليا للعهد من الصف الثاني.

وعلى أية كيفية أراد مسبْسا أن يزاول خلفاؤه الثلاثة السلطة الملكية كما زاولها هو مع أخويه الاثنين بعد موت أبيه؟ ليس لدينا معلومات دقيقة في هذا المجال[17]. لكن أذربعل وهمْبسال ويوغرْطة قرروا التجزئة الترابية التي جعلت في الحقيقة من نوميديا ثلاث ممالك مختلفة. ولو كان التقسيم وفقا لإرادة مسبْسا لكان قد دخل إلى حيز التطبيق من غير لزوم لاتفاق الورثة الثلاث عليه.

بعد اغتيال هيمْبسال والحرب بين يوغرْطة وأذَرْبَعْل، قامت روما بتحديد القسيمة الترابية للاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة، ثم استولى يوغرطة على نوميديا جميعها. ولما أُسِر وقع إعدامه في إيطاليا ونحي

أبناؤه عن تولي الملك[136]. وأعطت روما المملكة لـگوْضا الذي بمقتضى وصية مسِبْسا هو الوارث الشرعي لها، وقد خَلفها من بعده لابنه هيمْبسال (الثاني). ومع ذلك فيحتمل أن نوميديا قد وقع تقسيمها في ظروف لاتزال غامضة جدا. وكان خليفة هيمْبسال على الملك هو ابنه يوبا (الأول). ولا ندري هل كان لهذا أخوة لم يدعوا للاستفادة من تقسيم للمملكة.

أما عند الماسيسيليين فإن سيفكْس كان ملكاً إبان الحرب البونيقية الثانية، وأصول هذا الملك مجهولة لدينا. ومن المحتمل أن يكون قد أشرك معه ابنه وِرْمينا Vermina الذي قد يكون خلفه على مملكة منتقصة جدا.

في 206 ق م كان باكا Baga ملكاً على الموريين. وكذلك كان بوكوس Bocchus في نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق م. ولا ندري هل كانا ينتميان لأسرة واحدة. كما لا ندري ما إذا كان بوكوس في حياته قد أشرك معه ابنه بوكود Bogud. وهل خلفه هذا الأخير على الملك ؟ وفي أواسط القرن الاول ق م كان هناك مملكتان موريتان يفصل بينهما نهر ملُوشا. ففي الشرق كانت مملكة بوكوس. وبالغرب كانت مملكة بوكود. ويحتمل أن هذين الأميرين كانا ينتميان لأسرة بوكوس الآخر وبوكود الآخر. ولكن لا نستطيع التأكيد على أن موريطانيا قد وقع تقسيمها كميراث بين أخوين اثنين، فنحن لا نعلم شيئا عن سبب هذا التقسيم ولا عن تاريخه.

لقد كان أوغسطس هو الذي جعل من ابن يوبا الأول ملَكاً على موريطانيا. ويوبا الثاني قد أشرك معه ابنه بطلمي Ptolémée الذي حكم بانفراد بعد موت أبيه. ولم يكن له خلف، لأن رومة استولت على المملكة.

هذه هي المعلومات الهزيلة التي لدينا عن تداول السلطات الملكية في الدول الأهلية. ولا يوجد أي نص يشير إلى مشاركة قانونية للرعايا في تعيين صاحب الأمر والنهي فيهم. فإذا تركنا التدخلات الرومانية جانبا. لاحظنا أن المُلك مخصوص بمجموعة من الأقرباء الأنسباء الذكور، ويتولاه العضو الأكبر سنا في المجموعة. والملوك يتركون الملك كميراث شخصي إلى أبنائهم الشرعيين الذين تكون حقوق الأقرباء الآخرين خاضعة لحقوقهم، تارة فإن عدة من هؤلاء الأبناء يتقاسمون فيما بينهم إما المهام وإما أرض المملكة. وتارة فإن ابنا واحدا يرث، ولكن النصوص لا تساعدنا على القول هل كان ذلك لأنه هو الأكبر سنا أو لأنه ابن وحيد. وأحيانا فإن الملك يشرك معه ابنه. وهو إن لم يجعله مساويا له، فهو له زميل على الأقل، وذلك لاشك ليعلمه المهنة الملكية، وليعوّد رعاياه كذلك على طاعته. وبهذا انعدم الفراغ في السلطة وانعدم ما يجره الفراغ من فتن.

2

يحمل الملوك في اللغة الليبية لقب كَلّيد Guellid أو أكلّيد Aguellid الذي احتفظت به اللهجات البربرية، والذي يقول عنه المؤرخ العربي ابن خلدون إنه الموازي لكلمة سلطان[13]. على أن هذا اللقب قد أطلق كذلك على بعض الرؤساء، منزلتهم أقل ارتفاعا. وكان اسم الملك في البونيقية هو ملك Melek، لكن على النقود وفي النقوش كان المستعمل بعد ذكر الملك هو لفظ مَمْلكْت Mamlekt بمعنى «ملْكية Royauté» أو على الأصح (الشخصة الملكية Personne royale) وفي هذا اقتباس من فينيقيا. أما في الإغريقية واللاتانية فإن اللفظين باسيليوس Basileus وركْس Rex هما

بالطبع اللذان يستعملان في الدلالة على الملوك، واللذان يستعملهما البربر أنفسهم، بينما ريكولوس Regulus الذي عليه مسحة من التنقيص ودُنَسْتِسْ Dunastes فيستعملهما بعض الكتاب.

وقد كان الملوك على الأقل منذ سيفَكْس ومسنيسا - يعصبون رؤوسهم بعصابات. والعصابة شريط ضيق من الثوب اقتبسوه من خلفاء الإسكندر. والاسكندر نفسه اتخذه تقليدا لملوك الفُرْس. والكثير من ملوك البربر كمسنيسا ويوبا الثاني يستذكرون انتصاراتهم بتزيين رؤوسهم - كما يظهر ذلك على نقوذهم بأكاليل من الغار. لأن الملوك الأفارقة كانوا يقلدون الملوك الهلنسْتيين بجعل صُورهم على نقودهم التي يسكّونها. وكان الصولجان أحد شعاراتهم، كما كانوا يرتدون ملابس الأرجوان عند ما يريدون الظهور بالفخامة اللائقة بمنزلتهم.

وهم منتبهون جدا لقواعد اللياقة. ولما يسميه سالُسْت باسم (الأبهة الملكية Decus regium). بحيث أن ملوك نوميديا لا يسمحون بتقبيل أي واحد من رعاياهم. وهيمْبسال حينما أراد الإساءة إلى يوغرطة، فإنه ذهب ليجلس على يمين أذْربَعْل حتى لا يأخذ أخوه بالتبني المكان الأوسط الذي يراه النوميديون مكان التشريف. وكاوْضا أحس إحساسا مؤلما بالإهانة التي لحقته من القائد الروماني ميتلوس Metellus عندما لم يسمح له بالجلوس بجانبه. ويوبا الأول أراد الجلوس بجانب سيپْيون القائد الكبير للجيش وبجانب كاتون Caton فاقتعد مجلس الشرف بين الرومانيين. فكان لابد لكاتون أن يلقنه درسا. فانتقل بكرسيه إلى يمين سيپْيون.

هؤلاء الملوك كانوا يعيشون في قصور في عواصمهم، ويحيون بها في رفاهية حسب ذوقهم أو استجابة لداعي الواجب. وكان لهم بلاط وخدم كثيرون[138]. كما لهم حريم مهول، وكانوا يبنون لأنفسهم

أضرحة ضخمة جدا، وبعد موتهم وربما حتى في حياتهم كانوا ينالون تمجيد التأليه.

3

الملك يدّعي أنه يمارس السلطة المطلقة. ولكن سلطته أبعد من أن تماثل ما لملوك مصر من حكم قوي تخدمه إدارة تتدخل في كل شيء. إن مملكته خليط كبير من الرهوط الاجتماعية والسياسية، المحافظة على نظامها الخاص وعلى استقلالها. إنها هي هذه العائلات المتكونة من الانسباء الذكور، هي هذه القرى المتكونة من السكان المستقرين، وهذه التجمعات البدوية، هي هذه القبائل وهذه العشائر التي لا ترتبط منها مجموعة بمجموعة أخرى أوسع منها إلا وهي تضحي بأقل ما يمكن من استقلالها. فليس للملك إذن أن يتدخل في حياتهم الداخلية. ولا أن يحل موظفيه محل شيوخهم. ولا ليفرض هؤلاء الشيوخ طاعتهم على الناس، ولا ليستفيدوا من سلطتهم كما أرادوا، وعلى الأخص كما استطاعوا. فهذا ليس يعنيه أو على الأقل إن كل ذلك لا يعنيه إلا بمقدار ما يعرض مصالحه الجهوية للخطر. وهؤلاء الرؤساء (الشيوخ) ينتمون للمجموعات التي هم على رأسها. فهناك إذن ما يدعو للاعتقاد بأن الملك لا يتدخل في اختيار غير العظام منهم. أما الأمراء الذين يحكمون بعض القبائل وبعض العشائر. فلابد أن الكثير منهم كانوا يتداولون السلطة على أنها ملك وراثي للعائلة. ولكن هل أعطى الملك لنفسه حقا قاطعا في التنصيب؟ يسوغ هذا الافتراض، ولو أن المعلومات تعوزنا كلية في هذا المجال.

هناك كذلك المدن التي تدير شؤونها بنفسها. فبعضها منثور على الساحل، وكان أكثرها مستوطنات فينيقية او قرطاجية، وبعد وقوعها في

سلطة الملوك النوميديين والموريين، فإنها احتفظت بأنظمتها البلدية التي هي – على ما يحتمل جدا – ولاة يدعون باسم سوفيط Sufètes، ومجلس للشيوخ، ومجلس للمواطنين. والكثير من هذه المستوطنات أحرزت على حق كانت قرطاجة تمنعها منه، وهو حق سكّ نقود لضرورات التجارة المحلية تكون من البرنز، وتحمل اسمها مكتوبا بالبونيقية. فعملية سك النقود برهان على استقلال هذه المستوطنات. وبعض النقود من لِكْسوس Lixus وتِنْجي Tingi تحمل الإشارة الواضحة على أن سكّها كان على يد المواطنين، أي المدينة، إذ أن لكسوس كانت مستوطنة قديمة جدا لمدينة صُور Tyr، أما تِنْجي التي جعلها الملوك الموريون عاصمتهم، فيحتمل أنها لم تكن أبدا خاضعة للفينيقيين، وإنما اتخذت لغتهم ونظمهم.

أما بالداخل فإن مدنا أهلية في أصولها، كانت هي أيضا تتمتع بنظام بلدي. وقد سمح للبعض منها بسك عملة من البرنز، وهذا أمر لا شك فيه بالنسبة لمدينة سِرْتا Cirta (قسنطينة)، ومحتمل بالنسبة لمدينة تاكورا Thagura (بشرق القطر الجزائري). ومثل ذلك نقود أخرى، يبدو أنها تنتمي لمدن نوميدية ولكن لم يستطع أحد حتى الآن تصنيفها تصنيفا مرضيا. أما عن قانون هذه المدن، فإن معرفتنا به سيئة للغاية. فمدينة فاكا Vaga (باجة) كان لها في نهاية القرن الثاني مجلس للشيوخ، وكذلك ولاة Magistrats لاشك. كما أن بعض النصوص الغامضة تمكن من الافتراض بأن ولاة كانوا يحكمون سِرْتا وتوفسْت Theveste (تيفاشة) منذ القرن الثالث ق.م.

وكون هذا القانون قد أمكن اقتباسه من أنظمة المستوطنات الفينيقية على سواحل نوميديا وموريطانيا، فذلك افتراض مقبول جدا.

لأن المدن التي تستعمل اللغة البونيقية على نقودها، والتي تحمل أحيانا اسما بونيقيا، لابد أن تتخذ برضاها النظام البلدي القرطاجي. ولقب سوفيط Sufète (سبط) دخل إلى لغة الأهالي، كما يشهد بذلك نقش باللغتين من دُقّة Dougga حيث يُقرأ في النص الليبي كما يقرأ في النص البونيقي. وهو في هذا النقش يطلق على شخص عاش في القرن الثالث، هو زِلَلْسان Zilalsan جد مسنيسا وأبو الملك گايا. وفوق ذلك، فهناك شك كبير في أن اللقب يعني هنا مجرد وال للمدينة. ولكن الأسافيط Sufètes أي الولاة المحليين كانوا بوليلي Volubilis في قلب موريطانيا الغربية، وذلك قبل أن يطبق بها الاحتلال الروماني نظام الجماعة المساهمة Municipe[139] ويظهر كذلك أن نقشا بونيقيا من سرْتا يذكر واحدا من السوفيط. أما في عهد الإمبراطورية فإن نقوشا لاتانية ونيوبونيقية تعرفنا بوجود الأسافيط في عدة مدن نوميدية مثل توگة Thugga، ومكْتَريس Mactaris وليميسا Limisa، وألْثِبوروس Althiburos، ومسْكُولا Masculula، وكَبْسا Capsa، وكلاما Calama، وربما في مكان يقع جنوب كلاما. ويمكن الاعتقاد ولكن دون تأكيد أن خطة السوفيط قد وجدت في هاتين المدينتين منذ عهد الاستقلال.

ومع ذلك فيجب أن لا ننسى أن بعض القرى البربرية قد عرفت منذ عهد باكر تنظيما مماثلا إلى حد ما، ولكنه مستعار من أنظمة المدن البونيقية. وعندما تحولت بعض هذه الجماعات وصارت مدنا، فيحتمل أنها لم تتخل عن أنظمتها الأولية لتحتذي الأمثلة الأجنبية. ومن المحتمل أيضا أن بعض التقاليد العتيقة قد اختلطت هنا وهناك بتقاليد أخرى مستعارة. وليس لدينا وثائق تفيدنا عن هذا بدقة.

إن نقش دُقّة Dougga ذا اللغتين الذي ذكرناه من قبل هو نقيشة تكريس بتاريخ 139ق م، أنجزها «مواطنو تُكّة Thugga». والنقيشة تذكر بعض الرتب أو الوظائف التي لابد أنها ترجع إلى المدينة، والتي يوجد الكثير منها مذكورا في نقائش ليبية من نفس المكان. ولكن البعض منها يفسر تفسيرا غير صحيح بينما بعضها الآخر غامض تماما. فهناك ملك (هذا اللقب هو نفس لقب ملوك نوميديا، أي مَمْلكتْ Mamleket في البونيقية، وگلّيدات Guellidat في الليبية) وهو الحاكم المفرد والسنوي. ولم يرد بها ذكر للأسافيط البلديين، مع العلم أنهم قد وجدوا بعد ذلك بمدينة تُكّة (دُقّة) في العهد الإمبراطوري الروماني. وهما اثنان من «رؤساء المائة» يقومان معا بهذه الرتبة التي ربما ترجع إلى أصل فينيقي لأن نفس اللقب يوجد بصور. فهل هما رئيسان لمجلس شيوخ المدينة؟ وهناك وظائف أخرى لكل منها شخص واحد يقوم بها (على الأقل حسب ما يرد بالنقيشة). وهي مذكورة بألفاظ ليبية حتى في النص البونيقي. ولهذا فلابد أن لها أصلا أهليا. (بل لا يدرى حتى كيف كان النطق بهذه الألفاظ لأن الحركات غير مكتوبة فيها)، وهي كما يلي Gldgyml, Gzby, Mqkwy. وهذا الأخير اسم مركب أوله گلّيد Guellid (أي ملك، رئيس). ومن العبث القيام بتخمينات في موضوع هذه الألقاب. ولا نعلم كذلك شيئا عمن هو «عميد الخمسين» المذكور في آخر القائمة Préfet des Cinquante. وكان الذي يتولى هذه الوظيفة ابنا لملك، أي إنه ابن لوال أعلى بالمدينة. ونستطيع أن نفترض بشأنه عدة افتراضات ونتساءل : ألم يكن رئيسا لإحدى هيئات الشرطة؟

وفي سِرْتا، فإن عدة من التكريسات Dédicaces البونيقية أنجزتها شخصيات ذكرت فيها سنوات حكمها (بحيث نجد الأرقام 5، 44 و50). ومن المستبعد أن هذه الرتبة – وهي لطول الحياة لاشك – يمكن

مقارنتهما «بالمَلَكية» السنوية التي بثُگّة، كما ليس مؤكدا أنها وقعت مزاولتها بسرْتا نفسها. ولقد أشرنا إلى إمكان ذكر السوفيط في نقيشة بونيقية كشف عنها التراب في قسنطينة. كما أن نقودا بلدية بكتابات بونيقية نقرأ عليها اسما عَلَماً، يبدو أنه اسم الحاكم الأعلى. أما الكتّاب الذين تعرّفنا بهم النقوش البونيقية، فلعلهم كانوا إما في خدمة الجماعة، أو في خدمة ملك نوميديا المقيم في سرْتا.

وفي مكان آخر وُجدت نصوص نيوبونيقية (عثر عليها في هنْشير المدينة) يرجع تاريخها للعهد الإمبراطوري وهي تذكُر المزْراح Mizrah أي الهيأة النظامية Corps Constitué التي ربما هي مجلس المدينة، كما تذكر رئيسها. وهناك ما يدعو إلى الافتراض بأن ذلك ميراث من العهد النوميدي. وهناك بعض الألفاظ المقترنة بأسماء بعض الأشخاص على نقوش بونيقية وليبية، لعلّها كانت أسماء لوظائف بلدية، غير أن التأويلات الأخرى بشأنها (بأنها أسماء للحرف أو رتب كهنوتية) ليست واهية جدا.

وأيا ما كانت دساتير هذه المدن البونيقية أو الأهلية، فإنها تمتعت على ما يبدو بحكم ذاتي واسع على غرار القبائل في ذلك. بحيث إننا لا نشاهد بها حضور الممثلين الدائمين للسلطة الملكية، المكلفين بحكمهم مباشرة أو المنضافين فوق الحكام المحليين.

ولاشك أن هذه المدن كانت على غرار المدن الفينيقية والإغريقية واللاتانية، تتصرف خارج أسوارها في منطقة ترابية تتسع أو تضيق. ويبدو أن منطقة سرْتا كانت شاسعة. والقرى التي بهذه المناطق الترابية، لابد أن رؤساءها جميعا كانوا طبعا تابعين لرؤساء المدن.

4

هذه المجموعات من البدو الرحل، ومن المزارعين المستقرين، ومن أهل المدن كانت تبدو حريصة على الحفاظ على استقلالها. وكان يفرق بينها أحوال من الحسد، وحزازات قديمة تغذيها خصومات تتجدد دائما. إن لهم وطنا صغيرا ذا أفق ضيق، فهم لا يرون لهم وطنا كبيرا في هذه الدولة التي ينتمون لها بإكراه لا عن رضى، هذه الدولة التي كثيرا ما تتغير حدودها، وتشمل عدة مناطق متناثرة وسيئة الاتصال فيما بينها وتنفصم روح الطاعة والتقاليد المشتركة التي تطيل حياة الأمم الحقيقية وتعدد اللهجات يعرقل العلاقات. ولا يبدو أن المعتقدات الدينية قبل انتشار الإسلام قد أنشأت بعض الروابط. فاليونانيون والغاليون كانوا برغم جميع اختلافاتهم يشعرون بأنهم أخوة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للأهالي الأفارقة.

إنهم بصفة خاصة لا يشعرون بأية رغبة للالتفاف حول سيد. يكون ملزما للحفاظ على سلطته بأن يلزمهم القيام ببعض التضحيات. فتيت ليف Tite-Live – أي بوليب Polybe الذي ينقل عنه تيت ليف – قد لاحظ كرههم للملكية[1]، وبعد ذلك افتخر البربر بأنهم يلجمون ملوكهم كما يلجمون خيولهم. إن مزاجهم فوضى. وكأنما هم مصابون بمرض الحاجة إلى فتن لا تؤدي إلى نتيجة، أو لا تساوي المجهودات التي بذلت. وفي التاريخ القديم قدموا لنا في الصورة التي هم عليها دائما، فهم جزوعون، متقلبون، لجوجون ومتسارعون إلى الغضب والفتنة.

أما القبائل التي تعيش بالجبال في مأمن من الرحل، فإنها هناك أيضا في مأمن من الملك الذي لا ضرورة تدعو لحمايته. وعصابات الفرسان الناهبين التي تنتشر بالسهول بغتة، تنسحب بنفس السرعة

التي جاءت بها قبل توفر الوقت لمتابعتها. وبالنسبة لكبار الرحَل، أي الجيتوليين الذين يغادرون البراري قاصدين التل في نهاية الربيع، فإنهم أقل خفة لأنهم يسوقون معهم عائلاتهم وقطعانهم. غير أنهم، لضرورة الرعي أو حبّاً في النهب يفضلون أن يسيئوا إلى الضيافة التي يَنالونها. وبعيدا إلى الجنوب لهم أماكن يخفون فيها سرقاتهم، ويصعب الوصول إليها واقتحامها. والتصرف بالفلاحين أهون، لكن لابد مع ذلك أن تخشى منهم الاضطرابات، خصوصا في أشهر الصيف حيث تحمي الشمس الرؤوس، وحيث تجمع المحاصيل فيكون الفراغ أسوأ ناصح، وحيث الملك يطالب بنصيبه من الحصاد الجديد. وبكل الجهات، فإن المدن والقُرى والمآوي لها تحصينات طبيعية أو مصنوعة بيد الإنسان، مما يساعد على طول المقاومة في هذه الحقب، وهذه الأراضي التي يكون فيها القائمون بالحصار غالبا ما تعوزهم وسائل المباغتة بالهجوم.

فكم من رئيس قبيلة أو عشيرة ينافس الملك ويطمح للحلول محله! وفي العائلة المالكة، بل في القصر نفسه، فإن من الأمراء من يفكر إلا أن يسلب بالثورة أو بالاغتيال السلطة من الشخص الذي يزاولها. إن الخيانة تحيط به وتجعله في حسرة دائمة. وعند وفاته فإن النظام المحكم في التولية، أو القرارات التي اتخذها لا تطبق دائما. فتنطلق المنافسات وتندلع الحروب.

والحروب بين الدول المتجاورة كثيرا ما تقع، وسببها غزوات لا تلبث أن تتبعها غزوات انتقام، أو سببها العمل لتتراجع الحدود التي لم يحسن تخطيطها، وربما بسبب دسائس بعض الثوار الذين يبحثون عن سند من الخارج، وأحيانا بسبب استحالة المحافظة على الحياد في الحروب التي تشنها قرطاجة أو رومة على بعض الملوك الأهالي، أو

بسبب الطمع في الاستفادة الواسعة من غنيمة الانتصار. أما في أقصى الجنوب، فيما وراء الجيتوليين الذين يثورون أكثر مما يستسلمون، فلا نعلم شيئا عن الخصومات التي تسبب الطمع في الاستفادة الواسعة من غنيمة الانتصار. أما في أقصى الجنوب، فيما وراء الجيتوليين الذين يعتدون أكثر مما يستسلمون، فلا نعلم شيئ عن الخصومات التي تسبب بعث التجريدات العسكرية حتى على أرض الاثيوبيين.

مهمة الملك إذن صعبة. فالتهديدات والعراقل تواجهه من كل جهة. ومع ذلك فالملكية تبقى، لأن الذين بيدهم هذا النوع من الملكية العائلية، يشعرون بكبرياء منزلتهم الرفيعة، ولهم العزم على التمتع بنفوذهم وبالمنافع المادية المخولة لهم. وفي العادة لهم كذلك القسوة الشديدة التي لا تأنف من التعذيب والتقتيل، والتي تجعل من الرعب أداة للحكم.

وهم في حاجة إلى الموارد المالية العظيمة، ليس للانفاق على حياتهم المترفة فحسب، بل كذلك لأداء ثمن المساعدات التي تمكنهم من أن يبقوا صامدين وتمكنهم من جمع هذه الموارد نفسها.

وأفضل المؤدين لهم هم الحضريون والسكان المستقرون بالسهول، الذين تشملهم سيطرتهم من غير تعب كبير، والذين يمكنهم العيش في رفاهية بتعاطي التجارة وفلاحة الأرض. فللملك مصلحة كبيرة في نمو الفلاحة التي تبسط يده على رعاياه، ففي استثمارهم فائدته. ومصلحته تفرض عليه أن يضمن لهم حياة مطمئنة. فيجب منعهم من أن يتناحروا فيما بينهم، كما يجب على الخصوص حمايتهم من نهب وعنف الرحّل. ويجب مراقبة هؤلاء الآخرين في تنقلاتهم، ومعاقبتهم على تعديهم. على أن الرحّل يمكن الحصول منهم على بعض المداخيل، وذلك بفرض بعض الضرائب على قطعانهم التي ينتجعون بها. فضرورة سوق

ماشيتهم إلى التل تدعوهم لأن يبدوا بعض التساهل عندما لا يشعرون أنهم هم الأقوى. أما القبائل المقيمة في المناطق التي يصعب الوصول إليها، فالملك يمنعها من حمل الاضطراب إلى خارج أراضيها. ومن دون أن يقتحم أرضها فإنه يدفعها إلى إرادة العيش معه في سلام، وذلك بتهديدها بأن يغلق الأسواق التي تأتي إليها للبيع والشراء، ولكنه لن يحاول إخضاع هذه القبائل ولا فرض الأتاوات عليها إلا إذا تأكد لديه أن في المشقة نفعا.

ومن مصلحة الملك كذلك تنمية العلاقات التجارية وضمان سلامتها، لأنه سيتقاضى الضرائب على المبيعات ويحصل على واجبات الجمارك والمكوس. وحيث إن جل الضرائب لا تؤدى له نقدا، فيجب دون شك أن يكون هو نفسه تاجرا، كي ينال من الأجنبي العملة التي هو في حاجة إليها، وذلك ببيع المنتجات التي يدفعها له رعاياه عينا. وفوق هذا يجب عليه العمل لاقتناء أملاك عقارية شاسعة يخص نفسه من غلاتها بنصيب أكبر من غيرها التي إنما يتقاضى منها الضريبة باعتباره ملكا.

فنحن نرى أن إرادة الحفاظ على سلطته ضد النوازع الفوضوية لشعبه تفرض عليه واجبات ثقيلة، لا سيما وأن كل شيء - بالفعل أو تقريبا - يعتمد على شخصه، وعلى ذكائه، وعلى نشاطه وحيويته. فإذا كانت سنه - أي شبابه الغض أو شيخوخته الواهية - وإذا كان وهن جسمه أو ضعف مكانته يمنعه من أداء مهمته، فقد يحدث أن أحد أقربائه، بل يحدث أن بعض خدمه يزاولون السلطة فعليا من وراء ظهره. ولكن تعوزهم الهيبة، وهي عنصر هام في الملكية، كما أن الإغراء قوي لدى هؤلاء الرجال ليقدموا مصالحهم على مصالح صحب السيادة الاسمية الذي لا يقدر على حماية مصالحه. وهكذا يسرع التفكك إلى الدولة لأنها غير مدعمة ببنية إدارية.

من الأكيد أن الملك لا يستغني عن المنفذين لتسيير الشؤون، مثل السكرتارين والمحاسبين والخزنة وأمناء المال والقيمين على البريد. ولكن ليس هناك ما يدل على أن هيأة للموظفين كان لها وجود منظم. وسواء كان هؤلاء المنفذون أحرارا أو عبيدا فإنهم في خدمة الملك شخصيا إذ تختلط مصالح القصر ومصالح الدولة.

وكذلك فمن المشكوك فيه جدا أن "الملك كان يساعده وزراء حقيقيون، أي موظفون علاة لهم اختصاصات محددة. فليس بجانبه سوى رجال يهبهم ثقته أو ينتزعها منهم متى شاء. فهو يحملهم أعباء إما في قضية خاصة عرضت ويجب حلها. وإما في مجموعة من القضايا المترابطة. التي هي في دولة محكمة النظام ترجع إلى نظر مصلحة وزارية دائمة. وأفراد أسرته المقربون. وعلى الخصوص منهم أبناؤه هم الذين يستخدمهم في هذا، كان يتسلموا منه مهمات دبلوماسية، وقيادات عسكرية في إفريقيا أحيانا أو على رأس الجيوش التي يجعلها تارة أخرى رهن إشارة حلفائه. وللملك أيضا «أصدقاء»، وهو لفظ كثيرا ما استعمله الكتاب الاغريق واللاتانيون. وإذا لم يكن هؤلاء الأصدقاء من أسرته، فلربما أنهم على الخصوص من رؤساء القبائل الكبرى وشيوخ العشائر الذين يأتون البلاط ليقضوا به مدة تطول أو تقصر. فيستشيرهم الملك في القضايا الخطيرة، ويكلفهم بمهمات رسمية أو سرية ويسند إليهم القيادات في جيش يقوده هو نفسه، او في العمليات التي يتخلى لهم عن تسييرها. وأحيانا يتخلى لهم عن قسم ضئيل أو كبير من الإدارة. فينتهزونها فرصة للزيادة في ثرواتهم. ولكن هذه ليست وظائف عمومية على وجه التحقيق. وإنما هي توكيلات يسمح بها الملك حسب هواه. ويمكن أن يلغيها متى شاء. وتصبح هي من ذات نفسها ملغاة إذا توفي الملك. فيصح إذن القول بأن حكم الدولة بتمامه ملك له. وذلك طبعا

في الحدود التي يريد ويستطيع مزاولة الحكم فيها، أي من فوق المجموعات المستقبلة لا داخلها.

5

هذا الحكم يعتمد على القوة بالخصوص، وإن كانت له وسائل أخرى للعمل. فالملك يحتاط من الخيانات ومن الفتن الممكنة التي يثيرها الرؤساء الكبار، وذلك بأن يحتجز الرهائن احتجازا ذا مظهر مشرف. ويختار إحدى بناتهم زوجة له - لأن نظام تعدد الزوجات يعطيه في هذا المجال كامل الحرية - كما أنه يقرب إليه أبناءهم ويدخلهم ضمن حرسه الملكي.

وكما سيفعل الأتراك وسلاطين المغرب بعد ذلك، فإنه يستعمل طريقة «فرّق تسُد». ويجتهد ليكون على علم بما يجري. فيستغل شكوك وأحقاد الأقرباء فيما بينهم داخل أسرهم، وشكوك وأحقاد الأسر داخل القبائل والمدن. ويضمن لنفسه الطاعة بما يثيره ويتعهده من الخوف لدى الخصوم. وينعم بالتعاقب أو في آن واحد على مختلف التكتلات، أي على هذه الصفوف Çofs (الأحلاف) التي لابد أنها كانت تعم المجتمع البربري. وهو يواجه قبيلة بقبيلة ويعارض رئيسا برئيس. ويجعل على رقابة المشكوك فيهم من يبدون أكثر استعدادا للبقاء على وفائهم. وإذا استحقت إحدى القبائل عقابا فيفضل هو أن لا يقوم به. فإنه يعطيها لبعض الجيران أو للرحل النهّاب (ليأكلوها). وإذا صارت قبيلة أخرى قوية جدا، فإنه لا يجد عناء كبيرا في تجزئتها بإثارة المنافسات في العائلة المسيرة. وبالطبع فإن هذه السياسة لا تساعد على تولد شعور واسع بالوطنية عند رعايا الملك، وإنما تبقى على الأقل

من الاتفاق الوحيد الذي يبدو أن الرعايا قادرون عليه، وهو الثورة الجماعية ضد حاكمهم.

غير أن الملك رجل حرب أكثر مما هو رجل دبلوماسية. وهو لا يطاع إلا بقدر ما يحس الناس بقوة قبضته أو بخطر ساعده.

ومعلوماتنا سيئة جدا عن كيفية استعماله للشرطة في مناطق حكمه. ولا نستطيع القول مثلا هل كان يقيم الحاميات الدائمة في أهم المدن بالساحل وبالداخل. إننا لا نعرف ذلك إلا في إبان الحرب. وحينئذ فمهمة الحاميات هي الدفاع عن المدن ضد العدو، وليست إرغاما على أن تبقى وفية للملك.

كانت الجيوش تقيم في كل حين ببعض الأماكن كالمدن أو مجرد الحصون ذات المواقع الستراتيجية مثل القصبات التي بناها الاتراك بالجزائر، والتي بنتها بالمغرب الأسرة الحاكمة الحالية. ومن هذه الأماكن كانت تقبض على الأراضي المحيطة بها، وتضمن المواصلات بقدر الاستطاعة، وتراقب الجبليين عن بعد، كما تراقب وتمنع عند الحاجة الرحل من المرور. ونظرا لكون هذه الحصون أقيمت في أحسن الأوضاع المناسبة للدفاع، ولكونها زودت بأسوار قوية حيثما كانت الطبيعة لم تقم فيها الموانع الكافية للهجمات، فإنها كانت عند حدوث فتنة أو حرب تستخدم كمواقع أمان، ونقط ارتكاز للجيوش المحاربة، ومراكز للتموين بفضل المؤن التي وقع الاهتمام بادخارها فيها. وهكذا كانت على ما يحتمل هذه القصور الملكية. هذه القلاع الملكية التي تذكرها نصوص في رواياتها عن بعض الحروب أي حصونا جاثمة بأماكن وعرة، كدست بها مدخرات كبيرة من القمح، واختزنت فيها كذلك مقادير كثيرة من الأموال.

ولم تكن هذه الحاميات تقوم بصدّ جميع الأخطار التي تهدد الأمن. فالملك لابد أن تكون تحت يده جيوش لحماية ذاته من هجوم مفاجئ، وللقيام بالحملات الضرورية للقضاء السريع على إحدى الفتن التي يجب منعها من الانتشار، وللانطلاق بالخيول في سرعة لوضع حد لإحدى هجمات الرحّل، ثم محاولة استرجاع الغنائم من أيدي هؤلاء النهّاب الفارين، وللطواف على القبائل التي تتمنع من أداء الضريبة، ولإنزال عقاب تتفاوت قسوته بالعصاة والفتّانين ومعكّري الأمن الذين يحسن أن يعاملوا حسب مقتضى الأحوال والمستطاع. ولذلك هم يُسلبون من أبدانهم، أو يسحقون بالغرامات أو يُجرّدون من أملاكهم وأراضيهم ويرحلون إلى بعيد، أو يُحوّلون إلى عبيد أو يقضى عليهم بالتقتيل.

من أعمال الأمن، هذه التي يجب القيام بها على جناح السرعة، وفي مناطق غالبا ما تكون بعيدة عن الأمكنة التي تقيم بها الجيوش، تتطلب على الخصوص قوات سريعة جدا من المشاة والخيالة الخفيفة التي تمر بكل مكان ولا ترتبك بثقل الأمتعة.

غير أن الملوك يكون لهم أيضا، من وقت لآخر، حروب يخوضونها إما ضد ملوك آخرين وإما ضد أعداء أكثر شدة كالقرطاجيين أو الرومانيين. فيلزمهم والحالة هذه أن يحشروا أكبر عدد من الرجال، وأن يستعملوا في الحرب وسائل أقل بداءة من تلك التي يمكن أن تكفيهم ضد لصوصية الجيتوليين أو هياج الفلاحين.

لهذا فجيشهم يتكون من طائفتين. فمن جهة، هناك مجموعة من الجيوش الدائمة التي تكوّن لهم حرسهم، وربما تكوّن أيضا الحاميات في أمكنة مختلفة، وتقوم بمهمة الشرطة في المملكة، وتقدم لاشك المساعدين الذين يجعلهم الملك في خدمة روما عندما تطلب هذه منه مساعدته. وهذه

المجموعة في وقت الحرب، هي النواة القوية التي تدعم جموع الحاملين للسلاح، وهي جيش الاحتياط في ميدان المعركة. هذا من جهة، وهناك من جهة أخرى كتلة من المجندين الذين يدعون إذا أعلنت الحرب ويسرحون عندما تنتهي الحرب أو تتوقف.

والتاريخ الحديث لبلاد البربر يمكن أن يسوغ لنا تقديم افتراض عن الطريقة التي كان يقع بها حشر الجيوش في العهد الذي ندرسه. فلابد أن الجيوش كانت أولا تقدمها القبيلة التي تنتمي إليها العائلة المالكة والتي كونت الدولة معها. غير أن هذه القبيلة سريعا ما يصيبها الوهن ولابد من قبائل أخرى تقويها أو تحل محلها. وإذا دعت الضرورة، فإن الملك ينقلها لتكون تحت يده في الأمكنة التي يقيم بها، حتى في قلب الجهات التي ستقوم فيها بحفظ الأمن. وكأنما هي تكون طبقة عسكرية فتتمتع ببعض الامتيازات وعلى الخصوص منها الإعفاء من أداء الضرائب. لكن رجالها القادرين - كليا أو جزئيا - ملزمون بالخدمة. وفوق هذا فيحتمل أنهم يتقاضون جراية مالية، كما أنهم غالبا ما يجدون فرصا للربح في الحملات التي يبعثون فيها.

هذه الجيوش النظامية مقسمة إلى جحافل Corps، أمرتها مسندة إلى ضباط. وهي مزودة بالأشعرة، وقادرة على اتباع النظام. ولها خبرة بالحرب. وغالبا ما يكون عتادها أقوى، وتكون أحسن تجهيزا بأسلحة الهجوم والدفاع من غالبية الأهالي. وكان يوبا الأول قد كون الفيالق Légions التي كانت لا شك فيالق ثقيلة من المشاة حسب المثال الروماني. أما خيول فرسانه النظاميين فكان لها شكائم. وجيوشه الخفيفة، لم يكن فيها فحسب الرجال حملة الرماح، التي هي السلاح الوطني للبربر، بل أحيانا يكون فيها أيضا المحاربون بالقسي وبالمقاليع. وهؤلاء يمكنهم النيل من العدو عن بعد. وبعض القادة يتخذون

السلاح الروماني والإغريقي. ولم تكن فِرَق النخبة تأنف الرفاهية، بحيث إن الجيتوليين بالحرس الملكي كانوا يأخذون معهم الخدم.

هذا الجيش الدائم، كانت الخيالة فيه هي التي تقوم بالدور الأهم إذ غالبا ما كان لابد - كما سبق أن قلنا - من الذهاب بعيدا وسريعا وفوق هذا، فالبلاد تغص بالخيول الممتازة، كما أن الأفارقة، وعلى الخصوص منهم النوميديون، مشهورون بالفروسية.

ولكن جيوش المشاة لم تكن منعدمة الوجود. فهناك رواية - وإن كنا نعترف بأنها مشكوك فيها جدا - تصوِّر لنا سيفكْس يعمل لتكوين جيش نظامي للمشاة بمساعدة مدربين رومانيين[141]. وإذا كانت تعوزنا المعلومات عن مسينيسا وعمن تولى بعده، فإننا نعرف فيالق يوبا الأول.

إن الملوك الذين تولوا الحكم في بلاد البربر الإسلامية غالبا ما استخدموا بعض الميليشيات التي كانت أصول جنودها أجنبية، من مسيحيين ومرتدين عن المسيحية آتين من أوربا وأسبانيا على الخصوص، وزنوج السودان ومن الترك والأكراد وغيرهم. وقد كانوا على العموم من أحسن الجنود، شريطة أن يُؤدى لهم المال عن سعة أو يؤذن لهم في النهب. ولعدم وجود أي رابط يربطهم بالبلاد، فليس لهم أية مصلحة في الإبقاء على القبائل الأهلية التي يؤمرون بمحاربتها. ولكن كان يسهل عليهم الفوضى والمشاركة بمقابل في الفتن التي تحدث داخل القصور. وكذلك كان لإفريقيا البربرية حرسها الزيادي Praetorianus[142] وفي التاريخ القديم نعثر على إشارات بوجود بعض الأجانب في خدمة الملوك النوميديين. ففي عهد يوغرطة نجد الجنود الفارين إليه من الجيش الروماني وهم فرقة من الليكوريين Ligures وكوكبتان من التّراقيين Thraces وهناك غير هؤلاء. وحيث أنه لا شك في العقاب الذي ينتظرهم إذا وقعوا في أيدي من خانوا، فالمؤكد أنهم جنود

مساعدون يصح الاعتماد عليهم. وقد كان ليوبا الأول 2000 فارس إسباني وغالي، وهم مرتزقة لاشك، ولا ندري كيف دخلوا في خدمته، وقد جعلهم حرسه الشخصي.

وهؤلاء الناس القادمون مما وراء البحار كانوا مرتبطين كلية بالملوك الذين يستخدمونهم. لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لِسِتْيوس Sittius الذي عاش بإفريقيا من 64 إلى 47 ق م، وكان على رأس عصابات متكونة من الإيطاليين والإسبانيين. ويبيع خدماته لهذا الملك تارة وللملك الآخر تارة أخرى. فهو قائد للمرتزقة، وكان على ما يبدو بعد إبرام الاتفاق، يسيِّر العمليات حسب رأيه، غير أن هذا الأمر استثنائي، لأننا لا نعرف له ولو مثالاً ثانياً واحداً.

في إبان الحرب كانت الجيوش النظامية يضاف إليها وحدات تقدمها القبائل. وهم الذين يسمون في الجزائر باسم الكوم Goums[143] ولاشك أن الأمر بالدعوة للجيش كان يُعطي لرؤساء هذه القبائل. وهم الذين كانوا يأتون برجالهم ويقودونهم في المعارك. وكانت الدعوة توجه حسب الاحتياج إلى جميع المملكة أو إلى بعضها، إلى الرجال الذين هم في عنفوان قوتهم أو إلى جميع الرجال الذين ليسوا عاجزين عن خوض المعركة. فبهذا يمكن تكوين عدة جيوش بحيث تزيد عدتها بقدر ما تساعد عليه الموارد الموجودة لضمان طعامهم البسيط. ونجد عند الكتّاب القدماء أرقاما بأعداد هذه الجيوش، وهي أرقام لا يجب الاطمئنان إليها. ومع ذلك فلا يبعد عن الصواب أن بعض الحروب قد حشد لها خمسون ألف جندي أو أكثر[144].

ولم تكن مخازن السلاح ولا مرابط الخيول مليئة بما يكفي لتجهيز هذه الحشود، فكان الفُرسان والرجّالة يأتون بأسلحتهم التي يملكونها:

من رماح وسكاكسن وتروس صغيرة، ويأتي الفرسان على خيولهم التي ليس لها شكائم.

لقد كان هؤلاء الجنود الظرفيون يتحلون بمزايا جنسهم، من قناعة ومكابدة وخفة وجرأة حين يدعو الأمر. غير أن سلاحهم بسيط جدا، ويعوزهم الانضباط والترابط، لذلك فهم في المعركة لا يخيفون الخصوم ذوي السلاح القوي، الذين لا يضطربون أمام هجماتهم الصاخبة، والذين يعرفون كيف يحافظون على تنظيمهم. وتربيتهم العسكرية أمر عسير، إذ يضيق عنها الوقت على العموم. لأنهم إذا لم يُبقهم أمل الحصول على الغنيمة، فإنهم يودون بالحاح العودة إلى بيوتهم. وبمجرد ما تتاح لهم الفرصة، فإنهم يفرون، خصوصا أثناء الاضطراب الذي يعقب معركة خاسرة، وفي وقت رمي البذور وعند الحصاد يستحيل بقاء الفلاحين، أما في الخريف فالرحل الذين كانوا قد قدموا بقطعانهم للاصطياف بالتل، فإنهم يريدون الرجوع بالقطعان للسهوب.

على أن الملوك يجتهدون مع ذلك في تقليد بعض الأساليب الحربية التي تستعملها الأمم المتحضرة، إذ عوضا من أن يكتفوا بمجرد الحصار، فإنهم يستعملون أحيانا معدات الحصار لاقتحام المواقع. وفي معارك السهول يستخدمون الفيلة على غرار القرطاجيين. وقد نال مسنيسا من روما في نهاية الحرب البونيقية الثانية قسما من الفيلة التي كانت على مِلْك قرطاجة. وبعده حافظ ملوك نوميديا وموريطانيا على ما ورثوه من هذه الحيوانات، أو أمروا بصيدها في الغابة للحصول على أخرى من جديد. وقد جعلوا بعضا منها رهن إشارة الجيوش الرومانية المحاربة في المشرق وفي أسبانيا وغالية، ويصحبون معهم عددا كبيرا منها في حروبهم الإفريقية. وكان ليوغرطة منها 44 فيلا في معركة موثول Muthul، وفي هذه المعركة قتل فيها جميع فيلته أو أسِرت، ومع ذلك بقي

له غيرها. وكان صهره بوكوس يملك منها 60 على الأقل. وفي معركة ثَبْسوس Thapsus استولى قيصر على 64 فيلا من فيلة يوبا الأول. وفي هذا اليوم اتضحت بالبرهان الأخطار التي يمكن أن توقعها هذه الحيوانات المساعدة بمن يستخدمونها. فكما في بعض الأحوال الأخرى، أصيبت بالذعر وتحولت إلى حالة من الاهتياج، فاستدارت ضد جيشها نفسه وأحدثت فيه الاختلال. ومع ذلك فإن المتأخرين من ملوك موريطانيا، وهم بوكوس الصغير ويوبا الثاني وبطليموس قد كانوا على ما يظهر يملكون فيلة حربية. وكان المعتاد عند القرطاجيين أن هذه الفيلة لا تحمل سوى سائس Cornac واحد ليوجهها، بحيث كانت هي وحدها المكلفة بمهمة إيقاع أكثر ما يمكن من الضرر بالعدو. أما عادة تحميلها بُروجاً فيها مُحاربون، فهي أكثر استعمالا عند الملوك الأهالي.

وهؤلاء الأمراء قد كانت لهم بحْرية. ولو أنها لم تكن على وجه الحقيقة بحرية مهمة. فالشهادات المتعلقة بها ضئيلة العدد وغامضة. ولعلها كانت تستعمل على الخصوص لردع القرصنة. وهذا ما لم تكن هي تتعاطاه، الأمر الذي لنا عليه مثال شاهد من عهد مسنيسا.

6

إن أهم ما كان يشغل بال الملوك هو الحصول على الموارد المالية. ولم يكن ثقل الضرائب ينزل بالتساوي على سكان الدولة، بحيث كانت الضرائب منتظمة بالمدن وبالأرياف غير الحصينة، وفي غيرها كانت محلا للتغييرات التي تخضع لقوة الإكراه التي يستطيع الملك استعمالها. فبعض المجموعات معفاة منها لمدة أو بصفة نهائية، وبعض المدن تنال هذا الامتياز، ويحتمل أيضا أن بعض القبائل التي عليها واجبات

عسكرية خاصة، أو التي لا يطلب منها شيء إذ لا يستطاع الحصول منها على شيء.

والضرائب على ما تنتجه الأرض تؤدى عينا لاشك، الأمر الذي يلائم المؤدين كثيرا. وهذا ما يفسر المقادير الكبيرة من القمح والشعير التي هي في حوزة الملوك، والتي يدفعونها للرومانيين أو يكدسونها في مأمن. ويخبرنا بلوتارك Plutarque أن قيصر بعدما حول مملكة يوبا الأول إلى ولاية، أبدى اغتباطه أمام الشعب الروماني بأنه أعطى للجمهورية أرضا تحصل منها سنويا على 1200000 بُواصُو من القمح (أي 105000 هكتولتر). فيمكن الافتراض أن هذا أو ما يقاربه هو مقدار القمح الذي كان يناله يوبا من الضريبة العينية في القسم من أراضيه الذي صار «آفريقيا الجديدة» Africa Nova. فهل كان ذلك في عهد الملوك دَخْلا سنويا، هو نفسه كل سنة ؟ هل كان على النقيض من ذلك حصة نسبية تؤخذ من المحصول ؟ أي نصيبيا حدد في عشر الإنتاج، أو حدد في مقدار آخر كالخمس أو الربع مثلا ؟ إننا نجهل ذلك كله. ففي الافتراض الأول نكون على صواب في الاعتقاد بأن الضريبة لم تكن فادحة نظرا لأنها لا تتغير. وفي الحالة الأخرى إذا كانت المحاصيل سيئة فإنه لا يترك شيئا للمزارعين أو يكاد لا يترك شيئا.

وكانت هناك لاشك الضرائب على الماشية، التي هي دائما أهم ثروة عند الأهالي. ونحن نقرأ في سترابون[145]. أن الملوك كانوا يأمرون بالقيام بإحصاء المهار كل سنة. فهذه العملية يمكن أن تزودهم بمعلومات نافعة في الناحية العسكرية، ولكن لابد أنها كانت ذات طابع مالي على الخصوص. وعلى غرار ما كان معمولا به في عهد السيطرة التركية على الجزائر، فإن الضريبة لم تكن تجبى ماليا، وإنما تؤدى عينا، مثلاً ثورٌ واحد عن ثلاثين ثورا، وكبش واحد عن مائة كبش. أما

الخيول فلعلها كانت منها مورد لتزويد الإسطبلات الملكية. غير أن هذه الطريقة في الأداء إذا كانت مقبولة في تسديد ما يجب على مجموعة من الرعاة المتضامنين فيما بينهم، أو على مربٍّ كبير للماشية، فإن الجابي لا يمكنه تطبيقها على من كانوا لا يملكون شخصيا سوى عدد ضئيل من رؤوس الماشية.

وفي المدن كانت الضرائب تؤدى ماليا. ويمكن الافتراض بأنها كانت على الخصوص عبارة عن ضرائب على الرؤوس (ضرائب شخصية Capitation)، ويتفاوت ارتفاع مقدارها بحسب ثروة المؤدين.

وليس محتملا أن يكون الملك اتخذ مستخْدَمين متعددين، مكلفين بتفاصيل العمليات المالية. لأن هذه المهمة كانت لاشك تقع على عاتق السلط المحلية بالمدن والقبائل والقرى. ثم إن الإحصاءات المتفاوتة في دقتها، والتي تقوم بها هذه السلطة المحلية، وتخضع لاشك لرقابة ما، كانت تمكن المساعدين الملكيين Secrétaires royaux من تحديد مقدرة كل مجموعة فيما يخص الضريبة. على هذه الأسس كان يجري داخل مختلف المجموعات توزيع القدر الكلي الذي كان الملك بحاجة إليه. وكان على رؤساء المجموعات أن ينجزوا التوزيع المحلي، وأن يستلموا المقادير بالوسائل التي يفضلونها. وكانوا هم الذين يسلمون المبالغ التي في مسؤوليتهم. ومن المسلم به أن الرعايا كانوا يأبون التسديد، خصوصا وأنهم يعلمون جيدا أن هذه العمليات تعود على الجباة عادة بأرباح غير مشروعة، بل غالبا ما كان رفض الأداء قطعيا وعاما. ويكون لابد من تدخل الملك، فيفعل ما كان القرطاجيون يفعلونه في ولايتهم، وما سيفعله بعد ذلك الأتراك بالجزائر والسلاطين بالمغرب. وهو أن يقوم طابور من الجنود النظاميين، وقد تصحبهم أحيانا بعض القبائل

المجاورة التي يجذبها التكالب على الغنيمة، فيقتحموا أرض الممتنعين عن الأداء ويتكلفوا باستلام الضريبة، أو يتكفلوا على الأصح بعملية للسلب هي أكثر فائدة، ويحتفظوا لأنفسهم بقسم وافر.

على أن بعض القبائل يمكن أن تجد نفسها أمام الملك في وضع وسط بين القبائل التي بلغت من القوة حدا يجعلها ترفض كل ضريبة، وبين القبائل غير القادرة على أن ترفض لأمد طويل مطالب تعزز بالسلاح. وحيث إن المخاطرة متساوية تقريبا، فيحصل الاتفاق على تلافيها، ويرضى الملك بنيل مبلغ تطوعي، أي «بهدية» تهديها له القبيلة من حين لآخر. وهذا تراض لا يزال معمولا به في المغرب، وهو يرجع لزمن بعيد. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع هذا النظام المالي البدائي الذي أرجعناه لعهد الأسر النوميدية والمورية. ولم يكن هذا من عندنا لأن براهين واضحة تسوغ لنا ذلك، وإنما لأن الأشياء ما كانت لتجري آنذاك خلافا لما جرت عليه في عهود معروفة جدا في تاريخ بلاد البربر.

وليس لدينا معلومات عن الفوائد التي كان الملوك يجنونها من الجمارك ومن الرعي، ولا عن الضرائب التي يحتمل أنهم كانوا يتقاضونها من الأسواق. ونجهل كذلك ما يتعلق بالمداخيل من أملاك الدولة. ولايبدو أن استغلال المعادن كان نشيطا، بل إننا لا ندري هل خص الملوك أنفسهم بملكية المعادن، وهل كانوا على النقيض من ذلك يتقاضون بعض الواجبات. وفي سمْيليثو Smilithu موقع اقتطاع الرخام النوميدي المشهور، لابد أن المنجم قد كان ملكا للملك.

وأيا ما كانت الوسائل التي كان هؤلاء الأمراء يستخدمونها للحصول على المال، فالمتأكد هو أن المال لم يعوزهم، بحيث أن مسنيسا ومسيبْسا قد تركا خزائن مليئة جدا. وبالتأكيد فإن أهم خزين مالي هو الذي كان يوجد بعاصمتهما سِرْتا Cirta (قسنطينة). وفي القرن

الموالي، فإن يوبا الأول جمع في زاما Zama عاصمته مبالغ طائلة. غير أن كنوزا ملكية أخرى قد ذكر وجودها بمدن أخرى، هي سوثول Suthul، وتهالا Thala، وكَبْسا Capsa. ولربما أنها كانت صناديق جمعت بها مداخيل المناطق التي قد تكون هذه المدن هي عواصمها المالية ومن ناحية أخرى كان يؤخذ منها المال للأداءات التي يلزم أن تنفق في نفس هذه المناطق.

لا أحد يجهل أن يوغرْطة استطاع أن يتداول مبالغ طائلة جدا لشراء بعض الضمائر في روما. وبعد ذلك فإن سخاء الملوك الأفارقة لم يكن غريبا عن المودات النافعة التي أوجدوها لدى الارستقراطية في الجمهورية العظيمة. ويوبا كان قد بعثه أبوه الملك هيمْبسال للتفاوض في بعض الشؤون، فكانت أمواله حسب قول سيسرون Cicéron كثيفة كثافة شعْره. وعندما عرض يوغرطة استسلامه، ألزمه متلوس Métellus بأن يؤدي حالا 200.000 ليبرة فضية.

ومع ذلك فلدينا كل المبررات للاعتقاد بأن جميع الفضة تقريبا التي تروج في إفريقيا الأهلية، والتي يمر قسم وافر منها بالخزينات الملكية، قد كانت مستجلبة من الخارج، بحيث لو كان ملوك البلاد قد استغلوا مناجم للمعادن الثمينة، لما اكتفوا بأن يجعلوها سبائك، بل لكانوا قد سكوا بكثرة نقودا من الذهب والفضة كما سكوا عملات البرنز. لكن شيئا من ذلك لم يحدث، فالكنز المتكون من 237 قطعة فضية المختفي في سِرتا سنة 79 ق.م أو بعد ذلك بقليل، والذي اكتشف في أيامنا[146]، اشتمل على نقود أثينا، وقرطاجة، ومرسيليا، وأسبانيا واشتمل خصوصا على دوانق Deniers الجمهورية الرومانية، ولكن ليس فيه قطعة نقدية واحدة مسكوكة في نوميديا. مع العلم أننا هنا في عاصمة هذه

المنطقة، أي في مكان يجب فيه أكثر من أي مكان غيره التداول بالعملات الفضية النوميدية لو كان التعامل بها شائعا.

من بين عملات الممالك الأهلية التي يمكن التأريخ لها، فإن أقدمها هي التي أصدرها سيفَكْس في نهاية القرن الثالث، وهي من البرنز وعليها اسم الملك بالبونيقية. أما ورْمينا Vermina ابن سيفَكْس، الذي كان ملكاً إما في آن واحد مع أبيه أو بعده، فلدينا منه نقود فضية، وإن كانت قليلة العدد جدا. فإذا كانت هذه النقود معاصرة لحكم سيفَكْس، فيصح الافتراض بأن هذا الملك قد سك هو أيضا نقودا من الفضة، ولم يصلنا منها ولو قطعة واحدة.

غالبا ما نعثر – على الخصوص بالجزائر وبتونس - على نقود عليها صورة للملك له لحية، وعلى رأسه تاج أو إكليل من الغار. وهذه النقود إما من البرنز، وإما من الرصاص. والقطع الرصاصية كثيرة العدد إلى حد أنه يجب اعتبارها عملة ذات سعر قانوني، لا صنعا زائفا تقليدا لقطع فضية، مع العلم أنه لم يقع العثور على أية قطعة مماثلة لها من الفضة.

هذه الصور، برغم ما يلوح عليها من اختلافات واضحة سببها عدم خبرة الصناع، فإنها تمثل نفس الشخص وهو مسنيسا، كما يدل على ذلك قطعة أو قطعتان كتب عليهما اسمه ولقبه الملكي. ذلك أن صورة الملك الكبير احتفظ بها الذين خلفوه من أبنائه وحفدته الذين لم يعوضوها بصورهم. وبالفعل فإن نقودا تحمل هذا الرأس، يبدوا أنها تؤرخ بحُكم مسيْسا، وكُلوسا، وآذَرْبَعْل، وربما حتى كوْضا، ويبدو أن هؤلاء الامراء اكتفوا بأن يكتبوا عليها الحرفين الأول والأخير من اسمهم : م - ن (M-N)، گ - ن (G-N)، آ - ل (A-L)[147] ولا نعرف إلى حد أيامنا هذه

مثلا لها باسم مَسْتَنَبَعْل Mastanabal ولا باسم هيمْبسال ابن مسيبسا ولا باسم يوغَرْطة.

كل هذه المسكوكات لمملكة الماسيسيليين ومملكة المسيليين قد احتذت المثال القرطاجي، إذ يبدو أن النسق القياسي هو نفسه. والفرس الذي على النقود القرطاجية يظهر على النقود النوميدية. كما أن الكتابة هي بالبونيقية. على أن بعض النقود المسكوكة بإفريقيا في القرن الثاني وحتى في القرن الأول، وليس عليها الصورة الملكية، لا يستحيل أن تكون قد أصدرها ملوك نوميديون. غير أن هذا الافتراض لا يقدم إلا مع كثير من التحفظ. وهي قطع من البرنز يظهر على وجه منها رأس شاب قوي بين سنبلتين من القمح، وعلى الوجه الآخر يظهر فرس يعدو. ولربما كذلك القطع البرنزية والفضية التي عليها رأس لمعبودة مُغطّى في العادة بريش أحد الطيور، وعلى الوجه الآخر ثلاث سنابل. وتصحب هذه الرسوم حروف بونيقية هي اختصار لاسم مبهم. ولقد سبق أن أشرنا لعملات الفضة والبرنز[5] التي عليها كتابة ليبون Libyon، غالبا مع حرف بونيقي أيضا، والتي لابد أنها سُكت بين سرنيكا (مقاطعة برْقة) الإغريقية وإفريقيا القرطاجية. وعنها يمكن أن نتساءل : ألا يرجع تاريخها للعهد الذي استولى فيه مسنيسا على منطقة الأمبوريات (المتاجر) بالسدرتين؟

في القرن الأول قبل الميلاد تولى المُلك في نوميديا هيمْبسال Hiempsal وبعده ابنه يوبا (الأول). وهناك نقود برنزية وفضية نقش عليها حرف «هـ» (H). فعزيت إلى هيمْبسال، وفي ذلك كثير من الشك. لأن القطع الفضية تنتمي إلى النسق القياسي الروماني. وهناك من يوبا الأول قطع برنزية وفضية (الفضية تنتمي إلى النسق الروماني) عليها اسم الملك، والبرنزية تحمل كتابة باللغة الفينيقية بالخط النيوبونيقي،

بينما الدوانق Deniers والخميسات Quinaires الفضية التي تظهر على أكثرها صورة الملك، فهي بلغتين وكتابتها باللاتانية والنيوبونيقية. ولا يبدو مستحيلا أن يكون يوبا سك نقودا ذهبية، عوض عن صورته فيها بصورة نصفية Buste تمثل النصر ذا الأجنحة. هذه النقود ليس عليها كتابة، لكن الصورة التي على الوجه والتي على الظهر (أي الفرس العادي) نجدها من جديد على الخميسات Quinaires التي أصدرها هذا الملك دون شك.

في سنة 62 ق.م كانت تقع بين مملكة هيمْبسال وموريطانيا أراض خاضعة للأمير الذي سماه سيسْرون Cicéron باسم[149] مسْتانسوسْسْ Mastanesosus. فلربما يكون من الأليق أن تنسب إليه قطع البرنز التي تحمل الكتابة النيوبونيقية : MSTNCN HMMLKT أي (مسْتنيسان ؟ Mastaneçan الذات الملكية).

وبالنسبة لموريطانيا فلا نعرف أية قطعة نقدية ملكية يمكن أن تنسب بالتأكيد الى ملوك ما قبل بوكوس Bocchus وبوكود Bogud المعاصرين لقيصر. فمن بوكوس لدينا قطع برنزية عليها اسمه، وعلى الكثير منها لقبه كذلك بالخط النيوبونيقي. والكتابة التي على الظهر تعرفنا أن قسما على الأقل من هذه القطع قد وقع سكه في مدينتي سكَا Sigga وشماش Shemesh (أي لكْسوس حسب رأينا). أما بوكود فقد ترك نقودا فضية من النسق القياسي الروماني ونقودا برنزية، والكل يحمل كتابة لاتانية هي ركْس بوكوت Rex Bogut. وسنتحدث من بعد عن مسكوكات يوبا الثاني وزوجته كليوبترا صليني وابنهما بْطْلمي، الذين عاصروا الأباطرة الرومانيين الأولين. فاللغة البونيقية لم تعد تظهر إلا على قطع برنزية سكها يوبا في شماش، وتحمل فوق ذلك اسم الملك

باللاتانية، وفي جميع ما عداها فالكتابة إما باللاتانية أو بالإغريقية، أما القطع الفضية فهي دوانق من النسق القياسي الروماني.

7

من بين الملوك الأهالي. كان سيفكْس Syphax أول من يبرز في التاريخ. فقد كان لحقبة من الزمان سيدا على جميع المنطقة المعروفة اليوم باسم الجزائر، وكان له عاصمتان في آن واحد. هما سكّا Sigga في القاصية الغربية لمنطقة وهْران. وسيرْتا Cirta وهي قسنطينة اليوم. وتزوج فتاة من أشرف الأسر النبيلة القرطاجية. ورأى رومة وقرطاجة تخطبان ودّه. وفي الصراع الحاسم بين الجمهوريتين أمكنه أن يعتقد أن الحظ سيواتي الجانب الذي يرمي هو فيه بثقله. وتطلّع إلى أن يساوي نفسه بملوك المشرق الإغريقي فوضع مثلهم الإكليل على جبهته. وجعل صورته على النقود التي لاشك أنه كان أول من سكّها في نوميديا. غير أن حكمه لم يكن سوى صراع طويل المدى ضد جيرانه، وضد رعاياه أيضا على ما يحتمل. وهذا غير الحروب التي خاضها ضد قرطاجة ورومة. وقد انهارت مملكته انهيارا كليا حتى إن مسنيسا لم يكن عليه إلا أن يتقدم أمام سيرْتا ليجعلها تفتح الأبواب. كما أن جل أقسام المملكة الماسيسيلية استسلمت للمنتصرين دون مقاومة.

أما مسنيسا فقد عمل عملا كتب له أن يدوم أكثر من غيره. وكان هو الأكبر من بين أكابر ملوك بلاد البربر، مثل المرابطي يوسف بن تاشْفين، والموحّدي عبد المومن والشريف المغربي مولاي إسماعيل الذين أشبهوه من عدة نواح. فقد مد أراضيه من موريطانيا إلى سيرْنيكا، وجمع مقادير طائلة جدا من المال، وجهز جيوشا عديدة ومدربة، وعمم

الزراعة ونمى الحياة الحضرية، حتى أن الإغريق والرومانيين اعترفوا بأنه ملك حقيقي. وكثير من رعاياه، وربما أغلبيتهم نسوا كراهيتهم الطبيعية للملكية، فالتقت المحبة بالخوف لتربطهم به. وقد تخلدت عبادته خلال العصور.

غير أن المملكة التي أسسها ودعمها بساعده القوي، لم ينظمها مطلقا. ورغما عن جهلنا الكبير بعهد حكمه المديد، وبغض النظر عن علاقاته مع الرومانيين والقرطاجيين، فإننا نعلم أنه قد حارب الثوار، وقبل وفاته بسنتين لاغير، فإن ستة آلاف فارس يقودهم بعض الخونة قد تخلّوا عن معسكره ووالوا معسكر الأعداء.

وبعد وفاته، كان في الإمكان أن تتفكك مملكة نوميديا بسرعة. على غرار الكثير من الممالك البربرية. إذ خلف مسنيسًا في الحكم ملوك ضعاف أوهنتهم حياة الملذات، وحفيده كوْضا Gauda الذي حل في الملك محل يوغرطة بإنعام من الرومانيين، قد كان حسب رواية سالُسْت، ضعيف الجسم والعقل، ولكنه كان كثير التعلق بالتشريفات التي كان أهلا لها. وقد استطاع أن يسلم مملكته لابنه هيمْبسال. وآخر ذرية مسنيسًا كان هو بْطلمي ملك موريطانيا، ويبدو أنه كان مُنحلاً، ولعل رعاياه كانوا قد يزيحونه عن العرش لو لم يقم بهذه المهمة الإمبراطور كاليكولا Caligula. لكن، وعلى العموم، فإن الأمراء الذين حكموا بنوميديا وبموريطانيا قد أبدوا الرغبة في الحفاظ على نفوذهم، كما أنهم حسب كفاءتهم المختلفة قد أدوا على الأقل قسما من الواجبات المنوطة بهم. وقد كان يوغرطة رجلا بارعا مع مساوئ كبيرة ومحاسن كبيرة. واستطاع أن يكسب الشهرة الودية لدى النوميديين وحتى لدى جيرانه الموريين. فالأسرة التي أعطاها مسنيسًا هذه المفاخر الكثيرة، قد مكثت في عهود من خَلَفوه سيِّدة على نوميديا طيلة قرن، وسادت لمدة تجاوزت

الستين سنة موريطانيا التي وهبها لها الرومانيون، والتي حلت بها محل أسرة حاكمة أخرى يبدو أنها – هي الأخرى – كان لها وجود طويل قبل أن تضمحل. وعلى غرار مسنيسا، فإن خلفاء قد نالوا بعد موتهم تكريمات التأليه التي لنا عليها براهين من عهد السيطرة الرومانية.

لكن إذا كانت الأسر الحاكمة قد دامت، فإن الممالك لم تترسخ. إذ الخطوط الضئيلة من النور الذي يخرق الظلمات التي تغطي تاريخها تكشف لنا الفوضى التي كانت الممالك مرتعا لها.

ففي الأسرة الملكية بنوميديا نجد الأضغان العنيدة، حيث يوغرطة يغتال أحد أخوته بالتبني وهو هيمْبسال، ويقضي على الآخر وهو أذْربَعْل بالتنكيل، وينحي عنه بالاغتيال ابن عمه مسيڤا Massiva الذي لجأ إلى روما حيث قام ضده ينافسه. وكوْضا يتخلى عن أخيه يوغْرطة ويجعل نفسه في خدمة الرومانيين.

إن التقسيمات والاقتطاعات تضعف الملكية ولا تجعل حدا للمنافسات. فبعد مسبْسا انقسمت مملكته إلى ثلاث ممالك، ثم إلى اثنتين. غير أن يوغرطة يريد استعادة الوحدة لصالحه وينجح في مسعاه بالاغتيال والحرب. وبعد ثلاثين سنة تندلع حرب أخرى في نوميديا بين هيمْبسال الذي خلف أباه على الملك وبين من يدعى باسم هيرْباس Hiarbas الذي نكاد نجهله، ثم نلاحظ في 62 ق.م أن مملكة مسْتانسوسْس Mastanesosus توجد بقسم من نوميديا، هي التي امتلكها جميعها كل من مسنيسا ومسبْسا ويوغرْطة. وفي سنة 47 نجد مسنيسّا آخر يحكم غربي سرْتا، وأنه حقيقة حليف للملك النوميدي الآخر يوبا الأول. وقد كانت موريطانيا كلها في عهد يوغرْطة ملكاً لبوكوس. كما أن أميرا يدعى أسْكاليس Ascalis كان في سنة 81 أميرا

على طنجة أهم المدن بالبلاد. وفي 49 نجد موريطانيا مقسمة بين ملكين، هما بوكوس وبوكود، ويستمر هذا التقسيم موجودا إلى اليوم الذي استولى فيه بوكوس على أراضي بوكود.

إن من «أصدقاء» الملك، وبعض ذوي قرابته، وبعض كبار الرؤساء من يتآمرون ويخونون، فيعاقبون بأشد أنواع العذاب إذا قبض عليهم. فقد حدث أثناء الحرب البونيقية الثالثة أن بثوياس Bithyas تخلى عن گُلوسا Gulussa وفر مع ثمانمائة فارس إلى القرطاجيين. كما أن بومِلْكار Bomilcar ونَبْدلْسا Nabdalsa اللذَيْن هما من أهم مساعدي يوغرطة قد نظما مؤامرة لتسليمه إلى الرومانيين. وغيرهما كانوا على أتم الاستعداد لبيعه. فكان الملك يعيش في الحيرة والخوف، ويأمر بقتل بعض المجرمين، ولكنه لا يجرؤ على الأمر بقتلهم جميعا. خوفا من أن عمليات الإعدام هذه تطلق العنان للفتن. وكذلك فإن الأمير الموري مكُودلْسا Magudulsa كان واحدا ممن يأتمنهم بوكوس على أسراره، ولكننا لا ندري لأي سبب اضطر للفرار إلى رومة. فطالب بوكوس بتسليمه إليه ورمى به إلى فيل داسه. كما أن شخصا يدعى مسِنْثا Masintha (أو على الأصح مسنيسا)، وكان لهيمْبسال عليه بعض المآخذ، ولعله كان من ذوي قرابته، قد فر هو أيضا إلى رومة فجاء يسترده يوبا ابن هيمبسال.

والرعايا يثورون. من ذلك إن مدينة لِبْتيس الكبرى (لَبْدة) انتهزت فرصة الحرب التي كان يوغرطة يخوضها ضد الرومانيين، وانفصلت عنه. وأثناء حرب قيصر ضد البومْبيين Pompéiens وضد يوبا الأول، قام سكان ثابينا Thabena (ثيناي Thaenae) بتذبيح الحامية الملكية ووهبوا أنفسهم للديكتاتور. وأهل زاما Zama عاصمة يوبا منعوه من الدخول إلى المدينة بعد اندحاره في ثَبْسوس Thapsus، واستدعوا قيصر. وكذلك

طنجة عاصمة الملك بوگود فإنها أعلنت خلعه بينما كان يخوض المعارك في إسبانيا. كما أن قبائل وعشائر نوميدية تحافظ على استقلالها أو تسترجعه. ويحتمل أنه على غرار ما كان بالمغرب أمس، قد كانت البلاد قسمين فهناك قسم خاضع وقسم غير خاضع، وأن القسمين معا كانا يتسعان أو يضيقان حسب قوة الملك أو ضعفه.

في عهد يوغَرْطة كان الجيتوليون Gétules الذين يعيشون بالسهوب في جنوب نوميديا، منهم المستقلون، ومنهم رعايا الملك الذي كان استطاع تجنيد العديد منهم، في حين أن جيتوليين آخرين ذهبوا للعمل في الجيش الروماني، وكانوا لِموريْوس Maurius نعم المساعدين. وقد قام يوبا الأول بالجنوب بحملة ضد الثوار، ودامت الحملة شهورا طويلة. وحين كان بعد ذلك مشتغلا بالحرب ضد قيصر، ثار عليه بعض الجيتوليين فاضطر - حماية لمملكته - إلى أن يجرد عليهم قسما من جيوشه. وفي موريطانيا لم يعد الجيتوليون مسالمين. وقد رأيناهم يستولون على الأراضي التي كانت من قبل ملكا لقبائل الموريين والماسيسيليين. وعلى غرار أبيه كان يوبا الثاني له من يحاربهم من الجيتوليين.

وهناك مرة أخرى الخصومات والحروب بين الملوك الجيران. كعهد سيفَكْس ومسينيسا. فبوكوس صهر يوغرطة، هو في حالة خصام معه، وإذا صار له حليفا من بعد، فإنه سيخونه ويسلمه للرومانيين. وفي القرن الأول كانت الحروب في إفريقيا أكثر من مرة فصولا من الصراع الذي كان يمزق الجمهورية الرومانية، بحيث إذا أعلم أحد الملوك موالاته لأحد الجانبين، وجد جاره في هذا فرصة حسنة للانقضاض عليه وإعلان موالاته للجانب الآخر. من ذلك أن بوكود ابن بوكوس الكبير يباغث من

الخلف هيَرْباس Hiarbas الذي تحالف مع المَريوسيين Marianistes الذين يحاربهم بومْبي Pompée وهيمْبسال. ولما انضمَ يوبا الأول لصف البومبيين، فإن بوكوس الصغير انضمَ لجانب قيصر وزحف على نوميديا. وبعد ثمان سنوات فبوكوس الصغير هذا يستولي بإذن من أكْتاف Octave على مملكة بوكود الذي هو تبعٌ لأنْطوان. بل يتحارب الجيران فيما بينهم حتى ولو انعدم سبب التدخل في الحروب الرومانية، فَستْيوس Sittius القائد المرتزق استطاع سنين طويلة أن يزاول مهنته المرِبحة بالتنقل من هذا المكان لذلك.

ثم إن هذه الممالك التي يدور حول وجودها هذا الصراع العنيف، تنهار فجأة إذا ذهبت إحدى الكوارث بسيِّدها. فبعد اندحار أذْرَبَعْل وعقب اندحار يوبا الأول، وكذلك بعد اندحار سيفكْس، وكذلك لما زحف بوكوس على مملكة بوكود المتغيب، فإن رعايا الملك المغلوب استسلمت جموعهم للغالب. فالدول في نظر الأهالي تجمعات غير ثابتة، وليست أوطانا.

إن تاريخ نوميديا وموريطانيا قبل السيطرة الرومانية قد كان على العموم مماثلا جدا لتاريخ إفريقيا البربرية في العصور الوسطى. فهناك نفس الارتباك، ونفس النهاية الرتيبة والكريهة ونفس المؤامرات، والاغتيالات، والفتن والحروب والانهيارات، ونفس الحماة المتكونة من الوحل والدم، ونفس العجز من جانب السادة عن تنظيم دواليب الآلة الحكومية، ومن جانب الرعايا نفس العجز عن أن يفهموا أن قوة الدولة يتولد عنها نماء الأفراد، وأن القبول المخلص للطاعات هو في نهاية الأمر لصالح الجميع، أي لأشد الناس أنانية ولغيرهم.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الأول

تربية الماشية والزراعة

1

حصل السكان الأولون لبلاد البربر بالصيد على قسم كبير جدا من طعامهم، لكن تربية الماشية والزراعة لم تدفعا بذريتهم إلى التخلي عن هذه الوسيلة للعيش. فالصيد كان موجودا بكثرة، ولهذا كان بمستطاع الرعاة أن يوفروا قطعانهم، وبمستطاع المزارعين أن يضيفوا اللحم إلى طعامهم النباتي الذي يحصلون عليه بعملهم.

وهناك سبب آخر يجعل الصيد ضروريا، فالوحوش كانت كثيرة إلى حد أن صارت خطرا. فقد كانت تهاجم الناس، وتهاجم الماشية على الخصوص، وتجعل تربية الماشية في بعض الجهات مستحيلا تقريبا. فكان لابد من حرب لا هوادة فيها لإبعاد هؤلاء الجيران الخطرين، أو للتقليل من عددهم. وكان هذا العمل يفرض المكابدة والجرأة والبراعة. وقد تعاطى الأفارقة للصيد بفرح بل بغبطة. وكانت العافية وقوة البدن

تجدان في تعاطي الصيد ما يقويهما في الهواء الطلق. وكانت الكبرياء، وهي شعور حي جدا عند هؤلاء الرجال، تجد فرصا للارتياح في الصيد باستعمال الجرأة او الحيل الخادعة.

وكان الصيد وسيلة لإمداد الأجنبي بالمواد وبالحيوانات التي ينتظر الحصول عليها من إفريقيا. فنُيوب الفِيَلة التي يضيعها الأهالي في أعمال تافهة، كانت تزوّد القرطاجيين والإغريق والرومانيين بالعاج الذي يستعملونه في منتجاتهم الفنية وفي آثارهم. وبيض النعام، وربما حتى ريشه كان مطلوبا. وكذلك الامر بالنسبة لفراء الأسود والنمور. والقردة كانت مطلوبة لأنها تؤنس فتصير أليفا في البيوت الأرستقراطية.

ولكن فُرْجات الملعب الروماني على الخصوص هي التي كان الصيادون النوميديون والموريون يزودونها[150]. فمنذ بداية القرن الثاني ق.م. ظهر في هذه الملاعب الاسود والنمور والفيلة والنعامات. والدّببة (التي على غرار هذه الحيوانات الاخرى لابد أنها كانت جميعا من إفريقيا او على الاقل كان البعض منها إفريقيا). وكان قرار قديم لمجلس الشيوخ يمنع دخول الأفريكاني Africanae إلى إيطاليا. (والافريكاني هي الإفريقيات ويقصد بها النمور على الخصوص). فقرر الشعب أنه لا يطبق على الحيوانات المخصصة للألعاب العامة. وفي نهاية نفس القرن شوهدت الأسود لاول مرة تتصارع في الملعب حسب قول پْلين الشيخ Pline l'Ancien. ثم جاء دور الفيلة بعد بضع سنين. وفي 79 أُجْرِي الصراع بين الفيلة والثيران. كما أن سولاّ Sylla أقام سنة 93 وهو بريطور Préteur فُرْجَةَ بمائة أسد يهاجمها رجال أفارقة يحملون الرماح. وكل من الوحوش والناس قد بعثه إليه صديقه بوكوس ملك موريطانيا. وشاهد الشعب في 61 مائة دُبّ من نوميديا، وهي تواجه مثل عددها من

الصيادين الأثيوبيين. وشاهد الشعب كذلك 150 نَمِراً سنة 58. وفي الاحتفالات التي أقامها بومْبي Pompée سنة 55 حين دشن مسرحه، أحضرت لهذه الاحتفالات 410 من النمور كما أحضر لها 500 أو 600 من الأسود ونحوا من 20 فيلا كانت تصارع الجيتوليين حملة الرماح. وفي حفلات تمجيد قيصر سنة 46 ظهر بالملعب 400 من الأسود وقطيعان من الفيلة، بكل قطيع 20 فيلا. وكان القطيع الأول يواجه خصوما عددهم 500 من المشاة، بينما كانت فيلة القطيع الثاني تحمل بروجاً بها محاربون، وكانت تواجه خصوما عددهم 500 من المشاة ومثل عددهم من الفرسان.

وكانت النزوات أيضا تستعمل فيها حيوانات إفريقيا، من ذلك أن بومْبي في حفلات انتصاره الإفريقي كان يشد الفيلة إلى عربته، وكان مارك أنطوان المُثالث Marc Antoine le Triumvir يقرن لعربته الأسود.

ومن المحتمل أن هذه الحيوانات الغريبة المستجلبة، كان اقتناؤها يتم أحيانا بواسطة التجار أو الملتزمين الذين يحصلون على هذه البضاعة الثمينة وينقلونها. ولكن كبار الحكام الذين يقيمون حفلات الألعاب والفرجات، كانوا على وجه العموم يتقدمون إلى ملوك البلاد، وهؤلاء يسارعون لتلبية رغباتهم.

وكانت أساليب الصيد تختلف طبعا بحسب قوة الحيوانات وبحسب ما يراد استعمالها فيه، كأن تقتل في نفس المكان، أو تؤخذ حية. وكانت الفيلة تُحاش إلى خنادق مغطاة بالغصون فتقع فيها. وقد تُحاش إلى مضايق ليس لها منفذ. وتستعمل أيضا الخنادق لقنص الوحوش المفترسة. وبداخل هذه الهوات، وأيضا حتى بداخل الشباك التي تحاش إليها الحيوانات، كان يوضع قفص يعلق فيه طعم مُغرٍ كجدْي أو قطعة لحم مُنْتن، وينزل باب القفص لينسد مثل باب مصيدة الفئران.

كان الأفارقة يصيدون وهم على ظهور خيولهم، ويجتهدون ليلحقوا أو ليحاصروا الحيوانات التي تفر أمامهم كالأيايل، والحُمُر الوحشية، والظباء، والنعامات، والتعالب، وربما حتى الأرانب، ثم يقتلونها بطعنة رمح أو يصيدونها بالأحابيل. لكن الوحوش الضارية والخنازير والدببَة التي تواجه المهاجمين ولا تصعقها الرماح، فكان لابد من مصارعتها جسما لجسم بالحربة والمزراق والسكّين.

ولم يكن استخدام كلاب الصيد منتشرا بكل مكان. لكن حيث أن هذه الحيوانات لم تكن مجهولة منذ عهود ما قبل التاريخ، وبما أنها كانت مستخدمة جدا في العهد الروماني، فيمكن الاعتقاد بأن معاصري الملوك النوميديين والموريين لم يأنفوا من استخدام هذه الحيوانات المساعدة. غير أن الكلب في العهود القديمة، كما هو الحال اليوم كان يستخدم في حراسة المنازل على الخصوص، وعند بعض الشعوب ربما استعمل للطعام.

2

يتحدث سالُسْت باختصار، فيذكر أن تربة إفريقيا هي «حسنة للماشية»[151]، وذلك صحيح، وإن كان المناخ تنشأ عنه لتربية الماشية مصاعب كبيرة. وقد كتب پوليب في القرن الثاني ق.م قائلا[152] «في هذه المنطقة، كثرة الخيول والثيران والكباش وكذلك الماعز تبلغ إلى حد أني لا أظن أن بالإمكان العثور على مثل ذلك في جميع ما تبقى من الأرض». ويضيف قائلا : «وسبب ذلك هو أن الكثير من قبائل ليبيا لا يتمتعون بمنتجات الفلاحة، وإنما يعيشون من مواشيهم ومع مواشيهم».

وكانت القطعان، حسب قول تيت ليف Tite-Live، هي التي تكوّن الثروة عند النوميديين[153]، وهو نفس ما يقوله بُمْبونْيوس ميلاً عن الأهالي الذين يعيشون بعيدا عن الساحل. ولم يكن هيرودوت في القرن الخامس يعرف سوى الرعاة بين مصر وسَدْرة الصغرى. وبعد ذلك أطلق الإغريق اسم نوماديس νομάδες على العشائر المنتشرة على الأرض من منطقة التراب القرطاجي حتى المحيط. ولربما أن هذا كان - حسب رأينا - [154] تغييرا لاسم أهلي، تغييرا من قبيل التلاعب بالألفاظ. ولكن سواء صح هذا الافتراض أو لم يصح، فإن استعمال لفظ «نوماديس» برهان على أن هذه الشعوب قد كانت شعوب رعاة في نظر الإغريق. ويحتمل مع ذلك أن التسمية لما قُبلت أحدثت مبالغة في أهمية تربية الماشية عند الأفارقة، ولو أنها أهمية عظيمة في الواقع.

وكانوا يتعاطونها منذ أمد بعيد جدا. وهذه مواقع العهد النيوليتي تضم عظام الكباش والماعز والثيران. وتقدم لنا الرسوم الصخرية صورا لهذه الحيوانات المؤنسة. وقد كان الفرس في خدمة الإنسان بليبيا منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. ولا يوجد أي برهان على أن المستوطنين الذين قدموا من فينيقيا، ولا على أن القرطاجيين قد ساهموا مساهمة كبيرة في نشر تربية الماشية بين الأهالي، ولا على أن هؤلاء قد أخذوا عن أولئك دروسا نافعة فيما يقدّم للماشية من عناية أو في تحسين سلالاتها.

واتساع الزراعة، الذي قلل من سعة المساحات التي كانت رهن إشارة الرعاة، لم يمنع تربية الماشية من أن تبقى والحالة هذه الشاغل لأكبر عدد من الأفارقة. يقول سالُسْت[155] «إن النوميديين يعتنون بتعهد قطعانهم أكثر مما يعتنون بزراعة الأرض». وبالطبع كانت هذه هي الحال

في المناطق ذات التربة الفقيرة جدا، وحيث الأمطار أقل من أن تسمح بالزراعة. ومع ذلك فقد وجد أيضا أقواما من الرعاة في الجهات التي قد تصلح جيدا لزراعة الحبوب. وقد انتبه لذلك سترابون فقال :[156] «...والموريون، مع أنهم يسكنون منطقة خصبة على العموم فإن جلّهم يستمر على معيشة الرعاة». وقال مثل ذلك عن النومديين.

لقد سبق أن ذكرنا لماذا يتمسك الكثير من الأهالي بنمط الحياة التي عرفها آباؤهم[157]. ولاشك أن ذلك كان على الخصوص بسبب الجمود والكسل. فهؤلاء الرجال العاجزون عن أن يلزموا أنفسهم بالعمل الشاق، والذين يغفلون عن أداء هذا الثمن ليستزيدوا قليلا من رغد العيش. هؤلاء الرجال – كبعض الشعوب الأخرى القديمة والحديثة – لابد أن المحراث كان يبدو لهم وكأنه أداة استعباد، ويستحق الازدراء. ويحتمل أيضا أن السبب هو أنهم كان يبدو لهم أن جعل قطعانهم بعيدة عن يد الأعداء والنهاب هو أسهل عليهم من منع هؤلاء الأعداء من إتلاف المحاصيل الزراعية ومن قطع أشجار الفاكهة. والممالك الكبرى التي تكونت لم تنشر نهائيا لا سلما ولا أمنا، بحيث لا يجب الاعتماد كثيرا على حماية الملك.

ومع ذلك فإن بعضا من الانتظام والأمن قد داخل هذه الفوضى، وذلك شرط مفيد لكل من تربية الماشية والزراعة. وتضاؤل عدد الوحوش الضارية التي اصطيدت بشدة، كان أيضا من صالح ملاك القطعان.

من بين الرعاة من كانت لهم مساكن ثابتة، أو كانوا لا يتنقلون إلا في مجال ضيق. وكان الآخرون رحّلاً على وجه التحقيق. ولم يفت القدماء التمييز بين هذين النوعين. فقد ذكره بومْبونْيوس مِيلاَ بجلاء، كما ذكره سالُسْت[158]. والتل توجد به بعض الجهات التي تستطيع الماشية أن

تعيش بها طوال السنة، كما به سهول ذات مراع لفصل الشتاء. وعن قرب هناك جبال وغابات فيها مراع للصيف. إذن فالقبيلة التي تملك هذه وتلك تسوق إليها على التعاقب قطعانها، وتجد بها زيادة على ذلك طقسا لطيفا في فصل الشتاء وطريا في الصيف. وهؤلاء الرعاة الذين لهم الماء ولهم الأعشاب الغزيرة يربّون على الخصوص الماشية الضخمة من ثيران وخيول.

إن قبائل الرحّل الحقيقية تقضي الشتاء في السهوب، حيث لها أراضيها الخاصة بها. وهي كثيرا ما تنتقل في هذه الأراضي لأن المراعي فقيرة، ولأن جل نقط الماء سريعا ما تنضب. وتتكون الماشية على الخصوص من الحيوانات القنوعة والمتحملة كالماعز والكباش والحمير. إذ الطقس الجاف الذي يهيمن على هذه المناطق في فصل الشتاء يوافق الكباش أكثر من البرد الليلي الذي يكون بقسم كبير من التل. ولهذه القبائل أيضا الخيول، وهذه لها متطلبات أشد، ولكنها مع ذلك تستطيع العيش في السهوب. هؤلاء الرحّل ليسوا هم الأفارقة الذين خصّهم الاغريق واللاتانيون باسم نوماديس νομάδες ونوميداي Numidae بعدما أطلقوه على جميع الأهالي الذين لم يكونوا رعايا قرطاجة. وليسوا سكان نوميديا الحقيقية الواقعة بين المنطقة البونيقية التي أصبحت ولاية رومانية وموريطانية، وبين البحر الابيض المتوسط والسهوب. بل إنهم هم الجيتوليون Les Gétules الذين يحدّون من الجنوب كلاً من موريطانيا ونوميديا والولاية. وقد انتبه سْترابون إلى أنهم يشبهون العرب الرحَل. وهناك حجة – واحدة من بين العديد من الحجج الاخرى – هي أن الزحف العربي الكبير الواقع في القرن الحادي عشر للميلاد لم يدخل معه لبلاد البربر سلوكا جديدا. فهؤلاء الرعاة الليبيون هم الذين وصفهم فِرْجيل Virgile، بأن قطعانهم ترعى ليلا ونهارا طيلة شهور، وأنهم

يتقدمون في صحارى مديدة لا يجدون فيها ملجأ، وأن الأرض وطاؤهم، وأنهم يحملون معهم كل شيء بأنفسهم: مسكنهم وموقدهم وأسلحتهم.

ولابد في الصيف من مغادرة هذه السهول العريضة التي أصبحت جرداء حقيقة. وقد ذكرنا[159] الأحوال التي فيها يقتحم التل أولائك الذين أصبحوا لا يكتفون بجبال الجنوب، فذكرنا الفوضى والفتن، وكذلك الاتفاقات التي تتولد عن هذه الهجرات. ولأننا لا نملك معلومات في هذا الشأن، فيسوغ الاعتقاد بأن الملوك، حبا منهم في السهر على أمن أراضيهم، وخصوصا منهم مسنيسا، قد اجتهدوا في تنظيم تنقلات الرحّل وفي منعهم من ارتكات الأعمال المبالغة في العنف.

3

باستثناء الخيول، فإننا لا نكاد نعرف شيئا عن الحيوانات المؤنسة التي كان الأهالي يملكونها. ولا يوجد نص يذكر الحلّوف Le porc، ولو أنه ليس مستحيلا أن يكون الليبيون قد ربّوا هذا الحيوان. فالكْوانْش Guanche أهل جزر كنارية كانوا يملكونه. ولاشك أن هذا الحيوان قد استجلب إليهم من شمال إفريقيا كما استجلب الكلب والكبش والمعزى. لكن الليبيين الشرقيين كانوا في القرن الخامس ق م يمتنعون عن أكل لحم الحلوف على غرار المصريين في ذلك. ثم انتشر الامتناع في اتجاه الغرب، ولا نستطيع القول عن الفينيقيين الذين لم يكونوا يأكلون الحلوف، هل كان لهم أثر ما في هذا المجال على أهل البلاد.

في فقرة ذكرناها سابقا، ضخّم پوليب ثروة ليبيا من الخيول والثيران والكباش والماعز. وكثرة الكباش عند الليبيين الشرقيين كادت

تكون، قبل ذلك ببضعة قرون، مضرب الأمثال عند الإغريق[160]. وليس لدينا معلومات عن سلالات الكباش، ولكن النوع المعروف منها باسم الباربرين barbarine ذا الذيل الغليظ، كان على ما يحتمل منتشرا خارج المنطقة القرطاجية، حيث يستدل على وجوده بالرسوم الموجودة على بعض الأنصاب. وكما هي الحال اليوم، فإن الماعز كان في الأغلب يختلط مع الكباش ويقودها، لأن استخدام كلاب الراعي شيء لم يكن معروفا، أو كان نادرا على الأقل. وبالإضافة إلى الخدمات التي توديها الكباش والماعز بحليبها وبلحومها أيضا - دون مبالغة في اللحم، إذ كانت الحيوانات لا تذبح إلا عند الضرورة، ويوكل الصيد على الخصوص - فإن الصوف والشعر كانا يستخدمان في صنع اللباس. فبشعر ماعز كينبس (نهر مجراه بين السدْرتَين) كانوا يصنعون نسائج اللبد التي كانت لها شهرة في العهد الروماني. وكان عامة الناس بكل مكان يحبون أن يتدثروا بجلود الماعز.

حسب ما يرويه بول أوروز Orose، الذي ينقل عن تيت ليف، فإن قرطاجة في أواسط القرن الثالث ق.م فرضت على بعض النوميديين حلفاء ريكولوس Regulus أن يسلموا إليها 20.000 ثور. ولربما أن هذا يتعلق بقبائل كانت تعيش بالشمال الغربي وبموسطة القطر التونسي، أي بالأراضي الصالحة لتربية هذه الحيوانات. غير أن العدد المذكور مرتفع إلى حد يبدو معه غير مقبول. إن السلالة البقرية المنتشرة اليوم بشمال إفريقيا، قد كانت لاشك تعيش بها منذ أمد بعيد. وبخصوص العهد الذي ندرسه فليس لدينا أي نص ولا أية صورة تساعدنا على معرفة السلالة. أما سترابون فيؤكد أن داخل البلاد عند الجيتوليين، به ثيران أعناقها أطول مما بأي مكان آخر. وهيرودُت بثيرانه المتقهقرة إلى الخلف، يبتعد إلى قلب الصحراء، عند الـگـرَمَنْطيين. ويقول إن لها قرونا منعطفة إلى

الأمام، إلى حد أنها تضطر للرعي متراجعة إلى الوراء. وهذا كلام مشكوك فيه جدا. ولم تستعمل الأبقار فحسب للطعام بلحومها وحليبها، وللصناعة بجلودها وللأعمال الزراعية باستخدامها بالمحراث. ففي المغرب بالأطلس المتوسط، كما بالسودان، يوضع لحد الآن على ظهر الثور حلْس للتنقل. وهذه عادة قديمة جدا. ويحتمل أيضاً أن بعض جهات بلاد البربر استخدمت فيها الثيران للركوب، كما عند الكَرَمَنْطيين وكما عند زنوج إفريقيا الشرقية.

في الألف الثاني قبل الميلاد كان الليبيون المجاورون لمصر يملكون الحمير. وبرغم انعدام البراهين عن الأزمنة السابقة للاحتلال الروماني، فيسهل الاقتناع بأن حيوانا يعيش متوحشا في بلاد البربر، قد كان يستخدم عن سعة في حالة التانس التي يمكن فيها أن يسدي الكثير من الخدمات، ويتطلب القليل من العناية. ويعتقد كذلك أن تربية البغال، التي كانت تزاول في المنطقة البونيقية، لم يكن الأهالي يجهلونها.

أما أنهم كان لهم العدد العديد من الخيول فذلك ما يشهد له زيادة على پوليب Polybe القدر المرتفع من الخيول في الجيوش بالنسبة للمشاة. وقد انتشرت تربية الفرس حتى بالصحراء. ولكنها كانت تزاول بنوميديا على الخصوص. ونحن نعلم كم أفادت الخيالة النوميدية قرطاجة، ولم تكن إفادتهم لملوكهم ولروما أقل. ففي أواسط القرن الأول ق.م جنّد منهم يُوبا عددا كبيرا، عملوا إما ضمن جيوشه وإما تحت إمرة القادة البومبيين. وحسب قول سترابون، كانت سِرْتا في عهد مِسِبْسا تستطيع أن تجعل منهم 10.000 رهن إشارة الملك.

ويقول نفس الكاتب إن الملوك كانوا يولون عناية خاصة لتربية الخيول، وأنهم كانوا يأمرون بإجراء إحصاء سنوي للمِهار. فكان يُحصى

منها نحو 1000.000. ولا يذكر سْترابون بالتدقيق أيَّ الملوك هو المقصود. ولاشك أن المراد هم سادة المملكة النوميدية الكبرى، كما كونها مسِنيسا، وكما حازها من بعده مسِبْسا ويوغَرْطة. وفوق ذلك. فإن العدد بعيد عن الصواب، إذا كان حقيقة يعني إحصاء المهار، أي الحيوانات المولودة خلال السنة التي تجري بين إحصاءين. فهذا يفترض مجموعا لا يقل عن مليون من الخيول من جميع الأعمار، بينما في أيامنا هذه ليس في الجزائر أكثر من 220.000 منها، وليس بالقطر التونسي سوى 40.000. فلو كانت هذه الفقرة لسترابون تذكر 10.000 مُهر عوضا عن 100.000، أو لو أنها ذكرت 100.000 فرس عوضا عن 100.000 مهر لأوحت لنا بالثقة.

ولكن عندما يؤكد الجغرافي سترابون عناية الملوك بتربية الفرس. فالأكيد أنه على صواب. فهؤلاء الأمراء كان يهمهم أن تكون لديهم خيالة قوية لاستمرار سيطرتهم. ولابد أنهم كانوا كرعاياهم يحبون ركوب الخيل والانطلاق بها، إما في الصيد وإما في الحرب. وهذا مسْتَنْبَعْل أحد أبناء مسنيسا أخذ من إسطبْلاته مهارا قادرة على أن تذهب سنة 168 أو 164 ق.م وتنال الجائزة في سباق البناثيني Panathénées[161].

ولافرس مرسوما على ظهر عُمْلات سيفكْس، ووِرْمينا. وتقريبا على جميع العملات التي عليها صورة مسِنيسا، والتي سكّها هذا الملك ومنْ خلفه على الملك. وصحيح أن ذلك كان تقليدا للنقود القرطاجية، غير أن الملوك الأهالي ما كانوا ليعتمدوا هذه الصورة لو لم تكن لديهم مقبولة، ولو لم يروا أنها صالحة نوعا ما لتكون رمزا لبلادهم. فَسِرْتا Cirta ومدن أخرى واقعة - على ما يبدو في نوميديا - رسمت صورة الفرس على عملاتها[162].

والرسوم غير متقنة تماما، ولكنها مع ذلك كافية لتمكيننا من أن نعرف على هذه النقود، كما على نقود قرطاجة، أجداد سُلالةُ «البَرْب» Barbe ذات الخلقة الثقيلة، المربوعة، والرأس الغليظ، والعنق العريض والعرف الوافر، والظهر المقعّر، والكفل الرداح والسيقان القصيرة. هذه هي الخيول الصغيرة، الهزيلة، البشعة التي تحدث عنها بعض الكتاب. يقول الشاعر اللاتاني الإفريقي نيمْسيان القرطاجي Némésien de Carthage: «الرأس بَشِع والبطن مشوّه... والعرف يضرب الأكتاف النافرة». وحين تنطلق مسرعة تمد رأسها فيمتد في غير رشاقة وبجفاء أمام العنق. ومظهرها العام، هو في آن واحد خشن ووضيع. ولكن خيول البرْب لها مزايا لم يجهلها القدماء، مزايا جعلت منها مساعدات رائعات في الحرب.

ولى المزايا القناعةُ والمكابدة، إن خيول النوميديين تتحمل إذا لزم الامر العطش والجوع. يقول أبْيان Appien: «إنها لا تعرف الشعير، ولا تأكل سوى العشب وشربها قليل». وهي لا تتطلب عناية، بحيث إن المرء لا يتعب نفسه في حكها وغسلها، وتنظيف سنابكها، وتمشيط أعرافها. والفارس عندما ينزل عن دابته بعد رحلة طويلة، لا يعود له بها أي اهتمام وإنما يدعها بسهولة تبحث عن قوتها في المروج المجاورة، وإن كانت هذه المروج هزيلة في الغالب.

وهذه الحيوانات طبيعة وتروّض بسهولة، ويمكن للأطفال أن يمتطوها. والبعض منها يتبع سيده وكأنه كلب. وتعجبها نغمات الناي الذي يستعمل أحيانا في توجيه حركاتها وتنسيق سيرها.

وهي تصبر على العياء، وتقطع إذا لزم الأمر مسافات طويلة. كما أنها سريعة في عدوها، وخطاها ثابتة، وتمر في أشد الأراضي صعوبة.

وقد استخدما الأفارقة زمنا طويلا - مثل شعوب أخرى - في الحرب بأن شدوها مَثْنى ورباع إلى العربات. فهناك نصوص تذكر وجود هذه العربات في القرن الخامس ونهاية الرابع عند بعض العشائر بالقطر التونسي. ولربما أن الأهالي تخلوا عنها مع القرطاجيين في نفس الوقت. إذ أننا لا نجد في عهد الحروب البونيقية وبعدها، عند النوميديين والموريين سوى الفرسان. ويذكر سترابون العربات عند الفاروسيين Pharosii وعند النَكرينيين Nigritae أي الأثيوبيين الذين كانوا يعيشون بجنوب الأطلس الأعلى المغربي. ولكن يحتمل أن نستنتج أن الفاروسيين كانوا في القرن الأول ق م يركبون الدواب غير مقرونة إلى عربات.

ولا يبدو أن الأهالي استخدموا خيولهم التي هي صبورة أكثر مما هي قوية في الأعمال الكبيرة كجرّ عربات الأثقال أو كالعمل جيئة وذهوبا بالمحراث. فلقد كانوا يستخدمونها في نزهاتهم وهجراتهم ليريحوا أنفسهم من السأم ومن متاعب المشي على الأقدام، ويستخدمونها في جولات الصيد، وفي الحرب على الخصوص. وقد اشتهروا عن حق بأنهم فرسان ممتازون، وكذلك كانوا منذ ولادتهم.

وكانوا يمتطونها عادة بدون سروج، وذلك ما يشهد له في آن واحد الكتّاب والصور المرسومة. فمسينيسا في سنته الثامنة والثمانين كان كرعاياه يأنف من استعمال السرج. والفرس كان يبقى عاريا تماما، أو ليس عليه سوى طوق في عنقه. والطوق إذا لم يكن لمجرد الزينة، فيمكن استخدامه لتعلق به بعض التمائم. وأكثر الأهالي لم يكونوا يستعملون الشكائم ولا اللجم. ومع ذلك فقد رأينا أن جيوش يوبا الأول، كان النظاميون فيها قد تزودت بالشكائم واللجم خيولهم، وبهذا كانوا يتميزون

عن الحشود التي بعثت بها القبائل. وكذلك لم تكن هناك مهاميز. وكان الدو... ن يتم تسييره بقضيب خفيف، وربما كان يسير في الأغلب بالضغط عليه بالركبة ضغوطا بسيطة، وإذا دعت الحاجة فبحركات سريعة من اليد.

4

لابد أن زراعة الحبوب قد دخلت إلى بلاد البربر منذ عهد عريق في القدم. بعيدا قبل الاستيطان الفينيقي. وكانت قد انتشرت بشرق القطر التونسي قبل أن تقيم به قرطاجة سيطرتها. وبلغت هذه الزراعة حتى الصحراء، ثم اتسعت في المنطقة التي أصبحت هي المنطقة البونيقية. ولا شك أنها لم تكن مهملة حول المدن الفينيقية والقرطاجية المتتابعة على السواحل قبل جبل طارق وبعده، أي حينما كان المستوطنون يجدون الضواحي الواسعة. ولربما أن هذه الأمثلة احتذاها الأهالي الذين، وإن لم يكونوا تابعين لقرطاجة، فإنهم كانوا يعيشون بجوار منطقتها ومستوطناتها.

ومع هذا، فإن مسنيسا هو الذي يعزو له پوليب Polybe وغيره، كسترابون Strabon وقلير مكْسيم Valère Maxime وأپيان، إدخال الزراعة إلى نوميديا. يقول پوليب : «إليك أعظم وأجمل ما فعله. فكل نوميديا كانت قبله غير نافعة، وتعتبر غير قادرة بطبيعتها على أن تعطي منتجات زراعية. فكان هو الأول والوحيد الذي أبان أنها يمكن أن تعطي كل المنتجات، وبالقدر الذي يعطيه غيرها من المناطق. لأنه جعل يستثمر استثمارا جيدا مساحات كبيرة جدا». وتقرأ في سترابون قوله : «كان مسنيسا هو الذي حول النوميديين إلى اجتماعيين وجعل منهم مزارعين»[163].

لاشك أن هذه الأمداح مبالغ فيها. ولكن مسنيسا، إذا لم يكن هو المعلم الأول، فإنه كان المروّج الحازم للحياة الزراعية في الدولة الشاسعة الأطراف التي عرف أن يكونها. وفي هذا وجد مصلحته الملكية. ذلك أن الرعايا المرتبطين بالأرض، المتمتعين بالكثير من اليسر، يصيرون أكثر هدوءا، وأكثر استعدادا لطاعة السيد الذي يستطيع معاقبتهم بإتلاف محصولاتهم، ويكونون أقدر على أداء الضرائب التي يفرضها. وبنظرة سامية لم تغب عن الملك الإفريقي الكبير، فإن تنمية الزراعة كانت شرطا ضروريا للتقدم الحضاري.

ملك مسنيسا المدن البحرية التي بنوميديا وعلى سواحل السدْرَتيْن، وكانت خاضعة من قبل لقرطاجة. واستولى على قسم من المنطقة البونيقية، كما استولى على السهول الكبرى بمجرْدة، وموسطة تونس. وهي مناطق صالحة لزراعة الحبوب. فهو بهذا قد استولى على عدد كبير من المزارعين. ولم يكن بحاجة لتلقي الدروس من خارج مملكته نفسها. ومن بين رعاياه فالذين يريدون أن يشتغلوا كانت سلطته القوية تبعثهم على الأمل في أنهم لن يحرموا من قطف ثمار عملهم. ولاشك أنه اتخذ التدابير لتوسيع مجال الزراعات، وذلك بأن ضيّق مجالات التنقل على الذين استمروا في العمل بتربية الماشية وحدها، وبأن ضمن للقبائل المتعاطية للزراعة ملكية أراض ذات حدود ثابتة. لا يدخلها الرحّل إلا في أحوال معينة، بصفتهم ضيوفا، لا غزاة ولا ناهبين. ولكن لا علم لنا بشيء في هذا المضمار.

وليس من قبيل الصواب أن يكون الانتقال من الحياة الرعوية إلى الحياة الزراعية قد حدث فجأة. فهاتان الحياتان يمكن أن تتوافقا. ذلك أن الحبوب لا تطالب بالمجهود الإنساني إلا في حقبتين من السنة، أي

عند الحرث المصاحب لرمي البذور وعند الحصاد. وتعاهد القطعان يعطي الدواب المستخدمة في الحرث وفي الدراس، وفي نقل المحاصيل. وعادة إراحة المزارع كانت تترك للماشية الأرض فتغنيها بروثها، وتجعلها أكثر صلاحية لتقبل البذور من جديد. أما الحشفات فكانت تقوت الماشية لبضعة أسابيع بعد الحصاد الذي لا يقطع سوى السنابل ثم تساق القطعان بعد ذلك إلى الغابة أو الجبل حين ينعدم النبات في منابته وينتهي العلف المخزون ولربما أن المواشي بالنواحي كانت بعد الحرث ورمي البذور تساق إلى الجهات هواؤها الطف. فتعيش بها طوال فصل الشتاء. ولكن حينما تعرف قبضة الملك القوية كيف توفر الأمن، فيكفي إما وجود بعض الحراس للسهر على القرية وعلى مخازن الحبوب، وإما وجود بعض الرعاة لسوق القطعان في رحلتها.

على أن الزراعة لم تكن لتستولي دفعة واحدة على جميع الأراضي التي كانت صالحة لها. إذ لاشك أن عمليات استصلاح الاراضي اقتضت زمنا طويلا. واثناء القيام بها بقيت تربية الماشية ضرورة لازمة. وكان لابد على الخصوص من مصارعة النباتات والعكاشات ذات الجذور المتمكنة والعميقة من دوم وعناب شائك وغير ذلك مما كان ينتشر على السهول. وكان اقتلاعه هو العمل المستمر لعدة أجيال من الناس. هكذا تهيأ في صمت ازدهار إفريقيا الرومانية. ولابد أن الهجوم وقع أيضا على الغابة، إذ كان يسهل إيقاد النار بها وتسميد التربة بالرماد الذي يخلفه الحريق. وكان ذلك أيضا وسيلة للقضاء على كارثة الوحوش. لكن الأراضي الغابوية كثيرا ما تكون قليلة الخصب، فيحسن المحافظة عليها كمراعي للصيف، ولو أن الكثير من الأهالي غافلون عن هذا ولا يعيرونه أي اهتمام.

ولا تعوز السواعد في الأعمال التمهيدية ولا في الأشغال السنوية الضرورية للزراعة. فالأهالي كان عددهم كثيرا كما أن نَسْلهم كان كثيرا. بحيث إذا قبلوا القيام بالمجهود الضروري، فلا داعي لتقوية عددهم بعناصر أجنبية. وقد رأينا أن الكثير منهم لا يبذلون هذا المجهود، ويستمرون في تعاطيهم لتربية الماشية وحدها.

على أن النتائج التي حصل عليها مسنيسا تستحق الإعجاب مع ذلك. فلقد أراد أن يكون بنفسه مثالا لرعاياه. يقول ديودور الصقلي[164]: «إنه برع في الأعمال الزراعية إلى حد أنه ترك لكل واحد من أبنائه أرضا سعتها 10.000 بْلثر Pléthres [164 مكرر]، مزوّدة بالأدوات الضرورية لاستغلالها» وبعد موته لم يتوقف الاندفاع الذي أعطاه للزراعة. بحيث إنها كانت مزدهرة في عهد يوغرطة في قسم كبير من نوميديا، وكذلك الشأن في عهد يوبا الأول. إلا أن الحروب والفتن التي تعاقبت من نهاية القرن الثاني إلى الفتح الروماني أحدثت أزمات متفاوتة في طولها وقصرها وخطورتها.

ولاشك أن موريطانيا قد كانت متأخرة عن نوميديا. يقول بُمْبونْيوس ميلا[165]: «إن تربتها أحسن من أهلها». لأن أهلها لم يسُدهم أحد مثل مسنيسا.

كانت الحبوب التي يزرعها الأهالي، كما بالمنطقة البونيقية، هي القمح والشعير. وكانت سنابل القمح مصورة على عملات بعض الملوك، مثل مَسْتانسوسْنْ (؟) وبوكوس الصغير، ويوبا الثاني، وبْطُلمي، كما كانت مرسومة على نقود مدينة سِرْتا وعدة مدن بحرية بموريطانيا. ومنذ نهاية القرن الثاني ق.م استطاع مسنيسا أن يبعث في عدة مناسبات القمح والشعير إما إلى رومة وإما إلى الجيوش الرومانية المتحاربة

بالمشرق، وكان ما يبعث به عدة مئات من آلاف البُواصُو وفي إحدى المرات بعث مليون بُواصُو[166] كما بعث مسِبْسا قمحا لجيوش رومانية كانت تحارب في سرْدانية.

لقد سبق أن رأينا في تصريح لقيصر أورده بلوتارك Plutarque، أن الولاية التي أحدثت سنة 46 ق.م لابد أن تغل سنويا للشعب الروماني 1200 000 بُواصُو من القمح (105 000 هكتولتير) تجبى حسب ما يعتقد على أنها ضريبة. فإذا فرضنا أن هذا القدر كان عُشُر محصول متوسط، فيكون هذا المحصول إنما يفوت بقليل مليون هكْتولتر لمجموع الأراضي الخاضعة لهذه الضريبة. وفي هذه الحالة يجب الاعتراف بأن ذلك لم يكن كثيرا. والمنطقة التي تحدّث عنها قيْصر لم تكن هي كل مملكة يوبا، لأن القسم الغربي من هذه المملكة، وهو منطقة سرْتا، كان قد اقتُطع منها ليكون دولة حقيقية، وأعْطي لستّيوس Sittius وأعفي طبعا من تحملات الضريبة تجاه رومة. لكن الولاية الجديدة كانت تشمل الشمال الشرقي للقطر الجزائري والشمال الغربي للقطر التونسي وموسطته، حيث تمتد أحسن أراضي القمح على مسافات شاسعة. فيحسن التساؤل إذن هل أن 1.200.000 إنما كان يمثل ضريبة خفيفة الوقع جدا ؟ أم هل كانت الفقرة التي أوردها بلوتارك تشتمل على بعض الغلط ؟ أم هل إن ثروة نوميديا من الحبوب في عهد الملوك الأهالي لم تكن مبالغا فيها ؟ ويمكن تقديم افتراض آخر، وهو أن الأمر لا يعني ضريبة ما، ولكنه يعني ما تغله للشعب الروماني الضيعات الملكية التي أصبحت مِلْكا له (أي الشعب الروماني)، فيكون قيْصر قد أكرى استغلال هذه الضيعات، ويكون على المكترين الملتزمين أداء المقادير المحددة قمحا، لا مالا كالمعتاد. وفي الأخير فمن المجازفة أن نستخلص من هذا النص

استنتاجات مدققة عن الإنتاج الزراعي بنوميديا الشرقية في أواسط القرن الأول ق.م.

ويبرهن على الأقل، أن هذه المنطقة كان قسم كبير من سكانها يتعاطون لزراعة الحبوب. وكذلك كان الأمر في القرن السابق. ففي عهد يوغَرْطة كانت ڤاكًا (مدينة باجة) سوقا كبيرة تجتذب الكثير من الإيطاليين. وكما هي الحال اليوم في باجة كان لاشك يباع فيها الحبوب من محاصيل ناحية السهول الكبرى التي يخترقها نهر مَجَرْدَة بالجنوب الغربي للمدينة. ولما خرج الجنرال الروماني ميتلّوس Métellus من ولاية إفريقيا الرومانية، واقتحم المملكة النوميدية سالكاً طريقاً غير بعيد عن ڤاكًا، فإنه التقى بكل مكان بالمزارعين. كما عرض عليه القمح حيثما توجه. وتحصد الحبوب كذلك بناحية سِكًا (مدينة الكاف). وبغرب هذه المدينة كانت شواطئ الموثول (وادي مَلاق Oued Mellègue) يسكنها المزارعون. وبعيدا عن هذا إلى الغرب، فإن سِرْتا تحيط بها حقول القمح، لأنها رسمت، في القرن الأول على ما يحتمل، سنابل القمح على بعض النقود.

في سنة 117 ق.م. قسمت مملكة مسنيسا ومسِبْسا بين آذَرْبَعْل ويوغَرْطة، فحاز الأول منها القسم الشرقي من الولاية الرومانية إلى ما بعد سِرْتا، المدينة التي كان يقيم بها. أما الباقي حتى موريطانيا إلى مَلْوية، فناله يوغرْطة. ولكن سالُسْت كتب عن هذا التقسيم فقال بأن نصيب هذا الأخير كان أكثر غنى بالأراضي الزراعية وبالرجال، أما قسمة آذَرْبَعْل فكانت أكثر اشتمالا على الموانئ والمباني، وكان مظهرها أكثر من قيمتها الحقيقية. ويوجد مثل هذا الخبر عند سْترابون، فهو يؤكد أن القسم، من أرض الماسيسيليين، المجاور لموريطانيا هو القسم الذي

يغلّ أكثر، وبه أكثر الموارد، بينما القسم الذي هو من جهة المنطقة القرطاجية وأرض المَسيليين فإنه الأكثر ازدهارا والأحسن استغلالا. ولعل سالُسْت وَسْترابون قد نقلا هنا عن نفس الكاتب الذي هو بوسيدونيوس Posidonius. وليس أكيدا أن تكون هذه الأقوال صحيحة قطعا. ذلك أن القسم الذي حازه يوغرطة كان يشمل التل بولايتيْ وهران والجزائر وبغرب ولاية قسنطينة، حيث توجد أراض حسنة للقمح خصوصا حول سيدي بِلْعَبّاس وَسْطيف، بينما القسم الذي حازه آذرْبَعْل، كان من جملة ما به أراضي سِرْتا، وسِكّا. والسهول الكبرى التي تشهد الوثائق الصحيحة بنمائها الزراعي فيبدو جيدا أن الفائدة كانت في صالح نوميديا الشرقية، ولكن نوميديا الغربية كانت هي أيضا تبدو بوجه لائق.

فمن الولاية الرومانية إلى موريطانيا، كانت الحبوب قد انتشرت إذن خلال جميع المنطقة المجاورة للبحر الأبيض المتوسط، بجميع التل الجزائري، ولكنها مع ذلك لم تشغل جميع الأراضي التي كانت صالحة لها، إذ كان هناك – كما لاحظ ذلك بمْبونيوس ميلا، أو الكاتب الذي نقل عنه ميلا – بعض المزارعين الذين لم يكونوا في عاداتهم يختلفون عن المزارعين في أوربا الجنوبية.

وإذا كانت الزراعة في موريطانيا قليلة الازدهار، فإنها لم تكن مَهينة بكل مكان، وذلك ما تشهد له السنابل المرسومة على النقود المسكوكة في القرن الأول ق م أو بعده، وسكّتها مدن على ساحل الأبيض المتوسط أو مدن على ساحل المحيط مثل تِنْجي (طنجة)، وزِيلي (أصيلة)، ولِكْسوس (تشمش)، وسَلا، وهذا دون النقود التي لم يمكن

التعرف عليها بتدقيق. وحتى الجيتوليون أنفسهم – هؤلاء الرعاة الحقيقيون – فلربما أنهم لم يمكثوا أجانب تماما عن زراعة الحبوب.

إن أراضي الشمال الإفريقي، وهي أرض الماشية، قد أصبحت أيضا المنطقة الخصبة بالحبوب كما تحدث عنها سالُسْت. بل إن ذكر خصبها قد بولغ فيه. ففي القرن الخامس ق م سمع هيرودوت من يقول بأن وادي الكينِبْس Cynips، بين السدرتيْن يعطي به القمح محصولا يبلغ إلى ثلاثمائة حبة مقابل حبة زريعة واحدة. والمنطقة البونيقية القديمة التي حولت إلى ولاية، فيها الناحية المحيطة بهدْروميت (سُوسة) وكان يقال عنها إنها تعطي محصولا من 100 أو150 مقابل واحد. ويحكي سترابون أيضا حكايات عجيبة أثناء حديثه عن الماسيسيليين سكان غرب وموسطة القطر الجزائري، فيقول [167] «البعض منهم يعمرون أراضي تغل مرتين، فيجمعون محصولين، واحدا في الصيف وآخر في الربيع. وساقُ النبات يبلغ طولها خمس أذرع – 2.20 م – كما يساوي غلظها غلظ الأصبع الصغيرة. والمحصول هو 240 مقابل واحد. وفي الربيع لا يرمي الناس البذور، وإنما يكشطون التربة بمكنسات تتكون من أغصان شائكة، وبهذا فالحبوب التي سقطت على الأرض أثناء الحصاد تكون كافية لتعطي غلة كاملة في الصيف». هذا حديث خرافة، لأن هذه المحاصيل المرتفعة جدا، التي كانت تعزى أيضا حتى في العهد الإسلامي لجهات مختلفة من أرض البربر، لايمكن أن تكون طبيعية، وفي الحالات التي تأكدت فيها حقيقة، فإنها لم يكن لها سوى أهمية إحدى أعاجيب علم النبات. على أن جمع محصوليْن أمر ممكن، وقد ذكر منذ الأعصر القديمة ولكن تحت سماء حارة جدا، وفي أراض سقوية، وليس في الأحوال التي ذكرها سترابون، إذ لابد طبعا من رمي بذور

جديدة، وعادة ما يقع الاختيار على مزروع ثان مغاير للأول، كالذرة البيضاء مثلا بعد القمح، لأن محصولين اثنين متتابعين من القمح أو الشعير ينهكان التربة.

ولا نعرف شيئا عن الطرائق المستعملة في الحرث والحصاد ولا عن الأدوات الزراعية. فالمعزقة التي بقيت في كناريا أداة للعمل عند الـﯕوانش Guanches، والتي لا تزال مستعملة بالواحات الصحراوية، ربما تكون قد سبقت المحراث في بلاد البربر، ثم اختفت من الوجود لما ظهر المحراث. وقد عثرنا في أنصاب بونيقية على رسوم لمحاريث مشابهة للمحراث البسيط البالغ الانتشار اليوم بشمال إفريقيا. وتوجد أنواع أخرى عند الأهالي، ولاشك أنها ترجع إلى عهود عتيقة جدا. وكل هذه الأدوات لها تكوين بسيط جدا، بل إن منها ما له سكة هي عبارة عن رأس من عود اكتسب القساوة بالنار، وليس قطعة من حديد. فما هو أصل هذه المحاريث المختلفة؟ نجهل ذلك، لكن هناك ملاحظة مفيدة انتبه لها بعضهم، وهي أن البربر استخدموا ألفاظا من لغتهم لتسمية مختلف القطع المكونة لجسم محراثهم نفسه، ولم يستعيروا أي لفظ من اللغة البونيقية ولا من غيرها. وعلى عكس هذا، فإنهم يستخدمون بعض الألفاظ التي هي من أصل لاتاني لتسمية بعض القطع في قران الدواب. فلربما يمكن أن نستنتج من هذا أن المحراث عندهم لم يكن أداة مستوردة من الفينيقيين، وأنهم في العهد الروماني فحسب أكملوا صنعه باتخاذهم لطرائق قران الدواب التي كانت مستعملة عند ساداتهم. وكان الحصاد يتم بالمنجل، بقطع سيقان النبات قريبا جدا من السنابل. أما المقضب Haie فلم يجر استعماله بشمال إفريقيا قبل الفتح الفرنسي. وكما هي الحال اليوم، فإن الدراس غالبا ما يسند إلى الحيوانات المأنوسة التي تدوس السنابل في القاعة.

وكان لابد أن توضع في مأمن الحبوبُ التي لم تُبع مباشرة بعد حصدها، والتي لم تدفع إلى جابي الضرائب، والتي يحتفظ بها في المنزل للقوت المعتاد. ونحن نعرف المطامير والمخازن التي تحدث أحد النصوص[168] عن وجودها بولاية إفريقيا في أواسط القرن الأول ق.م. والتي يرجع استعمالها بالتأكيد إلى عهد بعيد جدا. ومن المحتمل القوي أن الأهالي خارج المنطقة القرطاجية قد كان لهم مخازن للحبوب، وإنهم لم يقتبسوا من الفينيقيين هذه الطريقة في حفظ الحبوب، وهي طريقة استعملتها شعوب أخرى منذ عهد بعيد. والأسبانيون استعملوها منذ العهد الحجري الجديد. وليس لدينا على هذا برهان. وحفر المطامير يجد تبريره على الخصوص قرب الضيعات والمداشر التي تجاور مباشرة الحقول المحروثة. فبهذا تُخْفَى المحاصيل وتنقذ من محاولات النهب والمصادرة.

ولكن المزارعين الأهالي على العموم لم يكونوا يعيشون منبثين في البوادي، بل كانوا يتجمعون ليسكنوا في قرى وحلل Agglomérations مزودة بتحصينات طبيعية أو مصطنعة. إلى هنا كانت المحاصيل عادة تنقل وتوضع تحت حماية جماعة السكان، ولا داعي لإخفائها. وإذا كان للمطامير مزية صون الحبوب عن النار، فإن الأرض التي أقيمت عليها القرية، غالبا ما كانت من صخر صلد، وكان حفره شاقا جدا، كما أن الأرض في ناحية أخرى قد لا تمنع الماء من النفاذ منعا جيدا كي تصان المخزونات من خطر التعفن. وجل البربر المتجمعين في جماعات قروية لهم مخازن غير محفورة في باطن الأرض، وتحتوي زيادة على الحبوب أشياء أخرى مما يراد حفظه.

وفي جهات مختلفة تكون هذه المخازن متجمعة، بحيث يمكن أن يتكفل بها حرَاس غير عديدين، يبقون وحدهم، بينما بقية السكان يغيبون غيبات تطول وتقصر إما في حرب وإما للانتجاع بالقطعان. وتقام المخازن في أعلى القرية، أو فوقها أو بجانبها في مواقع يصعب تماما الوصول إليها، ويسهل الدفاع عنها. فتجد هنا بنايات من عدة طوابق بها سلسلات من الغرف التي يملكها شيوخ الأسر. وتجد هناك حصونا حقيقية لها أبراج في الزوايا، قادرة على مقاومة الحصار. ولكل عائلة أيضا بها مكانها. وفوق هذا، فإن مجموعات للمخازن أو الحصون تستعمل لحفظ الحبوب وغيرها من الأشياء حتى في الأمكنة التي ليست مراكز للسكنى، كالمخازن المشتركة عند القبائل التي يعيش أفرادها حواليها هنا وهناك، أو عند قبائل الرحل التي تجوب البراري في الشتاء وتذهب في الصيف إما إلى التل وإما إلى الأطلس الصحراوي. فبالتأكيد هناك عادات قديمة جدا في هذا المجال. ولعل الأماكن المحصنة أو بعضا منها على الأقل كانت هكذا، إذ كانت تراكم فيها المحاصيل في عهد يوغرطة، لا في جميعها لأن هذا الإسم (الأماكن المحصنة) لعله أطلق على بعض القصور الملكية.

والحبوب التي اختزنت هكذا، كان قسم كبير منها مخصصا لطعام الذين حصدوها، ولابد من بعضها ليرمى بذورا. وكان من المناسب توفير احتياطي كبير نظرا لعدم انتظام الإنتاج بسبب تقلبات الطقس الإفريقي. أما الباقي فكان يدفع ضريبة عينية أو كان يباع.

ولاشك كان هناك ثلاثة أنواع من المشترين، وهم : أولاً الرعاة الذين يعّرضون بالمقابل الصوف والجلود والدواب[169]، ثانياً أهل المدن الذين كانوا يبيعون المنتجات المصنوعة في مدينتهم أو المستجلبة،

وثالثاً التجار الكبار مما وراء البحار. وقد قلنا إن العملة الذهبية والفضية كان جميعها يأتي تقريبا من الخارج، ومن بين المنتجات الإفريقية التي كانت تستعمل في شرائها كانت الحبوب على ما يبدو تأتي في المقام الأول. فالتجار الإيطاليون العديدون الذين كانوا يترددون على فاگا Vaga وسِرْتا Cirta، بل ويسكنونهما، كانوا على الراجح يعقدون صفقات الحبوب. وكان الملوك بالضرائب وبمحاصيل ضيعاتهم يتوفرون على كثير من القمح والشعير. ولاشك أنهم هم الذين كانوا يبيعون منهما أكبر نصيب لهؤلاء الأجانب. ولكن رعاياهم كانوا دون شك يقتدون بهم. إن هذه المضاربات كانت تستلزم وجود الوسطاء، وأماكن للبيع، وأسواقا ومعارضات في البوادي وعند أبواب المدن. ونظاما للنقل يعتمد – نظرا لانعدام الطرق – على البردعة أكثر مما يعتمد على العربة، وتستلزم وسائل الاحتراس، بل ربما عقود الوقاية لتلافي اللصوصية. ولكن جميع هذا لم يصلنا عنه أي خبر.

5

إن جل السكان المستقرين الذين يعيشون على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. يتعاطون في عهودنا هذه لزراعة أشجار الفواكه والخضراوات. وبلاد البربر تتميز في هذا المجال بظروف حسنة. ولم يجهل الفينيقيون هذا. بل إنهم ساعدوا عن سعة في تنمية غراسة الأشجار بهذه المنطقة. وإذا كانت الدالية وشجرة الزيتون وشجرة التين أشجارا أهلية بها، فمن المحتمل أن يكون الفينيقيون هم الأولين الذين استنبتوا هذه الأشجار بالمنطقة، ولعلهم استجلبوا أنواعا ذات أصول شرقية، ولقحوا الأشجار البرية، واستعملوا التأبير لأشجار التين،

وبصفة عامة أدخلوا جميع ما كان عندهم منذ قرون يكوّن فنّ البسْتنة. وفي إفريقيا أنتجوا الخمر والزيت كما في وطنهم. ولربما أنهم أثروا البلاد بأشجار جديدة كشجرة الرمّان مثلا. لقد سبق أن رأينا أن غراسة الأشجار كانت مزدهرة في المنطقة البونيقية، وعلى الأقل في الضيعات التي يملكها القرطاجيون، لأن رعايا الجمهورية كانوا يظهرون مزارعين ومربّين للماشية على الخصوص. وكذلك فإن زراعة البقليات قد ازدهرت في ناحية قرطاجة.

أما الرياض وبساتين الزيتون والدوالي والفاكهة عموما فإنها أيضا انتشرت انتشارا متفاوتا حول عدد من المستوطنات البحرية المنبثة منذ المحيط حتى السدرتيْن. ولم تنقرض حين دخلت هذه المدن تحت سيطرة الملوك النوميديين والموريين. ونجد عناقيد العنب ممثلة على عُملات ضربت في القرن الأول ق م في لِكْسوس، وسلا، وفي أمكنة أخرى بموريطانيا لم يقع التعرف عليها بالضبط. وعلى عملات من كُنوكو Gunugu (بغرب شرشال) نجد العنقود يصاحب إلاها أعطيت له سمات ديونسوس Dionysos. وبين السدرتيْن، فإن مدينة لِبْتيس الكبرى Leptis Magna كانت قد وقعت في يد مسنيسا، ومكثت في حكم من خلفوه إلى سنة 111 ق.م، وانفصلت في هذا التاريخ عن يوغرطة، وأصبحت مدينة صديقة وحليفة للشعب الروماني، مفصولة عن ولاية أفريقا Africa بالمملكة النوميدية. وقد تكون فوق منطقتها الترابية الواسعة بساتين واسعة للزيتون بحيث إن يوليوس قيصر فرض عليها سنة 46 ق م غرامة سنوية مقدارها ثلاثة ملايين لبرة من الزيت.

ولكن الأهالي لا يبدو أنهم تسارعوا إلى تقليد المثال الذي ضربه لهم معمّرو المستوطنات الفينيقية والقرطاجية. ويحتمل أن بعضا من

مدن الداخل وسِرْتا العاصمة على الخصوص. قد تكون أحيطت بحزام من البساتين التي استعملت خضراواتها وفواكهها للاستهلاك المحلي. ويحتمل أيضا أن استنبات الزيتون في بعض الجهات قد أخذ ينتشر بتلقيح الغرائس البرية أكثر مما كان بالغرس. إن البربر كالعرب يستخدمون لفظة «زَبّوج» ذات الأصل المشترك فيه. ويطلقونها على شجرة الزيتون البري، ويستخدمون كذلك لفظا من لغتهم هو «زمّور» إما بنفس المعنى وإما بمعنى الزيتون البري الملقح. أما فيما يخص الزيتون المغروس والزيت فإنهم يستخدمون لفظين من أصل سامي، فينيقي على أغلب الظن، وهما زيتون وزيت، مما يساعد على الاعتقاد بأنهم في مجال غراسة الزيتون قد كانوا تلامذة للفينيقيين.

ومع ذلك، فقبل العهد الروماني كانت غراسة الأشجار عند الأهالي لاتزال قليلة الازدهار. وحسب سالُسْت فإن تربة إفريقيا لا تناسب الأشجار، وهو قول يمكن أن ينطبق على أشجار الفاكهة كما ينطبق على أنواع الأشجار الغابوية. وحسب پْلِين الشيخ Pline l'Ancien، فإن الزيت والخمر هبتان طاب للطبيعة أن تحرم منها إفريقيا الموهوبة كلها إلى كيريس Cérès ربة القمح. وكل منهما قد بالغ في قوله. ولكن المؤكد هو أن الجهات الواسعة التي كسيت بالأشجار بعد عهد پْلين، قد كانت لا تزال عارية في عهد يوغُرْطة وسالُسْت. ففي السهول الممتدة جنوبي الهضبة الوسطى التونسية خلف الرومانيون بكل مكان معاصر الزيت الشاهدة على تعدد ما كان لهم من بساتين الزيتون. وقبلهم كان هناك، مثلما عليه الحال اليوم براري متجهمة. إن مدينة كَبْسا (مدينة قفْصة)، كما يقول سالُسْت، تقوم وسط أراض شاسعة موحشة، وباستثناء أحواز المدينة فإن البلاد كلها مقفرة، عارية، ليس بها ماء وتعيث فيها الحياة. وموقع تْهالة Thala شبيهٌ بها، إذ بين تْهالة وبين أقرب نهر إليها — يبعد

عنها بخمسين ميلاً – لا يوجد سوى مسافات مقفرة قاحلة. وقد فر يوغرطة من هذا المكان مخترقا أراضي شاسعة موحشة. ويقول سترابون بدوره إن كل المنطقة الواقعة بداخل الأراضي قفراء منذ أرض الماسيسيليين إلى السدرتَيْن.

والنوميديون عندما يستطيعون، فإنهم يقدّرون للخمر قدرها وبأكثر مما ينبغي. ولكن هذه الفرص السعيدة كانت قليلة، لأن الخمور التي كانت تأتي من وراء البحار، أو التي كانت تصنع حول المدن البونيقية، لم تكن تصل إليهم، أما هم فلم يكونوا يصنعونها، أو كانوا يصنعون منها قليلا جدا. وإذا كان البربر قد استعملوا الإسم الفينيقي لشجر الزيتون المغروس، فإنهم استعاروا من اللغة اللاتانية، في مختلف اللهجات، الأسماء التي تدل على الأشجار المغلّة الأخرى، لذلك فيحتمل أن هذه الأشجار لم تعرف أبدا قبل العهد الروماني.

وهذا الابطاء الحاصل في اتساع غراسة الأشجار عند الأهالي في إفريقيا يمكن تفسيره دون عناء. ذلك أن الأشجار المغلة لا تنتج شيئا طوال سنين عديدة، ثم لابد من انتظار بعد ذلك مدة أطول لتغل كامل غلتها، بحيث يتطلب ذلك نحوا من عشرين سنة بالنسبة لشجر الزيتون، ولا يمكن للمرء القيام بهذه الزراعة إلا إذا كانت لديه وسائل أخرى يعيش منها طوال المدة العقيمة، وإلا إذا كان يعتقد أنه سيمكث نهائيا في المكان الذي غرس به الأشجار، وإلا إذا كان لا يخشى حدوث الكارثة المفاجئة التي لا يمكن تلافيها والتي قد يسببها الأعداء بقطعهم للأشجار. وخلافا لهذا، فمن يعني نفسه بتحصيل التجارب، ويرهق نفسه بالخدمات التي يتطلبها تلقيح الأشجار وتشذيبها وسقيها وغير ذلك؟ غير

أن هذا الأمن لم يكن متوفرا تماما حتى في عهد حكم الملوك الحازمين. وزيادة على هذا، فخارج أرباض المدن، حيث كانت الأسواق المحلية تتمون، كانت هناك زراعات ليس في الامكان أن تكون مربحة إلا بشرط العثور على أسواق ذات أهمية كبيرة. ولكن الأهالي على العموم لم يكونوا أثرياء ليكونوا مشترين صالحين. وينبغي عدم التفكير في وسق الخمر للخارج، لأن جزيرة رودس Rhodes وإيطاليا كانتا تبعثانها إلى افريقيا. أما الزيت فكان يمكن أن يكون موضوع تجارة نشيطة إلى ما وراء البحار، ولكن كان لابد من مزاولة صناعتها بعناية كبيرة لتنافس زيت إيطاليا ومناطق أخرى بالبحر الأبيض المتوسط.

لكن وجدت بعض الامكنة، هي الواحات المتناثرة جنوبي بلاد البربر، حيث كان للحياة المستقرة شرط هو غراسة شجرة ذات فاكهة، هي نخيل التمر. وأسفل النخيل يمكن غرس أشجار مغلة أخرى، وكذلك القمح والشعير باستخدام مجرفة البستاني، لا محراث المزارع. في القرن الخمس ق.م عدد هيرودت Hérodote عدة مواقع مسكونة بالصحراء الشمالية. ومع أن معلوماتنا لا يمكن أن تصعد لما قبل هذا التاريخ، فمن المحتمل أن تكوين الواحات يرجع لتاريخ أقدم من ذلك بكثير، وهناك ما يسوغ الافتراض بأن استغلال بعض الأقسام المحظوظة بالصحراء قد قلد أمثلة جاءت من الشرق، أي من مصر. ولكننا هنا في مجال الاثيوبيين، لا البربر، على أن بعض الواحات قد كانت على ملك قرطاجة والملوك الأهالي. فعلى طول السدرتين، وفي داخل الأراضي بالجنوب التونسي، كانت كابْسا (قفْصة) التي كان أهلها رعايا مخلصين ليوغرطة. والتمور لم تكن حسنة لا بقفْصة الواقعة كثيرا إلى الشمال، ولا بالساحل حيث المناخ رطب جدا، ولم تكن تصلح إلا

التي ... تسلسل تدريجي

عرف الأراضي ... تصنيفها حسب تسلسل الرجال الذين

التعسف ... لمجموع

ملكية جماعية ... فإن الاستغلال يكون

هذه الحالة، فإن الأسر حسب

وبعد ذلك على هذه الطريقة في

للاعتقاد بأن هذه التاريخية

العهود

في

للاستهلاك المحلي، مع منتجات الزراعة التكميلية. ويحتمل أن أشجار الزيتون التي كانت كثيرة العدد بمنطقة لِبْتيس Leptis لم تكن مغروسة تحت النخل، وإنما كانت بالهواء الطلق، وعلى الخصوص في الناحية الجبلية المجاورة للمدينة.

ونجهل متى انتشرت تربية النحل خلال بلاد البربر، حيث كانت تزاولها عدة قبائل مستقرة بالنواحي الساحلية. فهيرودوت يذكر أن الكوزَنْطيَين Gusantes وهم عشيرة تسكن الساحل الشرقي للقطر التونسي، يُصنع النحل عندهم كثيرا من العسل، ولكنه يضيف قائلا: «وفيهم رجال أكثر مهارة يصنعون منه الكثير أيضا». ولا ندرى ماذا كان هذا العسل الاصطناعي. ولاشك أن هذا لا يعني فضلة التمر، لأن النخل لا يلد في الجهة التي كان الكوزنطيون يسكنونها. وكان لتربية النحل مكانة ممتازة عند القرطاجيين، الذين يحتمل أنهم لم يكونوا معلمي الأهالي ولكن تمكنوا من إعطائهم بعض الدروس النافعة. وفي موريطانيا كانت روسدير (مدينة المليلية)، وهي مستوطنة فينيقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكذلك مدينة أخرى لها نفس الأصل على ما يحتمل، تجعلان رسم النحلة على عملاتهما، وذلك حوالي القرن الأخير قبل الميلاد. وللبربر (أو كان للبربر إلى عهد قريب) أنواع مختلفة من خلايا النحل، رباعية الشكل أو أسطوانية، مصنوعة من سيقان الخيزران ومن القصب ومن جذوع الصنوبر المقشور أو الجذوع المجوفة أو من لحاء شجرة الفرْنان أو من الفخّار، ولكن يستحيل أن نعرف أصولها. وكان يوبا الثاني ملك موريطانيا ينصح باستعمال صندوق من الخشب، ولكن ليس لدينا تفاصيل عن كيفية تصوره لهذا الصندوق.

6

إن الحياة الرعوية تستوجب للقبائل التي تتعاطاها حيازة أراضي المنطقة التي ترعى بها قطعانها، سواء أن لا يكون الرعي في كل الأراضي إلا بإذن القبائل، أو لايكون له إلا حقوق الانتفاع. وهذه الأراضي ليس هناك ما يدعو إلى تقسيمها، لأن الماشية تنتشر بها حيثما وجدت المراعي التي هي رهن إشارة جميع أعضاء القبيلة. والحيوانات المؤنسة هي وحدها موضوع التملك الفردي أو الأسروي.

أما الجهات التي لم تعد فيها تربية الماشية الشغل الوحيد للجماعة، فإن أقسام الأرض غير الصالحة للزراعة، كالغابات مثلا، تبقى على ما كانت عليه كل الأراضي من قبل، أي تبقى ملكية جماعية للجميع بها حق الانتفاع.

وفي ظروف الأراضي، التي تسمح زراعة الحبوب بها بطرائق مختلفة يكون من التعسف تصنيفها حسب تسلسل تاريخي دقيق.

أ) تكون الأرض ملكية جماعية لمجموع الرجال الذين يكوّنون جمهورية قروية صغيرة. وفي هذه الحالة، فإن الاستغلال يكون مشتركا، مثل المحاصيل أيضا، التي توزع بعد ذلك على الأسَر حسب عدد الأفراد الذين يقتاتون. ولستُ على استعداد للاعتقاد بأن هذه الطريقة في العمل قد استعملت بشمال إفريقيا، وعلى الأقل في العهود التاريخية. إذ أن المجموعة العائلية آنذاك كانت هي العنصر الأساسي في المجتمع الأهلي. وقلما تذوب في المجموعات الأكثر سعة التي هي جزء فيها. فالمجموعة العائلية تكره الشيوعية.

2) وهناك طريقة أخرى، استعملت خارج إفريقيا، عند قدماء الجرمانيين مثلا، وقد تكون آليق بالبربر. وهي لا تزال – أو كانت إلى عهد قريب منا – مستعملة عند البعض منهم. وهي أن الأراضي مع بقائها ملكية جماعية، فإن الحقول الصالحة لرمي البذور توزع كل سنة بين الأسر، وهذه الأسر تمتلك فوائد عملها[170]. وقد يكون بعض الرجال الذين سكنوا ضيعات منعزلة ربما أرادوا أن يحتفظوا حولها لأنفسهم بالأراضي الصالحة للزراعة. ونتيجة ذلك يكوّنون لأنفسهم ملكيات خصوصية. ولكن سبق أن رأينا أن السكان كانوا في الأغلب يعيشون متجمعين. وصحيح أن الناس كانوا يبحثون عن أحسن الأراضي، وكذلك عن أشدها قربا من القرية. والأراضي المشاعة كان من شأنها أن يقع تخويلها على التوالي لأسر مختلفة، وذلك تدبير عادل. أما الحقول الجامة فهي لا تعطى لأحد، ولكن تبقى للرعي في متناول الجميع، وكذلك سيقان التبن التي يخلفها الحصاد في الحقول المزروعة.

3) وحسب نظام آخر، تُقسَّم الأراضي إلى ملكيات خاصة، إما عائلية، وهذه بصفة عامة لا يستطيع رئيس العائلة تفويتها لأنه مجرد مدير لها. وإما أن تكون ملكا لأفراد لهم كامل التصرف فيها. ولعل أحد أصول هذا النوع من التملك هو المبدأ المقبول في عدة من القوانين البدائية، وهو القاضي بأن الأرض هي ملك للمرء الذي يحييها، وأنه – هو ومن يتركها لهم من بعده – يبقون مالكين لها ما داموا لا يهملونها، فلا تعود من جديد أرضا مواتا، وإلا فحق الاستيلاء عليها في متناول من يريد إحياءها بدوره.

إن الملكية الخاصة – أيا ما كانت طريقة تكونها – تربط الإنسان عادة بالأرض برباط قوي، وتولد فيه حب إخصابها لتدر عليه أكثر

الأرباح. وتكاد تكون الشرط الضروري في غراسة الأشجار. ذلك أن المرء الذي يلقح أو يغرس أشجار الفاكهة، ومن يصلحها هو في حاجة إلى أن يطمئن على تملكه الدائم للأرض التي يعمل هو فيها أو يشغل الغير بها.

إننا نجهل كيف كانت ظروف الأراضي عند قبائل المزارعين في عهود الملوك الأهالي. لكن الفينيقيين والقرطاجيين الذين أنشأوا مستوطنات على السواحل أوجدوا بها الملكية الخاصة على غرار ما عندهم. وقد كان هذا هو النظام الوحيد الممكن قبوله للحدائق والبساتين المحيطة بهذه المدن. كما كان هو النظام الذي تفرضه كذلك الزراعة في الواحات بالحاشية الشمالية الصحراوية.

فإلى أي مدى كان انتشار هذا النظام بين البربر الذين في حالة عدم كونهم رعاة، فإنهم كانوا يتعاطون للزراعة أكثر مما يتعاطون لغراسة الأشجار، ولم يكونوا على العموم ونتيجة لذلك ملزمين باتخاذ هذا النظام المذكور؟ يستحيل علينا الجواب. ومع ذلك فإننا نعلم أن مسنيسا قد اتخذ لنفسه ضيعات كبيرة، وأن أبناءه، من كان منهم ملكا ومن لم يكن قد ورثوها. وقبل العهد المسيحي بقليل كان أحد الأمراء من الأهالي قد أصبح مواطنا رومانيا هو كايوس يوليوس C. Julius ابن مسنيسا وكان يملك بموسطة القطر التونسي أراضي بالغة السعة لأنها اشتملت على حلة Agglomération وصفها ڤيتروف Vitruve[17] بأنها (قلعة حصينة). فلعل هذا النوميدي قد نال هذه الأراضي إرثا من أجداده. ولكن يحتمل أيضا أنها لم تُعْطَ لأبيه أو له هو إلا بعد أن كون يوليوس قيصر ولاية إفريقيا الجديدة Africa Nova سنة 46 ق.م.

في هذه الولاية الجديدة، كانت توجد منذ بداية العهد الإمبراطوري ضيعات خصوصية واسعة على ملك بعض الرومانيين. فلربما أن هذه كانت أراضي صودرت عند الاستيلاء على مملكة نوميديا، وباعتها الدولة للخواص. وإذا كانت قد صودرت، فلأنها كانت على أغلب الظن ملكا ليوبا (الأول) عدوّ يوليوس قيصر. وربما يكون يوبا قد ورثها عن آبائه، عن مسنيسا العظيم الذي كان ما بين الحربين البونيقيتين الثانية والثالثة قد استولى على المنطقة التي وجدنا فيها هذه الضيعات في عهود الأباطرة. فقد انتزع هذه المنطقة من قرطاجة، التي يحتمل أنها استولت عليها في القرن الثالث ق.م. ويمكن أن نتساءل: هل إن قرطاجة آنذاك لم تعلن أن قسما كبيرا مما استولت عليه قد حولته ملكا عموميا ؟ وهل هذا الملك العمومي لم يحوله مسنيسا ليجعله ملكية للملك ؟ وأن هذه الملكية بقيت على حالها إلى أن استولى عليها الرومانيون ؟ هذه مجموعة من الافتراضات نعلم أنها واهنة. لكن يحتمل أنها أحسن ما يفسر تكوّن هذه الضيعات، أي هذه المنابت ذات النظام الاستغلالي الموحد، التي عرفتنا نقائش شهيرة بوجودها في إفريقيا الجديدة. فيكون مسنيسا بما اقتطعه من المنطقة البونيقية قد أصبح ملاّكا عقاريا كبيرا.

وهل مسنيسا نفسه وغيره من الملوك الذين تولوا الحكم في نوميديا وموريطانيا قد طمحوا إلى ضيعات، ليس فحسب بالأراضي التي يملكونها باعتبارها ميراثا لهم أو باعتبارها اقتناء شخصيا، وإنما على جميع مملكتهم بصفة عامة على غرار الفراعنة ؟ أي ملكية قد تطبق على ملكية المجموعات الاجتماعية للأسر أو للأفراد، فتكون ملكية نظرية أكثر

مما هي حقيقية، باطلة عمليا حيثما كانت التربة، لا قيمة لها كما في البراري، وباطلة حيثما كانت القبائل لا تبالي بالسلطة الملكية. وفيما يخص هذا الافتراض يحسن عدم التمسك به هو والافتراضات السالفة. ومع ذلك فإنه افتراض يمكن به (وبغيره من البراهين) تفسير لماذا الولايتان الرومانيتان اللتان عوضتا عن مملكة موريطانيا، قد كانتا مثل مصر كأنهما ضيعتان أميريتان يدبرهما وكلاء عن الأمير، وليستا أراضي للشعب الروماني يحكمها ولاة أو مساعدون للوالي الأعظم. إن جهلنا لظروف الاستغلال يفوق جهلنا لنظام الأراضي.

وكان السكان الأحرار كافين للقيام بالمهمات التي كانت تبدو لهم ضرورية لتضمن لهم معيشة بسيطة مع خضوعهم لواجبات الضريبة. ويحتمس أن الرجال كانوا في بعض الأعمال يفضلون تشغيل النساء. وبدون شك فإنهم قليلا ما كان لهم عبيد. فمع فقرهم الشديد لا يستطيعون شراءهم. وعلى فرض أن حروبا سعيدة مكنتهم من اقتنائهم، فإن بيعهم كان أفضل من إطعامهم. على أن الراجح هو أن الملوك كانوا يجتهدون للتقليل من تكرار الصراع بين القبائل والعشائر، وذلك ليخصوا أنفسهم بفوائد بيع العبيد. وفي هذا المجال فإن القضاء على إحدى الثورات كان بالنسبة لهم عملية مربحة.

كان وجود الضيعات الملكية الواسعة افتراضا صحيحا، فيمكن الاعتقاد بأنها كانت تحرث على غرار المنابت الرومانية التي تكون قد تلتها في الزمن بواسطة رجال أحرار، يقيمون بالضيعات من غير عقد، وبدون تحديد للزمن. ولكنهم ملزمون بأن يؤدوا لرب الأرض نصيبا من المحاصيل.

7

من بين الثروات الطبيعية التي استغلت في عهد الملوك، لابد من ذكر الشجرة التي عرفها الإغريق كما عرفها الرومانيون وهي شجرة العَرْعر. فقد كانت هذه الشجرة تعطي للنجارة الدقيقة (أي صناعة الفيتنة) Ebénisterie الخشب المشهور منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وقد بعث مسِنيسا لأهل رُودس Rhodes خشب العرعر والعاج. وفي نهاية العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري كان الإقبال شديدا جدا بروما على هذا الخشب الذي كانت تصنع منه الموائد على الخصوص، وكان يؤدى عنها الثمن الغالي. كما أن يُوبا، وبْطُلمي كانت لهما أيضا موائد اشتهر أمرها بين الناس. وبلغت مستلزمات حب البذخ إلى حد أن اضمحلت في وقت قَيْصر غابات العرعر الجميلة.

في نوميديا لا نعرف سوى منجم واحد قبل الفتح الروماني: هو منجم النحاس الذي كان يوجد على قول سترابون في أرض الماسيسيليين. فلربما أن هذا كان هو المنجم المجاور لتنِيس Ténès، الذي لوحظ به وجود آثار لخدمات قديمة. وقد يكون الفينيقيون هم الذين بدأوا استغلاله.

أما مَرْمر سْميثّو Smitthu (شَمْتو) وهو المرمر الأصفر والوردي الجميل المشهور باسم المرمر النوميدي فقد جلب إلى روما منذ سنة 78 ق.م، بل وقبل ذلك منذ القرن الثاني. وكانت ناحية السهول التي تنتمي إليها مدينة سْميثّو قد مكثت خاضعة لمسِنيسا والمتولين بعده لمدة أكثر من قرن، إلى حين تكوين ولاية أفريقا الجديدة في سنة 46 ق.م. وقبل هذا التاريخ فتحت المعامل الملكية أي المَحْجرة الملكية التي حافظت لنا النقوش اللاتانية بشَمْتو على ذكراها.

في أراض أخرى من بلدان البحر الأبيض المتوسط، كان أهم ما يشتغل به أهل السواحل عملين اثنين هما البستنة والصيد البحري. وقد رأينا أن غراسة الأشجار والبقوليات كانت قبل الفتح الروماني غير واسعة الانتشار بين البربر. ومن ناحية أخرى لا يوجد برهان على أن الكثير منهم تعاطوا للصيد البحري. وإلى أيامنا هذه فالسمك ليس طعاما مفضلا عند الأهالي. ولعل الأمر كان يخالف هذا في المدن البحرية ذات الأصل الفينيقي والقرطاجي. فقد استمرت على قيد الحياة بساحل سدرة الصغرى في عهد الملوك النوميديين مصايد للأسماك ومعامل للتمليح كانت قد أنشئت قبل ذلك بكثير. وفي موريطانيا فإن لكسوس المستوطنة القديمة، كانت تنقش الأسماك - ربما سمكة التونة Thon - على البعض من عملاتها، وكان ذلك حوالي عهد الميلاد. وهذا بالإضافة إلى أن الصياديـن الآتين من ميناء قادس Gadix الإسباني هم الذين كانوا في الغالب يستغلون النواحي الإفريقية للمحيط الأطلسي.

ثم إن المصايد ومعامل صنع الأرجوان Pourpre (البرفير) التي لاشك أن الفينيقيين أقاموها في نقط مختلفة، لم تختف مع اضمحلال السيطرة البونيقية. وسنرى أن الملك يوبا الثاني قد أنشأ معامل لصبغة الأرجوان في الجزر الفُرْفيرية Iles Purpuraires، أي لاشك بالصّويرة (وجزيرتها) على الساحل المغربي.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثاني

المساكن

1

في عهود الحضارات الحجرية كان قسم من الأهالي قد اختاروا مساكنهم في المغارات والكهوف. وبعد ذلك بزمن كثير ذكر بعض الكتاب الإغريق واللاتانيين وجود سكان المغاور troglodytes بالقرب من الصحراء وفي الصحراء نفسها. فكانوا يسكنون في مغارات طبيعية أو من صنع الإنسان، وكانت هذه المغاور موجودة حتى في بلاد البربر نفسها. وفي بداية العصور الوسطى كانت إحدى القبائل التي تسكن مجموعتها الكبرى بناحية تلمسان، تسمى باسم بَني يَفْرَن، ولا شك أن اسمها مشتق من اللفظ البربري (إفري Ifri) أي المغارة. فهؤلاء الأفارقة - أو أجدادهم على الأقل - كانوا إذن يسكنون المغارات، كما كان يسكنها جل الكوانش Guanches قبل الاستيلاء الأوربي على جزر كناريا.

وحتى اليوم نجد سكان المغارات بمنطقة طرابلس وفي جنوب القطر التونسي، أي في ناحية السدرتَيْن حيث ذكرهم سنيكا Sénèque، وكذلك في الأوراس، وفي غرب الجزائر (بتلمسان على الخصوص) وبالمغرب. فبعضهم يسكن فجوات طبيعية يكملها عند الاقتضاء جدران ثخينة من الحجر الجاف، والبعض الآخر منهم حفروا مساكنهم في صخر التفة Tuf. والمساكن تكون في باطن الأرض تارة، وأحيانا هي حجرات مقامة على وجه الأرض خلف جدار صخري ينزل عليها عموديا أو ينحني قليلا، بحيث إنه عبارة عن أجراف أو بروزات، وأحيانا فإن الكهوف الطبيعية أو المصطنعة تتراكب على جانبي رأس أحد الجبال أو أحد النتوءات الصخرية التي يمكن استخدام قمّتها كملجأ.

إذا كان هذا النوع من السكن قد استمر العمل به هنا وهناك، فبسبب قوة العادات، وكذلك بسبب الفوائد التي يقدمها للناس الذين هم في أغلب الأحوال من البؤساء. فهو سكن لا يستوجب عناية ولا يخشى النار، كما لا يخشى على العموم غيرها من أخطار التهديم، ويسهل به الدفاع ضد ذوي النوايا السيئة، وضد الوحوش، كما أنه ملجأ أمين ضد الأحوال الطبيعية السيئة، وهو طري في الصيف دفيء في الشتاء. وصحيح كذلك أن هذه الجحور ينقصها الهواء والنور، وغالبا ما يكون بهذه المساكن رطوبة مضرة وتعشعش بها الجراثيم في طمأنينة.

2

لقد رأينا أن أكثرية الأهالي كانوا أثناء القرون السابقة على الميلاد يتعاطون تربية الماشية. وكان الذين بالتل يسكنون أراضي متوفرة بصفة جيدة على المراعي والماء، يمكنهم أن يعيشوا حياة وكأنها حياة

الحضر. وإذا فرض الجفاف عليهم أن يذهبوا بعيدا لقضاء الصيف، فلم يكن نادرا أن يقيموا طويلا بالمكان الذي اختاروه. لكن حيث إن ماشيتهم كانت هي ثروتهم الوحيدة، فقد كان لابد لهم من أن يكونوا على استعداد لإنقاذها بالهروب بها من هجمات الناهبين. وكان هذا الخوف يدفعهم لتفضيل الملاجئ المتنقلة على المساكن الثابتة. والرعاة الذين يقيمون بالبراري في فصل الشتاء، كانوا مرغمين على التنقل بها كثيرا، حتى إذا جاء الصيف فإنهم ينتقلون في هجرات طويلة إلى التل أو إلى جبال الجنوب. وكان لابد لهم أن يحملوا معهم مساكنهم. إذ لم يكن لهم لا الوقت ولا الوسائل المعتادة لإقامة مسكن في كل منزلة.

واليوم فإن الرحل بشمال إفريقيا يأوون إلى خيام متفاوتة في الكبر، تجمع فيها شرائط طويلة منسوجة من الصوف أو من وبر الجمال وشعر الماعز. هذه الخيام كانت تحمل مع بعض الأعمدة والأوتاد على ظهور الدواب، وتقام وتنزع في وقت قليل. وإذا تجمعت على شكل دائرة (هذا هو المعنى العربي للفظ «الدوار») فإنها تكون ما يشبه نطاقا تتجمع به القطعان كل مساء. وليست الخيم مساكن للرحل فحسب، بل إن بعض المستقرين الذين يملكون الدور يفضلون أن يعيشوا في الصيف تحت الخيام، لأنها أكثر طراوة بالليل، وأسهل في الصيانة عن الحشرات الطفيلية، وقريبا من الأمكنة التي يقيمون بها، فإن ماشيتهم تترك أزبالا تخصب التربة المخصصة لترمى فيها البذور أثناء الخريف. وفي الأرض التي يكون فيها البرد قاسيا جدا، فإن الخيمة تكون في الغالب هي المسكن الوحيد المستعمل.

على أنها انتشرت متأخرة عند البربر. وكان اتخاذهم لها بعد الفتح الإسلامي على الخصوص، اقتداء بسادتهم الجدد. ففي القرن الثامن

للميلاد كان عدد كبير منهم لهم خيام شبيهة بخيام العرب، ولكن يحتمل أن البعض منهم كانت خيام قبل هذا العهد. فالشاعر الإفريقي كوريبّوس Corippus ذكر قبل ذلك بقرنين، وفي عدة مناسبات، وجود الخيام Tentoria عند الأهالي الذين كانوا يحاربون البيزنطيين. كما كانت لهم الجمال كذلك. وهي حيوانات كانت نادرة الوجود جدا في بلاد البربر لغاية القرن الميلادي الثالث. ولكن قبل ذلك كانت مستخدمة بكثرة في جنوب هذه المنطقة في عهد الدولة السفلى Bas-Empire. وفي المعتاد، فإن الخيام تصنع من وبر الجمال، كما أن الجمال على الخصوص هي المستعملة في حملها لأن الخيام في العادة أثقل من أن تحملها دواب أخرى. فمن حيث المادة والحجم فإن الخيمات Tentoria التي تحدث عنها كوريبّوس يمكن أنها أشبهت الخيام التي حملها الجمّالون العرب من المشرق في القرن السابع للميلاد. ولكن هذا ليس أمرا أكيدا، إذ يمكن أيضا أن نفترض أن هذه المأوي كانت مصنوعة على مثال الخيام التي كانت تستعملها الجيوش البيزنطية.

وهناك خيام صغيرة من الجلد شبيهة بتلك التي لا يزال الطوارق يستعملونها حتى اليوم. ويبدو أنها استعملت عند الأفارقة منذ عهود عتيقة بعيدة. ولا شك أن هذه هي خيام الجلد التي كان يملكها (شعب أو قبائل) الماشواشا Mashaouasha الذين قام المصريون لمحاربتهم في عهد الدولة التاسعة عشرة، وربما أنها أيضا هي مأوى بعض العشائر التي سماها بعض الكتاب المتأخرين عن العهد المسيحي باسم السكنيتس Scenites. ويحسن التنبيه إلى أن اللفظ اليوناني «سكيني» لا يعني الخيمة بالتأكيد، وإنما أطلق على الأكواخ الثابتة أو المتنقلة.

ويحتمل أن بعضا من الأهالي قد اتخذوا الخيمة في حملاتهم الحربية، على غرار الجيوش الرومانية التي كانوا يحاربونها أو يحاربون

معها، وعلى الخصوص منهم القادة الكبار والأمراء والملوك. وبهذا فخيمة مسنيسّا، وخيمة نَبْدَلْسا Nabdalsa مساعد يوغرْطة لابد أنهما لم تكونا مأوي بئيسة شبيهة بتلك التي يستخدمها الرحَل.

هذه المساكن المتنقلة التي كانت للرحّل. كثيرا ما جرى ذكرها منذ القرن الخامس ق م إلى السادس بعده. وكانت تصنع من المواد النباتية مثل نبات البروق Asphodèle والأسل (السمار) Jonc والبروق المشبك بالسمار ومن القصب، وتبن لحصائد.

ويمكن التساؤل : ألم يكن العديد منها يمكن تفكيكه ؟ ألم تكن تتألف على غرار بعض الخيام المستعملة بالمغرب حتى اليوم - من بعض الحصر التي إذا طويت سهل على الدواب حملها مع الأوتاد والأعمدة والدعامات ؟ بحيث إن تجميع هذه القطع المختلفة يمكن وقوعه بسرعة، كما أن الكوخ الذي أقيم بهذه الطريقة يمكن فكّها بنفس السرعة وقت الرحيل. إن النصوص المتعلقة بهذه المأوي لا تساعد جيدا على هذا الافتراض، بل إن بعضها يعارضه بوضوح. فلا نجد في أي منها حديثا عن التجميع والتفكيك. والدار نفسها هي التي تنقل، وهذه الدار تحمل بالعجلات Charrettes. فالشاعر اللاتاني سيليوس أيطاليكوس Silius Italicus يقول عن الرحل الأفارقة بأنهم يسكنون العربات ذات العجلات Chariots، وپْلين الشيخ يقول إنهم ينقلون مساكنهم على العربات Chariots.

فحسب سيليوس تكون هذه المساكن نقالات Roulottes حقيقية وحسب پْلين فإنها أكواخ مستقلة عما حملت عليه من العربات لكن النقالات Roulottes إذا لم تكن قد زودت بأربع عجلات، فإنها تكون مساكن غير ثابتة. وعلى النقيض من ذلك، إذا أريد حمل شيء كالقفص،

فبالإمكان استخدام العربات الخفيفة المزودة بعجلتين كبيرتين فحسب، وهي أفضل من العربات ذات العجلات الأربع في بلاد ليس فيها طرق. والقفص نفسه كان خفيفا جدا بالنظر إلى المواد التي صنع منها، وبالنظر إلى الأثاث البسيط الذي يحتوي عليه. أما الشكل الذي كان يفرض نفسه هو إطار سيارة، أي شكل رباعي مستطيل. والسقف يمكن أن يكون مبسوطا أو مسنما، ويجوز أن نفترض بأنه كان يصان عن التقلبات الجوية بغطاء من الجلود.

ليس لنا أي علم بحيوانات الجرّ attelage. والثيران من شأنها أن تصلح جيدا لذلك. ونحن نعلم كيف استخدمها في هجراتهم باربار أوروبا وآسيا كدواب للجر. ولكن الرعاة الذين كانوا مضطرين كثيرا إلى التنقل كانوا هم الذين يعيشون في أشد المناطق فقرا، وهي الأقل صلاحية لتربية الثيران. لقد كان العديد منهم يملكون الخيول، ولكن لابد أنهم كانوا يحتفظون بها لركوبهم في الصيد وفي الحرب. ولربما أنهم كانوا يستخدمون الحمير. وربما أيضا، ولعدم وجود حل أفضل، أنهم كانوا يدفعونها بأنفسهم.

لتسمية هذه المساكن المتنقلة، يستعمل الاغريق واللاتانيون أحيانا ألفاظا مبهمة، لها معنى الدار، والكوخ فحسب، وعند كوريبّوس نعثر على لفظ كَناي Cannae الذي يدل على المادة التي صنعت منها (وهو القصب). والشاعر يعارض بين كناي Cannae عند الأهالي وبين تَنْتوريا Tentoriaالتي عند الجيوش البيزنطية. لكننا نعثر أكثر من ذلك عند اللاتانيين على لفظ لا يستعملونه إلا لدلالة على مساكن الافارقة. وهذا اللفظ يرد دائما بالجمع، وعلى صيغتين هما : مكَاليا Magalia ومَباليا Mapalia (يمكن أن يكتب باثنين من حرف P). ولاشك أن الأمر يتعلق

بمجرد اختلاف في الكتابة. ومباليا Mapalia هو الأكثر استعمالا. واللفظ إغريقي لاشك. ومن الكتاب القدماء من يبدو أنه يعتقد له أصلا أهليا، ويرى سِرْفيوس Servius أنه لفظ بونيقي. وعلى كل حال فإذا قبلنا القول بأن اللفظ بونيقي الأصل، فلا دافع للاعتقاد بأن الشيء المسمى به هو أيضا بونيقي، لأن «المباليات» المتنقلة استخدمت عند الرحل الذين كان نمط عيشهم يختلف كلية عن نمط حياة القرطاجيين.

3

وقد أطلق اللاتانيون كذلك لفظ «مبالْيا» على مساكن المستقرين الأفارقة. لأن هذه المساكن التي يأوي إليها الفقراء لابد أنها مثل المباليات المتنقلة كانت مصنوعة من المواد النباتية على الخصوص. بل يمكن أن نتساءل : ألم يكن اللفظ يعني بصفة عامة مساكن بنيت على هذا النحو، سواء أكانت ثابتة أم متنقلة ؟ ونجد كذلك ألفاظا ليست مختصة بإفريقيا، فهناك لفظ إغريقي هو باللاتانية tuguria، ولفظ آخر بالغ في الندرة Attegiae الذي يستعمله جوفنال Juvenal أثناء الحديث عن الموريين. وهو لفظ ذو أصل مجهول.

ولابد أن أكواخا ثابتة قد أقيمت منذ عهود موغلة في القدم. ويحتمل أنها كانت موجودة في مواقع ما قبل التاريخ، حيث إن ناسا لم يعرفوا بعد تربية الماشية ولا الزراعة تجمعوا وعاشوا عيشة استقرار. وتكون هذه المساكن بعد مرور الزمن قد صلحت لبعض الرعاة الذين لم تكن لهم حاجة بكثرة التنقل، أو تكون قد صلحت لبعض المزارعين الذين كانوا يعيشون متفرقين في البوادي. فالأسّفوديلود Asphodelodes قوم يحتمل أنهم حملوا هذه التسمية بسبب أكواخ البروق Asphodeles التي

كانوا يسكنونها، وحسب ما يظهر فإنهم كانوا قبيلة بالشمال الغربي للقطر التونسي. غير أن هذه الجهة المحظوظة بالأمطار لم تكن المساكن بها «مَباليات» متنقلة أي مساكن الرحّل. وكانت أكواخ مماثلة لهذه تأوي الجيوش التي ترجع لمعسكراتها حين تتوقف العمليات الحربية.

هذه كانت هي الأكواخ التي ارتضاها كثير من الأفارقة خلال القرون. وهذه أيضا هي الأكواخ (النوالات) Gourbis التي تتكون جدرانها من القصب ومن الأغصان المشتبكة، وتشبيكات الأعواد اللينة، وسقفها أيضا من المادة النباتية، وعلى الخصوص من نبات الديس Diss أو من تبن الحصاند. فهي مساكن بحجرة واحدة، وليس بها سوى فتحة واحدة ضيقة هي الباب. ولا أسهل من بناء هذه الأكواخ حينما تتوفر المواد. وإذا أصيبت بكثير من التلاشي، أو إذا الحشرات جعلتها لا تطاق حقيقة، فإنها تترك وتحمل أعمدتها التي كانت تحمل السقف ولا تزال صالحة، ثم تقام «نوالة» جديدة قريبة أو بعيدة من الأخرى القديمة. وتطلى الجدران بطلاء من التربة الطينية المخلوطة غالبا بروث الابقار. وذلك نافع يقي من البرد ومن أشعة الشمس الحارة. ويحتمل أن هذه الطريقة المستعملة بكثرة في طمس الشقوق كانت مستعملة منذ عهد بعيد. ويزين الداخل كذلك بحصر تعلق عموديا.

إن جل الأكواخ العصرية ذات شكل مستطيل بسقف مسنم. والتصميم إما رباعي وإما إهلليجي (أو على الأصح بأربعة أركان كل ركنين يتوازيان ويتجمعان بقطع دائرية). غير أن الشكل المستدير ذا السقف المخروطي يوجد بغرب المغرب وفي منطقة طرابلس. وهو بهذه المناطق من أصل سوداني. ونجده بعيدا إلى الشمال، بموسطة القطر التونسي. وفي بلاد القبائل الكبرى يستعمل الشكل الدائري ليس للسكنى،

لأن المساكن من حجر، وإنما هو لخزن التّبن، وبدون شك إن بربر هذه الأرض لم يستعيروه من السودان.

منذ العهد الحجري الجديد بنيت الأكواخ المستديرة في عدة مناطق من حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي أوربا الوسطى والغربية. ولربما أن مثل ذلك قد حدث بشمال إفريقيا. فالرومانيون عرفوا بهذه الأرض «مباليات» لها هذا الشكل، وهو ما ذكره كاتون الشيخ Caton l'Ancien والقديس جيروم St. Jérôme الذي شبهها بالأفران. والحديث هنا يعني المباليات الثابتة، وإلا فكما سبق أن لاحظنا، فإن استخدام الشكل المستدير قد يعتقد كثيرا وبلا فائدة أنه صنع العربات التي تستعمل لنقل الأكواخ المتحركة.

ولكن البوادي الإفريقية عرفت أيضا، حسب شهادة سالُسْت، أكواخا متطاولة الشكل oblongues بسقف له جوانب منحنية. فكانت تشبه هيكل سفينة مقلوبة. هذا الشكل المتطاول هو الذي غلب في الاستعمال بسقف مسنم. وحتى في بعض الجهات فإن المرأى الجانبي للسقف هو مرأى يذكر بالقسم الغائص في الماء من هيكل السفينة. وذلك يبرر تشبيه سالُسْت، أو على الأصح تشبيه هيمْبسال الملك النوميدي الذي نقل عنه سالُسْت.

4

إن الأكواخ التي من المواد النباتية تحدق بها مخاطر كبيرة، إذ يمكن أن تكون طعمة سهلة وسريعة للنيران التي إذا دفعت بها الرياح خلال مجموعات المساكن، فإنها تحدث الأضرار في وقت قليل. وفوق ذلك فإن هذه الأكواخ ذات جدران رقيقة لا تكفي للوقاية من القرّ والحرّ.

ولاشك أن السكان المستقرين أحسوا من زمن بعيد بضرورة بناء مساكن أكثر أمنا وأشد وقاية في حالات الجو المفرطة في الخارج. وبما أنهم لم يكونوا ينوون التخلي عنها، لأنها ثابتة على الأرض، فقد كان طبيعيا أن يجعلوا بناءها بالغ المتانة، ليمكن استخدامها سنين طويلة لهم ولأبنائهم. فعوضا عن الأكواخ حلّت الدور الحقيقية، هذه الدور التي تحدث عنها هيرودت في القرن الخامس ذاكرا أنها مساكن الليبيين الفلاحين.

وقد بُنيت بالتراب أو بالحجارة. والتراب أحسن من غيره في الجهات التي تقل فيها الأمطار. هكذا - ومنذ أمد بعيد لاشك - بنيت الدور في الواحات. ويمكن الافتراض بأن المثال جاء من المشرق، حيث إن عادة إقامة المنازل من تراب هي عادة قديمة جدا على ضفاف النّيل وعلى ضفاف الفُرات. ولكن هذه الطريقة في البناء قد استعملت في بلدان بعيدة إلى الشمال، وهي لا تزال مستعملة بالقطر التونسي وبالمغرب، في جهات لا تنعدم فيها الأمطار. وتتكون جدران التراب على طريقتين. فتارة - وهذه هي طريقة البناء في الجنوب - يعجن قالب يسمى «الطُّوب» Toûb، يخلط فيه الطين بهشيم التبن وبالحصباء، وذلك لينال الصلابة. وبعد تعريض القوالب للشمس للتجفيف فإنها توضع متجاورة ومتراكمة كما يفعل البناؤون بالآجر. وتارة أخرى - وهذا بالمغرب على الخصوص - يكبس الطين المبلول المخلوط غالبا بالجير في صناديق من ألواح الخشب يكون لفراغها الداخلي سعة الجدار المراد بناؤه. وتنزع الصناديق حينما يملأ التراب ذلك الفراغ. هذا هو البناء بالتراب المدكوك Pisé. وقد عرفه القرطاجيون، ولعلهم علموه للأهالي. ولكن البناء بالتراب المدكوك سريعا ما يصاب بالتلف، وأكثر منه الطوب في ذلك. فإذا انهار بالكلية فإنه لا يخلف آثارا. ولهذا

فيستحيل التدليل بالوثائق الأثرية على أن أجداد البربر قد استخدموا هاتين الطريقتين.

أما البناء بالحجارة فهو أليق بالبلدان المطيرة. ونحن نعلم كم كان هذا النوع من البناء مفضلا في مناطق البحر الأبيض المتوسط منذ أبعد الأزمنة، خصوصا في مساكن الموتى التي لابد أن تكون قوية ومستديمة، وكذلك لمساكن الأحياء. ومواد البناء تعرض نفسها بنفسها في إفريقيا. فالفهور Galets في مجاري السيول، والأحجار الصغيرة مبعثرة على الأرض، والصخور الورقية تغطي البلاطات التي تكفيها بعض الضربات بالمطرقة لتأخذ الحجم والشكل المطلوبين.

إن الخرائب Ruines المسماة بربرية كبقايا الدور، والأحواش Enclos والأسوار كثيرة جدا، وتتوزع على مجموعة طويلة من القرون. ولكنها عادة لا تسمح بالتأريخ لها. لأن التصميمات وطرائق الإنجاز قد تخلدت فعلا. ولا شيء أشد شبها في آثار قرية متروكة منذ خمسين عاما، إلا آثار قرية يسوغ الاعتقاد بأنها معاصرة للعهد الروماني. بل ولما قبله. وسنرى مع ذلك أن معالم التاريخ الزمني ليست منعدمة في كل مكان في المباني القديمة والحديثة. فليس للجدران أسس عميقة بحيث لا تفوت 20 أو 30 سنتمترا، وعلى العموم فإن داخل المساكن لا يحفر إلى أسفل من سطح الأرض، كما كان الامر في أوربا غالبا. وأسفل الجدران كثيرا ما يتكون من صفّيْن من البلاطات القائمة، فهما زينة يرمى بينهما بالحصى. هذه الطريقة تسمى بالتوضيع appareillage البربري. ولكنها ليست مختصة ببلاد البربر، لأنها مثلا كانت مستعملة في جزيرة أقْريطِش Crète في الالف الثاني ق م. ولكن البلاطات لم تكن توجد بكل مكان، أو ربما يستحسن تنسيق آخر، كان تستعمل الأحجار الكبيرة،

والكتل الخشنة، أو التي جرى تربيعها دون اتفاق، والتي إذا وضعت أفقيا فإنها تكون قاعدة الجدار.

وعلى المداميك السفلى كانت الحيطان تقام بمواد بنائية خفيفة جدا، بحيطان تقريبا تتهدم دائما، لأنها من أحجار صغيرة الأحجام تارة وضعت كيفما اتفق، وتارة نُضِّدت متدرجة في صفوف منتظمة إلى حد ما. وليس نادرا أن الأحجار الموضوعة بانحراف تكون صفوفا متراكمة، أي إن الصف الذي يكون انحرافه إلى اليمين يركبه صف يكون انحرافه إلى اليسار وهكذا، بحيث إن عناصر قاعدتين متجاورتين تكون لها صورة السنابل الممددة أو الزخارف المتكسرة. وتأخذ بعض الأحجار الكبيرة التي نحتت قليلا مكانها في زوايا المبنى وفي إطار الباب. وهذه التركيبات المختلفة لا يجمعها الملاط، ولكن يحتمل أن الثغرات كانت في الماضي كشأنها اليوم، تسد بالوحل الطيني المخلوط بالروث. ويحتمل أيضا أن يشطر الحائط الحجري بين مسافة وأخرى، بحزمات من الأغصان تعطيه كثيرا من التماسك. ولا تزال هذه الطريقة مستعملة إلى اليوم بالأوراس.

إن الشكل المستدير الذي كان استعماله هو الغالب مدة طويلة بين الدور في المناطق الأوربية، والذي لاحظنا ببلاد البربر وجوده في بعض الاكواخ، هذا الشكل قليلا ما يعثر عليه في خرائب المساكن التي من الحجر، وهو اليوم شكل مهجور. ويستحيل القول هل في عهد بعيد مضى كان هذا الشكل معمولا به بكثرة. وسندرس فيما بعد المدافن التي هي من حجر جاف، وهي الشوشات Chouchets (أي الشاشيات) التي تشبه بروجا منخفضة، ولكن إذا أريد إثبات أنها بنيت تقليدا لدور السكنى، فلن يوجد برهان يقدم لصالح هذه النظرية. ومع ذلك فنلاحظ أن

المساكن الحجرية كانت عند الگوانش Guanches في الأغلب ذات شكل دائري أو أهليليجي أكثر مما كانت رباعية. ونظرا لقرابة حضارة سكان جزر كناريا مع حضارة البربر البدائيين، فيمكن التساؤل عن هؤلاء الكوانش، ألم يستعملوا هم أيضا وبكثرة الشكل الدائري ؟

ولكن التفوق في الاستعمال كان للشكل الرباعي. ولربما يجب أن نقبل وجود تأثيرات مشرقية. ولكن هذا الافتراض ليس واجبا. فالشكل الرباعي أكثر موافقة من الشكل الدائري لمن يريد تجميع عدة حجر بحيطان مشتركة بينها، ويساعد بصفة أخص وبسهولة على تغطية المساحة المحصورة بين الجدران. ولنفس السبب فإن العرض يكون غير كبير على العموم، بينما الطول كبير إلى حد ما. وحسب المساحة المحتاج إليها، فإن المبنى يكون ذا شكل متطاول. ذلك أن السقف سواء كان مسطحا أو مسنما، فلا يمكن مده إلى بعيد في اتجاه العرض، وإلا فلابد من استخدام دعامات كبيرة جدا وقوية جدا، وهي لا توجد بسهولة.

ويعتمد السقف على جائزة خشبية تمر بوسط الحجرة بموازاة الجانبين الطويلين. وكل واحد من طرفي هذه الجائزة لا ينزل في الغالب على أحد الجانبين القصيرين، وإنما ينزل على عمود قائم مقتطع من شجرة بطريقة تجعل من نقطة تقاطع الجذع وأحد الغصون الغليظة مذرى يمكن للجائزة أن تدخل فيها. وإذا كانت الحجرة أطول من الجائزات المتوفرة فيوضع منها اثنتان أو ثلاث رأسا لرأس على أعمدة بشكل المذاري لتدعيمها. وتمتد الدعامات الخشبية الطويلة مائلة، فتعتمد من جهة على هذا المرتفع، ومن الجهة الأخرى على رأس أحد الجدارين الطويلين. فتكون هيكلا (مسنما) على شكل ظهر الحمار. ومن فوق هذا

يوضع بالعرض القصب وشرائح الخشب ويكسى ذلك بكساء من حطام النبات، ومن الديس والحلفاء والدوم وتِبن الحصائد والأشنة وغير ذلك. وكثيرا ما يغطى هذا السقف بطبقة من التراب الصلصالي تجعله غير منفذ لماء المطر. واستعمال القرْميد النصف الأسطواني الشكل - هذا القرميد الذي يسميه الناس بجنوب فرنسا باسم القرميد الروماني - يرجع لاشك لتأثيرات خارجية إما رومانية، وإما قريبة العهد أي أندلسية أو غير ذلك، ونراه موجودا في بعض المدن وفي قرى بلاد القبائل الكبرى.

وتتكون السطوح (المنبسطة) من أعمدة ممددة بالعرض، ومن شرائح الخشب، وجذوع أشجار مقشورة تسندها هذه الأعمدة، وأخيرا من طبقة من الطين المدكوك. وهذه السطوح تقي من أحوال الجو المفرطة أكثر من وقاية السطوح المسنمة، وإذا كانت لا تتحمل جيدا التهاطلات القوية للثلج والأمطار الطوفانية، فإنها أشد مقاومة للرياح العاتية. وتقدم في الصيف مساحة فيها الطراوة للاسترواح عند المساء وللنوم بالليل، ثم إن السطوح مراقب. وهي عند الاقتضاء مراكز دفاعية وذلك عندما تتدرج الدور على المنحدرات كما يحدث في بلاد البربر غالبا.

وتوجد السطوح (المنبسطة) ليس في جل المدن - في كل مدن الجنوب وجل مدن التل - وإنما نجدها أيضا في قرى بجهات كان المنتظر أن نجد بها السطوح المسنمة، أي نجدها في سلسلة جبال الأوراس وعلى المنحدرات الجنوبية لجبال الجرجرة وبالأطلس المغربي. ومع أن هذه الطريقة في تغطية الدور تصلح بصفة خاصة للمناخ الحار الجاف. والراجح أن هذه الطريقة استجلبت من المشرق، ربما من مصر إلى الواحات، ومن فينيقيا للأمكنة المجاورة للساحل. وقد كانت دور

قرطاجة مزودة بسطوح منبسطة. وكذلك كانت دور ڤاگا Vaga (أي باجة) المدينة النوميدية في نهاية القرن الثاني ق.م. وذلك ما يعرّفنا به فصل من فصول حرب يوغرطة كما يحدثنا عنه سالُسْت[12].

ولا نستطيع أن نقول كيف اتخذ بربر تلك العهود السطح المنبسط. وبالتأكيد فإنه عندهم كان متأخرا عن السطح ذي الجناحين (المسنم). وهذا الأخير هو الذي كان – كما يقول سالُسْت يغطي الأكواخ ذات الشكل المتطاول. التي كانت من أغصان الأشجار. والتي هي زيادة على ذلك غير قادرة على حمل سطح (منبسط). والراجح أنه انتقل من الأكواخ ليغطي المساكن المبنية بالحجر.

جل دور الأهالي ليس بها سوى حجرة واحدة. وفتحة الباب هي الوحيدة أو تكاد تكون الفتحة الوحيدة. وليس هناك نوافذ. ومع ذلك فغالبا ما تفتح كوة أوعدة كوات صغيرة في أعلى الجدار. والأرض بالداخل من تراب مدكوك. وفي الوسط توجد ثغرة مستديرة قليلة العمق هي الموقد للتدفئة وللطبخ بوجه أخص. وبالثغرة ثلاث أحجار موضوعة على شكل مثلث. بحيث يمكنها أن تحمل الصحون والقدور. ويخرج الدخان من الباب أو من الكوات. وأحيانا يخرج من ثقب مفتوح في السقف يؤدي دور المدخنة. وغالبا ما تكون هذه الحجرة الوحيدة مقسمة بسور صغير إلى قسمين. أحدهما يستعمل للسكنى. والآخر يستعمل إسطبلا وزريبة للخيول والثيران. فهيرودُت كان بإمكانه أن يقول عن الليبيين ما قاله عن المصريين. وهو أنهم يسكنون مع حيواناتهم المؤنسة.

والدار عادة لا تفتح مباشرة على البادية أو على الطريق في القرية. بل تسبقها ساحة كبيرة أو صغيرة، يحيط بها سياج، وتكون ذات شكل

رباعي مستطيل أو ذات شكل مستدير، ويكون السياج من أغصان يابسة شائكة أو يكون سورا من حجر جاف. وهذه الساحة (هي المراح بالمغرب) تسبق أيضا عدة من الأكواخ (النوالات). فهي تعزل الدار وتصونها عن الأنظار المتطلعة. وعلى العموم فإن الباب الذي هو المدخل لا يكون في مقابلة باب الدار. وفي هذه الساحة (المراح) تبرك بالليل الكباش والماعز، صونا لها من السارقين والوحوش، وفيها يؤدي النساء الأعمال التي يحسن بها أن تؤدي في الهواء الطلق وفي النور الواضح، وفيها يستنشق الهواء في أمسيات الصيف. وأحيانا تحفر تحتها مطمورات صغيرة لخزن الحبوب.

هذه هي الدار البربرية في أبسط شكل لها. ولكن الحجرة الوحيدة لا تكفي دائما الذين يتحدد مسكنهم بسياج المراح. فتقام عدة حجر جنبا لجنب، وكل حجرة تأوي أسرة من العائلة التي لم يتفرق أعضاؤها الذكور بعد ما تزوجوا. والطموح لبعض الرفه أوجد بعض الأمكنة الإضافية، فالإسطبل والزريبة يكونان مباني خاصة متكونة من الأغصان أو من الأحجار. ومن الملحقات أيضا المخازن، ومساكن الخدم، وحجرات الضيوف. ولهذا وجدت النماذج المختلفة للدور. ويندر جدا أن تكون الدور في البوادي والقرى مزودة بطابق، وإذا كانت بطابق فهو للسكنى. والسفلى إسطبل أو زريبة.

والضيعات المنعزلة يمكن أن تكون محصنة. فضيعات البربر بجزيرة جَرْبَة لها أبراج على أركانها الأربعة. وهو تجهيز نجده أيضا بالمغرب. ولم يكن مجهولا في عصور التاريخ القديم.

ـتـب الثاني

ـــتغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثالث

المواقع المسكونة

1

الرّعاة لابد لهم أن يعيشوا متناثرين مع ماشيتهم في البوادي، حيث توجد مساكنهم التي هي الخيام اليوم، وفي عهود التاريخ القديم كانت هي «المباليات» المتنقلة أو الثابتة. أما المزارعون، فقد ذكرنا الأسباب التي من أجلها تجمعوا في قرى. وحتى اليوم، ورغما عن الأمن الذي يخيم على القسم الأكبر من بلاد البربر، فإن جل المزارعين الأهالي ينفرون من سكنى الضيعات والمداشر المنعزلة. على أن بعضا من هذه الضيعات كان موجودا حتى قبل السلام الروماني، لأن سهولة الإقامة بمواقع الشغل، والموارد المائية التي يمكن أن تدرّها المناهل والآبار بها، كل ذلك كان يجعل بعض العائلات تبقى مقيمة بها، ولم تكن تخشى كثيرا أخطار الوحدة والسأم.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثالث

المواقع المسكونة

1

الرّعاة لابد لهم أن يعيشوا متناثرين مع ماشيتهم في البوادي، حيث توجد مساكنهم التي هي الخيام اليوم، وفي عهود التاريخ القديم كانت هي «المَباليات» المتنقلة أو الثابتة. أما المزارعون، فقد ذكرنا الأسباب التي من أجلها تجمعوا في قرى. وحتى اليوم، ورغما عن الأمن الذي يخيم على القسم الأكبر من بلاد البربر، فإن جل المزارعين الأهالي ينفرون من سكنى الضيعات والمداشر المنعزلة. على أن بعضا من هذه الضيعات كان موجودا حتى قبل السلام الروماني، لأن سهولة الإقامة بمواقع الشغل، والموارد المائية التي يمكن أن تدرّها المناهل والآبار بها، كل ذلك كان يجعل بعض العائلات تبقى مقيمة بها، ولم تكن تخشى كثيرا أخطار الوحدة والسأم.

ورغما عن تباعد هؤلاء الناس الرعاة أو المزارعين، فإنهم ينتمون إلى هيأة اجتماعية كان واجبها الأهم هو حماية أعضائها. وفوق تراب المنطقة التي تعتبرها الهيأة منطقتها، كان لابد من مكان يُجعل في حالة الحرب والغزو ملجأ لغير المحاربين إن لم يكن ملجأ للجميع، ويمكن أن تجعل به الماشية بعيدة عن يد الأعداء، كما يوضع به كل شيء له قيمة.

والملاجئ والمآوي تهبها الطبيعة بكثرة في إفريقيا. فهي المرتفعات الممتدة على شكل قمم بين شعبين، أو التي تكاد يحيط بها تماما منعطف أحد الأنهار، وهي القمم الوعرة، كما هي على الخصوص الهضبات ذات الجوانب الوعرة، بحيث لا يوصل إليها إلا من ممر ضيق أو من مصعد عسير. وهذه الموائد تكاد تكون أفقية الوضع، أو هي مائلة إلى حد ما. وتشمل أحيانا مساحات شاسعة، مثل «حمّادة الكسْرة» kesra بموسطة القطر التونسي، و«قلْعة سنان» بالشمال الشرقي لتبسة، ومائدة الجحّفة بالشمال الشرقي للأوْراس، ومسْطاوة التي تقوم على بعد قليل إلى الشمال الغربي لهذه الهضبة، والتي احتلها منذ نحو خمسين سنة ثوار من الأهالي، وأيضا مثل صخرة قسنْطينة التي قبل أن تحمل المدينة، ربما كانت ملجأ للسكان المحيطين بها. وهناك مرتفعات أو هضبات أخرى استخدمت ملاجئ، ذات سعة أقل، إما لأنها لم تكن مهيأة لاقتبال ضيوف كثيري العدد، وإما لأن الأقوام المحيطين بها رضوا بالتزاحم فيها لأنهم لم يجدوا أصلح منها لهم. ولا خلاف في أن الناس كانوا قبل كل شيء يبحثون عن الأمكنة التي بها منبع أو منابع للماء، أو على الأقل يبحثون عن الأمكنة المشرفة على المنابع والأنهار التي يمكن منها التزود من الماء.

وفي الغالب فإن التحصينات الطبيعية كالشعاب العميقة، والمهاوي الصخرية تكاد تكفي لتثبيط العدوّ. والسور لا يكون وجوده ضروريا إلا حيث تنفتح الطريق التي يكون الصعود منها، وحيث يمتد الممر الضيق الرابط بين الهضبة والمرتفع المجاور. ففي هذه النقطة إذن كان يقام سور مانع لا ينفتح به إلا ممرّ للدخول، ويكون ضيقا جدا. وفي جهة أخرى قد يكون من النافع أن تقام هنا وهناك أسوار أخرى لحماية بعض النقط الضيقة. بل في بعض الأحيان يتعاقب سوران فوق منحدر ... فيكون السور الثاني مدعما للاول. ولكن قليلا ما دعت الضرورة لاحـ الملتجأ بسور مستمر. وبناء هذه الاسوار مكوّن من كتل حجرية ... مؤلفة من غير ملاط. فهنا تتراكم الاحجار دون نظام تقريبا. وهناك تتراكب فيما بينها على شكل كتل غليظة بعضها متقهقر عن بعض. وهنا نجد السور المعروف باسم السو البربري. ذي القاعدتين اللتين من أحجار غليظة يملأ ما بينهما بالفهور Moellons.

من حيث المبدأ، فإن الملتجأ لم يهيأ إلا ليشغل موقتا، ولاقصر وقت ممكن. فهو لا يشتمل على مساكن مبنية بمواد تدوم. وفعلا فلا توجد خرائب أثرية في الكثير من هذه الأمكنة. إذ كان الناس يحلّون بها كيفما اتفق متسترين بالجلود، وفي أكواخ تصنع في ساعتها، وفي مجرى الهواء الطلق. على أنه إذا لم يكن بالمكان منبع للماء، أو لم يكن يجاوره نهر لا يقدر العدوّ على المنع من الوصول إليه، فيحسن تكوين احتياطي من الماء. وهناك بعض الملتجآت التي لايبدو أنها قديمة جدا، وهي مزوّدة بخزانات وأحواض.

والراجح أن الناس فكروا من وقت بعيد في أن هذه الملتجآت الضرورية في وقت الحرب، يمكن أن تكون نافعة في وقت آخر، وأنها

تصلح لإحداث مخازن يكون ما يحمل إليها في أمان أكثر مما في البوادي، وعلى الخصوص من ذلك الحبوب التي يحتاج إليها الرعاة أنفسهم، ويحصلون عليها باستعمال وسائل العنف أو الملاينة. ويكفي بضعة أشخاص لحمايتها. وهكذا فإن بعض الرحّل لهم حتى اليوم بجنوب القطر الجزائري، في الأطلس الصحراوي «قصور» ksour. وهي نوع من المواقع المحصنة يستخدمونها مستودعات لما لهم من الحبوب والتمر والصوف. ولا يسكنها باستمرار سوى عدد قليل من الناس ذوي أصول وضيعة، وهم مكلفون بحراستها.

وقد يحدث أيضا أن رئيس الذين يسكنون في الملتجا، يستحسن أن يقيم به دارا متينة البناء تكون مسكنا ومخزنا. وذلك هو ما يسمى بالعربية باسم «البرج». فهو فيه في أمان كبير. وتحت يده مؤنه وثرواته المنقولة. أما قطعانه المنبثة في البادية، فإنه يترك لأقاربه ولخدمه أمر مراقبتها.

إننا نعرف المئات من الملتجات القديمة بشمال إفريقيا، وفي الجزائر على الخصوص. أما في تونس فالقرية المحصنة المسكونة بصفة مستمرة يبدو أنها سبقت الملتجا المؤقت منذ عهد بعيد. ويبدو أيضا أن هذه الملتجات كثيرة العدد بالمغرب الذي لا تزال الدراسات والتنقيبات الأثرية به في أطوارها الأولى وحتى في الجهات التي أجريت فيها التنقيبات الواسعة، فلاشك يوجد العديد من الملتجات التي لم يقع التبليغ عنها. فبقاياها ضعيفة في العادة، ولا تنكشف إلا بالنظر المتفحص، مثل بعض شقوق الفخار المتكدسة على بعض النجود أو الكدى، ومثل بعض أجزاء الأسوار التي حافظت على تماسكها بارتفاع ضعيف، بينما في موضع آخر تكون هذه الأحجار قد انهارت، ولكونها لم تُنحت فلا يمكن أن تبرهن على أن الإنسان استخدمها.

وكما هو الشأن في جميع الخرائب البربرية، فإنه يصعب، بل يستحيل التأريخ لهذه الملتجآت التي استخدمت منذ التاريخ القديم، وبدون شك منذ عهود بالغة في القدم إلى عهد قريب منا. فطريقة البناء لا تعطي أي إشارة، باستثناء ما إذا كانت بعض الأحجار المنحوتة قد أخذت من خرائب رومانية مجاورة واحتلت مكانا لها في البناء. ومع ذلك فيحسن أن نعرف هل ذلك ليس سوى إصلاحات جزئية. فأدوات الظر silex التي عثر عليها بالملتجأ برهان على أنه عمر منذ عهد بالغ في القدم، ولكنها لا تبرهن على أن الأسوار التي عثر خلفها على هذه الأدوات قد أقيمت منذ الزمن الذي كانت القطع الظرية تستخدم فيه أدوات وأسلحة. ولا شيء يستنتج من شقوق الفخار البربري غير المزخرف، لأن هذا الفخار جميعه يشبه نفسه سواء أكان مما قبل التاريخ أو كان حديثا. فبقايا الآنية المصنوعة بالمخرطة في المصانع الرومانية، أو التي هي أحدث منها عهدا، لا تدل إلا على أن الملتجأ قد سكن في صميم العهد التاريخي. ولربما أن التنقيبات تساعد على القول: هل الملتجأ قد عمّر قبل ذلك بكثير. وأحيانا، تقوم على الجوانب بعض الدّلمينات dolmens، التي هي عبارة عن مدافن لايمكن أن يكون أحدها متأخر في الزمن عن القرون المسيحية الأولى. والراجح أن مساكن الأموات هذه قد أريد لها أن تقام بالقرب من مأوي الأحياء. وبهذا، فلدينا إشارة غامضة جدا عن الزمن الذي كان فيه هؤلاء الأحياء يعمرون المأوي.

يتحدث ديودور الصقّلي Diodore de Sicile، فيصف -- نقلا عن كاتب نجهله – أخلاق الليبيين الساكنين، ليس بأرض البربر، بل بالصحراء الشرقية، أي اللصوص الذين يذهبون لخارج الصحراء ويقومون بحملات سريعة للنهب، فيقول [175]: «... رؤساؤهم لا يسكنون المدن، بل لهم

غنية بما يكفي من الكلأ، فلا تضطر القطعان لقطع طريق طويلة بين القرية والمراعي التي تساق للرعي بها. وكذلك حين يبدو الأمن شاملا فيمكن ترك القطعان في البادية في كفالة عدد قليل من الحراس. ولكن قلما كانت الحال هكذا، لأن تربية الماشية كما سبق أن قلنا تفرض عادة انتشار من يتعاطاها.

وعلى النقيض من ذلك، فإن المزارعين قد تجمعوا في العادة في أماكن بها الماء في متناول أيديهم، كما أن عائلاتهم ومدخراتهم من الحبوب وخيراتهم الأخرى قد كانت في أمان. والزراعة تتطلب مساحات أقل مما تتطلبه تربية الماشية. فالقرية يمكن أن تأهل بالسكان من غير أن تكون المسافات بعيدة جدا بين الدور والحقول. وزيادة على ذلك فإن هذه الزراعة البدائية لا تتطلب شغلا متواصلا إلا في حقبتين اثنتين: عند رمي البذور والحرث ثم عند الحصاد والدراس. إذن ففي القرية تكون السكنى الدائمة، أو أثناء أهم فصول السنة على الأقل، لأن المزارعين الذين يملكون بعض القطعان يمكنهم أن يهاجروا معها موقتا لمراعي بعيدة، ويعيشون بها في ملاوي خفيفة.

ولاشك أن بعض هذه القرى قد كان موجودا منذ عهد ما قبل التاريخ، والأجيال الجديدة إنما أضافت الزراعة إلى مشاغل أجدادها. بعضها الآخر أمكن أن يأتي بعض الملتجأت التي كانت غير صعبة المرتقى، ولا تقع بعيدا جدا عن الحقول المستثمرة وكان الماء بها غزيرا. وأخيرا فإن البعض منها ظهر للوجود في مواقع لم يسبق أن أقيم عليها شيء من قبل، وكان ظهورها متتابعا حسب اتخاذ الأهالي للحياة الزراعية وللنمو عددهم. وجلّ بربر التل انتهى بهم الأمر إلى أن يتجمعوا في قرى، ذلك هو ما لاحظه پْلين الشيخ Pline l'Ancien في القرن الأول

للميلاد. ومثل ذلك حدث، ولنفس الأسباب في بلدان أخرى بحوض البحر الأبيض المتوسط، في إسبانيا، وليغوريا وألبانيا[175].

ففي القرى التي كانت تُعدّ بالمئات، كان يعيش تقريبا جميع السكان الليبيين الذين كانت قرطاجة قد استولت عليهم في الماضي. على أن البعض من هؤلاء السكان وقعوا في قبضة مسنيسا. ففي عهد هذا الأمير ومن تولوا الحكم بعده، لابد أن يكون ازدهار الزراعة قد أوجد الكثير من القرى في نوميديا. كما يكون قد حوّل عدة تجمعات ضعيفة إلى حلل كبيرة Gros bourgs، حيثما كان الماء غزيرا وساعدت عليه خصوبة البوادي المجاورة.

إن القرى والحلل تعرف على العموم في النصوص اللاتانية بكلمة «كستيلا» castella (أي معاقل محصّنة)، بينما لفظ «آوبيدا» Oppida (مدينة أو موقع حصين) الذي يصاحبه غالبا، يدل على المدن. أما لفظ «ڤيكوس» Vicus (حلة، قرية، ضيعة)، فهو نادر الاستعمال. وهو يقابل في الاغريقية «خومي» χωμη. وكان پوليب الذي تبعه غيره يطلق اسم «بوليس» πολεις على كل من المدن والقرى. وكان بوسدونْيوس يلومه على انه رفع إلى مقام البوليس (المدن) أبراجا πυργοι بسيطة في إيبيريا. وهذا يوضح أن لفظ البرْج πυργος كان يمكن إطلاقه على القرى المحصنة كما يطلق على الملتجآت، بينما لفظ «فروريون» φρουριον هو أحسن ما يقابل «كسْتيلوم» castellum.

ويعرّفنا علم الآثار في بلاد البربر بوجود العديد من القرى أو الحلل Bourgs الأهلية القديمة. والكثير منها استمر مسكونا في عهد السيطرة الرومانية، وحتى فيما بعد، وغالبا حتى في أيامنا هذه. لأن منبع الماء الذي استجلب الناس، حافظ عليهم بالقرب منه. ويبدو أن هذه الأمكنة

كانت في أحسن حالات ازدهارها في عهد السلام الروماني. فتحولت بعض الكسْتيلات (القشلات ؟) إلى مدن، والدور والعمارات المبنية طبقا للطرائق الكلاسيكية، حلّت محل المباني الإفريقية. لكن بعض بقايا الأسوار التي نعثر عليها تحت الجدران الرومانية، وخصوصا الدلْمينات، وكلها قريبة جدا من المجال الذي تغطيه المساكن، تشهد بماض أقدم من انتصار الحضارة اللاتانية. ومن قبيل التهور أن تضم لهذه الحجج الأسماء الليبية التي حملتها في عهد الإمبراطورية عدة حلل ومدن ذات مظهر لاتاني. فهذه الأسماء تبرهن بالتأكيد على أن الأمكنة المسماة بها قد كانت مطروقة قبل العهد الروماني، لا على أنها قد سكنها سكان مستقرون.

وفي جهة أخرى، خرائب ذات مظهر بربري، أي خرائب لا يمكن على وجه العموم أن يؤرخ لها. ومع ذلك فتوجد إشارات هنا وهناك مثل حوض مكسو بإسْمنت من صنع روماني، أو بقايا بناية أمر ببنائها شخص مهم من أهل المكان، وكان البناء على أيدي رجال أتوا من الخارج واشتغلوا حسب أنماط قرطاجية أو لاتانية، أو مثل كسارة الخزف المصنوع في مصانع رومانية، أو مثل نقش ليبي لايمكن أن يسبق بكثير أو يتأخر كذلك بكثير عن عهد الميلاد. وأخيرا المدافن الأهلية، والدلمينات dolmens، والتلال الجنائزية tumulus والأبراج حيث نلاحظ الطقوس الجنائزية، ونعثر على الأدوات التي كانت مستعملة عند الليبيين في القرنين السابقين على عهد الميلاد أو القرنيين الموالين له.

في الأرض الوطيئة التي يحدّها الساحل التونسي الشرقي، والتي كانت جزءاً من المنطقة البونيقية، ثم من الولاية الرومانية المكوّنة سنة 146 ق.م، كانت هناك حلل واقعة بالسهل، وكان أكثرها مزودا بالماء من

الآبار. ولم يكن بالإمكان استثمار هذه الناحية الخصبة بغير هذه الطريقة. ولكن في نوميديا وموريطانيا حيث كان الأمن متزعزعا جدا، كانت القرى تبتعد عن الأراضي الوطيئة التي تعزوها التحصينات الطبيعية، كما كانت تبتعد عن الجوار المباشر للأنهار غير الصالحة الملاحة، والمعرّضة للفيضانات المفاجئة، ولا تعطي سوى ماء من نوع رديء، وتنتشر الحمى من حولها.

كانوا يتربعون فوق الشعاب وفوق السهول. ولكن غير بعيد، لكي يستطيع عمال الحقول النزول والصعود من غير أن يتعبوا، ودون أن يضيعوا وقتهم في مسيرات طويلة. وقريبا جدا من أحد هذه الينابيع التي ليست نادرة الوجود بحاشية المناطق الوعرة. وأخيرا يتربعون بموقع له تحصينات طبيعية، مثل لسان أرضي يحيط به وهدان يتصلان أو نتوء جبلي، أو منبسط صغير معزول. أو رأس جبل مخروطي الشكل. والرؤية يجب أن تكون واضحة بقدر الإمكان، ليقل حظ العدوّ من الاقتراب مباغتة. وفوق هذا، فإن المكان الذي لا تخترقه الرياح يكون مباءة للأمراض، ويكون كالفرن في فصل الحرارة.

وعلى قرب، فإن الوهاد والمنحدرات تعطي القهور والأحجار المتدحرجة الصالحة لبناء الدور. أما المواد الكبيرة الأحجام فيمكن اقتطاعها من المحجرات المفتوحة في الصخور. وكذلك فإن الغابات الموجودة بالجبل القريب تعطي خشب البناء والتدفئة، وتستقبل المواشي في الصيف. وعندما تنضم غراسة الأشجار إلى زراعة الحبوب، فإن الأراضي المنحنية المجاورة للقرية تساعد عموما على السقي الضروري، بل وفي أمكنة عديدة، فإن الزيتون البري لا ينتظر سوى التلقيح ليزيد من إنتاجه الهزيل.

يمكن أن نعيب هذه المواقع ببعدها عن المزارع وعن الطرق الطبيعية للمواصلات. ولكن سبق أن قلنا إن العقبة الأولى لم تكن يتنبه لها إلا في حقبتين من السنة، أي في الخريف وبداية الصيف. أما العقبة الثانية فلا شك أن أي أحد لم يفكر في التشكي منها لأن القرية لم تكن مطلقا مهيأة للعمليات التجارية، ولا لزيارات الأجانب الذين لا يجدون بها ولو فندقا يأويهم. إن القرية كانت عباردة عن معقل حصين يتجمع فيها لدواعي الأمن سكان ناحية فلاحية. ذلك هو ما يدل عليه بوضوح لفظ «كسْتيلوم» castellum الذي يسمى به في اللغة اللاتانية.

إن التحصينات الطبيعية القائمة بالموقع، تكاد دائما تكون معززة بخدمات من صنع الإنسان، مثل سور من الحجر يحيط بالقرية، باستثناء ما إذا وجدت صخور تقف عمودية وتقطع السور. فيكون مجرد جدار، أي حاجز عظيم يساير تضاريس الأرض، ويكون على العموم غير مزود بالأحياد والبروج. أما الأحجار، وهي خشنة أو شظيت تشظية خفيفة، فإنها تُضم دون ملاط، وقد تبلغ أحيانا حجما كبيرا. وطرائق البناء هي التي سبق أن ذكرناها للملتجآت.

في قرى ما قبل التاريخ التي نعثر بمواقعها على الرماد، وعلى بقايا الأطعمة والأدوات الحجرية، فإن المساكن كانت على الراجح عبارة عن أكواخ، عن «مَباليات» ثابتة ولا يستحيل وجود قرى، حتى في الأزمنة التي سبقت عهد الميلاد مباشرة، وكانت كُلاّ أو بعضاً من هذه الأكواخ المكونة من المادة النباتية، غير أن تزاحمها في مجال ضيق كانت فيه أخطار شديد في حالة نشوب حريق. ومن جهة أخرى فإن المواد لإقامة مباني من حجر كانت في متناول اليد. فالدار التي وصفناها بساحتها

المحاطة بسور، من الراجح أنها عند النوميديين والموريين وكذلك بالمنطقة البونيقية، كانت هي المسكن الاعتيادي لأهل القرى. ولا تقوم هذه الدور بجانب الطرق التي قد تحدد موقعها. وبكلام دقيق ليس هناك من طرق، والمجالات التي تقوم مقامها إنما هي فواصل ذات تعرجات غير منتظمة، وتمتد بين الدور. وتقوم هذه الدور تقريبا كيفما اتفق فوق المساحة التي يحيط بها السور. على أن عددا من هذه الدور غالبا ما يعتمد من الخلف على هذا السور فيدعمه. بل قد تتصل الدور على شكل سلسلة طويلة فيتكون منها السور المحيط، نتيجة اتصال جدرانها الخلفية.

وأحيانا تقوم في أعلى القرية قلعة، تكون ملجأ عندما يتجاوز العدوّ السور. ويمكن أن تستخدم القلعة أيضا خزينا مشتركا. وهنا لا شك موقع الرقيب الذي يعسّ على البادية.

هذه القلعة، إذا وجدت، ربما كانت هي المبنى العمومي الوحيد، مالم يكن أحد المحلات غيرها قد خصص لاجتماع الشيوخ. وأداء الشعائر السحرية والدينية لا يوجب وجود المعابد. وتعقد الأسواق بالبادية بخارج الأماكن المسكونة. فمن هذه الأسواق ومن المدينة عندما يحل المرء إليها يشتري ما لا ينتجه العمل بالمنزل. ولا يوجد دكّان بالقرية، بل قد لا يكون بها أحد من أهل الحِرف. فأيّ شخص ينصّب نفسه بانياً، ولكن عند الحاجة إلى رجل خبير حقيقة بفن البناء، فإنه يُستدعى مؤقتا من المدينة المجاورة، وكذلك الامر بالنسبة للنجارة. أما الحداد فهو منبوذ، وإذا استقر بمكان فإنه يعيش منعزلا، وفي العادة يعيش متنقلا بين القرى والأسواق.

3

على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلسي، بساحل مقاطعة طرابلس والجزائر والمغرب، تتدرج المدن التي أقامها قديما الفينيقيون والقرطاجيون[176]. وهي مواقع تجارية، وكانت أبوابا للممالك التي أصبحت هي جزء منها.

لقد ذكر البعض منها كلّ من سْترابون Strabon وبُمْبونْيوسْ ميلا Pomponius Méla، وهما كاتبان كانا يكتبان في العهد الإمبراطوري، ولكن فيما يتعلق بوصف السواحل الافريقية، فإنهما استخدما وثائق أقدم من عهدهما. ويمكن أن يضاف إليهما إشارات قليلة في نصوص أخرى، وبعض النقود البلدية، وبعض الوثائق الاثرية. على أنه حتى في غيبة البراهين المؤرخة بعهد الملوك، فالمعتقد هو أن مدنا كان وجودها متأكدا في العهد البونيقي ثم في العهد الروماني، لم تضمحل من الوجود خلال ذلك.

وكانت هذه المدن تؤلف ثلاث مجموعات: المدن التي كانت تقع على طول خليجي السدْرتيْن، والمدن التي كانت تتوالى من الشرق إلى الغرب بنوميديا، منذ الولاية الرومانية (بمصب نهر تسْكا Tusca بالقرب من طبرْقة Tabarca) حتى ملْوشا Muluchia (أي نهر ملْوية)، وأخيرا المدن التي كانت بجنوب وبشرق مضيق جبل طارق، وكانت تنتمي لموريطانية.

كان مسنيسا قد وسّع مملكته حتى سرْنيكا (مقاطعة برْقة) وبالتالي حتى هياكل فيلين Autels des Philènes، التي كانت حدا بين القرطاجيين والاغريق بداخل سدْرة الكبرى. على هذا الخليج ذكر سترابون ثلاثة أماكن، هي : شاركْس Charax، بُرج أُفْرنْتاس Tour d'Euphrantas،

وأسْبيس Aspis، وهي لم تكن مدنا. وبين السدرتَيْن كانت توجد لِبْتيس Leptis المستوطنة القديمة التي كانت لها منطقة ترابية واسعة، حسنة الاستثمار الزراعي، ولربما أن لِبْتيس استخدمت مركزا إداريا رئيسيا للسيطرة القرطاجية بمنطقة سَدْرة. وقد استعادت لِبْتيس حريتها في بداية حرب يوغرطة. ولكن أراضي الملوك الذين خلفوه كانت تتاخم أراضي لبتيس، بل قد تكون أحاطت بها إذا كانت تقدمت حتى «هياكل فلين» كما كان الشأن في عهد مسنيسا. وفي الجهة المقابلة كانت تساير الساحل حتى ولاية أفريقيا. وفي هذه النواحي ذكر سترابون اسم آبْروتُنون Abrotonon أي صَبْراتة Sabratha و(عدة مدن صغيرة أخرى). (ولاشك أن المقصود هنا هو كفارا Gaphara، وأويا Oea بين لِبْتيس وصبْراتة) ثم زوكيس Zouchis (على بحيرة البيبان) Bibân بمصْبغات الأرْجوان ومعامل التمليح من كل نوع. وعلى سَدْرة الصغرى بضع «مدن صغيرة» وبداخل الخليج «سوق كبيرة جدا». إسمها أهمل ذكره في مخطوطات سترابون، وهو بالتأكيد تاكبي Tacape أو تاكباسْ Tacapas (أي قابس) Gabes. وأخيرا مدينة أخرى صغيرة هي ثينا Thaine أو Thena وتسميها وثائق أخرى باسم Thaenae ثيناي، وكانت تقع على حدود المملكة والولاية الرومانية. وفي جزيرة مِنانْكس Meninx، التي هي جزيرة جَرْبة اليوم، كانت توجد كذلك «عدة مدن صغيرة». إحداها تحمل اسم الجزيرة نفسه. ومن وراء نهر تُسْكا Tusca كانت مدينتا طَبَرْقة Thabarca وتونيزا Tuniza (La Calle) اللتان يحتمل أنهما سكّتا نقودا مشتركة في القرن الأول قبل الميلاد، ومدينة هيبو Hippo (بالقرب من عنابة) كان اللاتانيون يدعونها باسم هيبوريجيوس Hipporegius (أي الملَكية) الموقع الذي قد يبدو له علاقة خاصة مع الملوك النوميديين، وتابْسوس Thapsus أو روسيكاد Rusicade التي ربما كان لها نقود

مشتركة مع هيبو، وشولو Chullu (collo) حيث عثر على مدافن من العهد الملكي، وإيجلْجيلي Igilgili (جيجلي) التي بها سراديب للدفن يمكن أن يؤرخ لها بنفس العهد. وصَلْداي Saldae – وعلى الأصح صلْداس – أي بجاية bougie التي يقول عنها سترابون إنها «ميناء كبير». وعندما أنشأ أوغسطس مستوطنات لقدماء المحاربين على طول السواحل، فإنه أقامها بمدن قديمة، جلها يدل على أصله باسمه الفينيقي، كما في إيجيلْجيلي، وصلْداس، ثم بعيدا إلى الغرب في روسازِسْ Rusazes (أي أزّفون Azffoun على ساحل بلاد القبائل الكبرى) وفي روسْكونْياي Rusguniae (بالشمال الشرقي لخليج مدينة الجزائر)، وگُنوكو Gunugu (غرب شرْشال)، وفي كرْتِناس Cartennas (أي تنيس). وترجع بعض نقود كنوكو للعهد الملكي. أما المدينة الفينيقية يول Iol (أي شرشال). فقد زادت أهميتها آنذاك. وهناك نقش نيوبونيقي Neo-punique، يبدو أنه يبرهن على أن حكم مسيبْسا Micipsa قد ترك فيها ذكرا حسنا. وكان أحد الملوك الموريين، وهو بوكوس Bocchus. ولاشك أنه بوكوس الصغير الذي كان معاصرا لقيصر، قد أقام بها قبل أن يجعلها يوبا الثاني عاصمة لمملكته باسم قَيْصرية caesarea. ويقول سترابون إن المدن البحرية كانت عديدة على طول أرض الماسيسيليين (بين رأس بوقَرْعون Cap Bougazoune ونهر ملْوية). ويمكن أن نضيف مدنا أخرى لهذه التي سبق لنا ذكرها، مثل إيكوزْيوم Icosium (الجزائر) وتيبازا Tipasa، والمكان الذي يسميه الرومانيون باسم Magnus Portus (بشرق وهران) إلى غير ذلك[177]. وهذه كلها لم تعط أي برهان دقيق على وجودها في عهد الملوك. وقريبا من مصب نهر التافنة Tafna فإن سيكا Sigga وهي مركز فينيقي مثل يول Iol قد كانت في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد إحدى عواصم الملك سيفَكْس Syphax. ولربما أنها

دُمّرت بعد ذلك حسب قول سترابون، ولكن هذا القول لا يبدو صحيحا، لأن معملا ملكيا لسكّ النقود قد كان هناك في عهد بوكوس الصغير.

أما في موريطانيا، ففي القرن الأخير ق.م، أو في بداية العهد المسيحي سُكّت النقود في روسَدير Rusaddir (أي المليلية) وربما في تَمودا Tamuda (غير بعيد عن تطوان)، وكذلك سكّتها زيلي Zili (أصيلة)، ولِكْسوس Lixus (على نهر لَكّوس)، وسَلا Sala (بالقرب من الرباط). ومدينة الشمس (Maqom Shemesh) أي لِكْسوس[178]، كان بها معمل ملكي لضرب النقود في عهد بوكوس الصغير، وفي عهد يوبا الثاني أيضا. ولكننا لا نعثر على أي آثر للمستوطنات التي أنشأها حنّون قديما، والتي أقامها قبل سلا بمصبّ نهر سْبو، ولا التي تدرجت إلى ما وراء رأس كنْتان Cap Cantin. فلاشك أنها كانت قد هجرت أو هدمت. ولعل إحدى هذه المستوطنات كانت مقامة حيث توجد اليوم مدينة الصويرة، ومع ذلك فإن الملك يوبا الثاني لما أنشأ هنا مصبغاته للأرجوان، قد وجد المكان على ما يبدو بكرا.

4

إذا كانت المدينة هي النطاق الذي كان يوافق الفينيقيين، فإن القرية كانت هي ما يوافق أكثرية المستقرين الأهالي. فالقرية محل لتجمع الفلاحين الذين يحروثون الأراضي المجاورة، وهي على العموم لم تكن مهيأة لتقبل سكانا كثيري العدد. إن الظروف المادية التي تحدّ من نموّها تعطي لسكانها المتعاقبين جيلا بعد جيل العادة والميل لحياة جماعية ضيقة، وللانعزال المحلي المتعارض جدا مع التفتح الاجتماعي الواسع لدى الغاليين مثلا. فالكثير من البربر لا يعيشون ولا يحلو لهم أن

يعيشوا إلا في القرى حتى اليوم، مثلا في بلاد القبائل، وفي الأوراس، وفي الريف وفي الأطلسَيْن المتوسط والأعلى.

ومع هذا، فإن النصوص الإغريقية واللاتانية تذكر أن الممالك الأهلية بها مدن : Oppida, Urbes, Poleis. وصحيح أن لفظ Polis قد جوزف بإطلاقه على القرى والحلل Bourgs، لكن حينما يستعمل لمقابلة XWMN (قرية) فإنه يدل حينئذ على المدينة حقيقة. وكذلك الأمر، حين يستعمل اللاتانيون ألفاظ Oppida, Castellaque فإنهم يقصدون أنكلا على المدن وعلى القرى.

وعلى أي أساس اعتمد هذا التمييز؟ أما بالنسبة للأجانب، فلا بد أن المسألة كانت مسألة إحساس : فالمدينة كانت محلا أكثر سكانا، وأكثر نشاطا، وله مظهر أحسن مما للقرية. وأما بالنسبة لنا، فيكاد دائما يستحيل علينا تقدير سعة المراكز المسكونة في عهد حكم الملوك، إذ لم يبق منها شيء، أو تقريبا لم يبق شيء تحت الخرائب أو البنايات المنتمية لأعصر أحدث عهدا. مع العلم أنه لا يلزم حتما أن المجال الواسع أو الضيق والمكسو بدور السكنى، هو الذي يكوّن المدينة هنا والقرية هناك. وفي الأراضي الكثيرة الخصب، كانت توجد لاشك بعض الحلل Bourgs التي كانت أكبر من بعض المدن التي أسسها في الماضي القرطاجيون بالساحل. فيمكن دون تردد أن نطلق اسم مدينة على المراكز التي كانت على غرار المستوطنات البونيقية القديمة قد سكّت فيها نقود مستقلة، وكذلك المراكز التي أخذت نظمها البلدية من هذه المستوطنات. ومن ناحية أخرى، يحتمل أن عدة قرى أهلية كان لها منذ ذلك العهد نظام بلدي، لهذا فإن الاستقلال الإداري لم يكن ميزة خاصة بالمدن.

في العهد الإسلامي كان يسهل معرفة المدينة بمسجدها الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة، وتعلن عنه مئذنته العالية، كما تعرف المدينة بمتاجرها وفنادقها وحمّاماتها، ونعرفها أخيرا بقلعتها.

إن بعض المدن في أعصر التاريخ القديم كانت لها معابد، ولكن من حيثما أردنا فليس لدينا أي برهان على أن المعبد قد أسس المدينة بمساعدة الأتقياء الذين اجتذبهم المعبد. بل على النقيض، يبدو هو وكأنه نتيجة للحضارة المدنية . فالمدينة إذن هي في الأساس مركز سياسي، أو مركز اقتصادي، وفي الأغلب إنها الإثنان معا.

إن المدينة مركز إداري رئيس Chef-Lieu أو عاصمة، فهي مقر للسلطة التي تمتد من هنا وتعم ناحية أو منطقة. وهي مركز إداري ومعقل لإحدى الأسر الأميرية التي نجحت في السيطرة على قبيلة كبيرة أو على مجموعة من القبائل، وإستولت في بعض الأحيان على السلطة بواسطة الغزاة الرحّل الذين لا يمكن أن يثبتوا في الحكم بدون نقطة ارتكاز. وهي موقع عسكري ومكان أمين استعدادا للمعارك التي لابد من خوضها من جديد. وهي رباط بين الغالب والمغلوب لما تحدثه هذه المدينة من جاذبية وإشعاع.

وأول اهتمامات أي رئيس لدولة بربرية جديدة هو إنشاء عاصمته أو عواصمه، لأن له عدة عواصم في الغالب. وهو يجعلها في المدن الموجودة فعلا، أو يحدثها أصلا، إما تكبّراً بالنعمة حيث إنه يريد أن يواري الماضي، وإما لأسباب عسكرية واقتصادية. لهذا كانت هذه السلسلة الطويلة المتعاقبة من العواصم التي يقدمها لنا تاريخ بلاد البربر في العصور الوسطى.

ومعلوماتنا سيئة جدا عن العصور العتيقة، فلابد أنه قد وُجدت عواصم أخرى غير التي ذُكرتْ، أي سيكا Sigga، سِرتا Cirta، يول Jol، زاما Zama، والتي يجب أن تضاف لها تِنْجي Tingi.

فزاما Zama لاشك أنها هي المدينة التي تسميها النصوص باسم زاما ريجْيا Zama Régia (أي زاما الملكية)، لكن نفس هذا الوصف نجده بجانب أسماء بعض الأماكن الأخرى. ولربما أنها في بعض الأحيان مجرّد ضيعات كبيرة يملكها الملوك. ولكن عندما يتعلق الأمر بمدن مهمة مثل هيبوريجْيوس Hipporegius، وبولا ريجّيا Bulla Regia، فيمكن الافتراض بأنهما نالتا هذه الصفة لأنهما كانتا مدينتين للإقامة الملكية. وكان لتهالا Thala قصرٌ ملكي. كان يوغرطة يُربّي فيه أبناءه، فقد كانت إذن عاصمة.

هذه المدن الملكية، كان بعضها يقع على الساحل، وتقع الأخريات بداخل الأراضي. وعلى غرار سلاطين المغرب الذين يسكنون تارة بفاس، وتارة بمكناس أو الرباط، أو بمراكش حسب ذوقهم، أو حسب ضرورات الحكم، فإن بعض الملوك أقاموا بالتعاقب في عدة عواصم. بحيث نجد سيفكْس في مدينة سيكا Sigga سنة 206 ق.م، وبعد ذلك بقليل نجده في سِرْتا.

وتكاد المدينة السياسية تكون حتما مدينة تجارية، وذلك بفضل إقامة الأمير وحاشيته بها، وبفضل زيارات أولئك الذين عليهم أن يتفاوضوا في الشؤون معه أو مع مساعديه وفي جهات أخرى، فالتجارة وحدها، المستفيدة من الظروف الجغرافية المناسبة هي التي أنشأت المركز التجاري وعملت على نموّه. أما القرية فليس بها صناعة ولا تجارة، بينما في المدينة المصانع التي تصنع الأسلحة، والأدوات

وغيرها من قطع الأثاث، والملابس والحلي، أو إن الوسطاء يتلقون هذه الأشياء من الخارج ويعرضونها للبيع. ولربما أن بعض هذه البضائع يُحمل ليباع في أسواق البوادي. ولكن الفلاحين يفضلون التزود من المدن فيفدون عليها، حيث يجدون الفنادق وأماكن المتع.

أما أهل المدن، فالمستطيعون منهم يبحثون عن رفه العيش بتأثيث منازلهم. وتشرف البنايات العمومية على دور السكنى. وبعد قرطاجة التي هدمتها رومة، كانت مدن فينيقية أخرى تقدم النماذج والمهندسين كذلك. وهكذا فإن السطح ذا الأصل الشرقي يحل محل السقف المسنم (له شكل ظهر الحمار)، الذي هو من مواد نباتية في المسكن البربري القديم، وقد خططت الطرق ولربما أنها رُصفت بالبلاطات. لقد سبق أن لاحظنا أن بعض الجهات بشمال إفريقيا تعوزها المدن حتى اليوم. وقد كان الأمر كذلك في عهود التاريخ القديم. حيثما لم تزدهر الحياة الاقتصادية، وحيثما لم تولد وتصمد الدول، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة. لكن وجود المدن يجد تبريره على الساحل، بسبب العلاقات البحرية التي يمكن تعهدها مع الخارج. ووجود المدن يجد تبريره أيضا بداخل البلاد، حيث الأراضي الخصبة التي تستثمر، ويعيش منها خلق كثير، هم بحاجة إلى مراكز تجارية، وكذلك في نقط الاتصال بين مناطق مختلفة، من جبال وسهول، وتل وبراري، أي في أماكن يستطيع فيها المزارعون ومربو الماشية أن يتبادلوا منتجاتهم بكل سهولة، وفيها تستطيع السلطة الملكية أن تراقب أحسن مراقبة حركات الرحل وأهل الجبال، وأن تجند الجيوش – بالمناسبة – من هذه القبائل المجاورة، وأخيرا فوجود المدن يجد تبريره كذلك في التشبيكات الكبرى للطرق الطبيعية، وكذلك حيثما كانت غزارة الماء، وفي مناطق جافة تفرض المرور وتحافظ على الحياة.

كانت المدن الفينيقية القديمة على طول الساحل تستجيب للاحتياجات. ولكن تأسست أيضا مدن أهلية، فكان بعض منها بالقرب من هذه المستوطنات الأجنبية، لأن مجموعتي السكان لاشك كانتا تريدان البقاء على الاتصال المتين، ولكن من دون أن تختلطا. على أن مدنا أخرى لم تكتف بدور التابع. ذلك أن تنْجي Tingi (طنجة) التي يرجع تأسيسها لتاريخ قديم جدا، لم يكن بها أبدا وعلى ما يبدو سوى مدينة أهلية. والكثير من هذه المدن الأهلية، مثل سيكا، يُول، تنْجي، ولربما هيبوريجْيوس تحولت إلى عواصم. فكانت معرضة لأساطيل الأعداء، بل وحتى للقراصنة. ولكنها كانت مفتوحة أمام حضارات ما وراء البحار، فكانت أكثر تمدنا، وتتمتع بمناخ ألطف مما لمدن الداخل.

ومثلما كانت القرى تحل محل الملتجات، فغالبا ما استطاعت هذه المدن أن تحل محل القرى، وذلك عندما كان يساعد على هذا التغيير الموارد المائية، وسعة المجال المتهيء، وسهولة الوصول، وأن يبرر التغيير بأسباب اقتصادية أو سياسية.

وسواء قامت هذه المدن أو لم تقم في أمكنة كانت فيما قبل مسكونة، فإنها لابد أن تستجيب قبل كل شيء لشرطين سبق أن ألححنا عليهما: أي أن يكون للمدن منبع أو منابع للماء[(1)]، وأن تكون في منجاة من الهجمات. وعلى غرار المدن في أسبانيا، فإن أكثرية هذه المدن تشغل مواقع مزودة بتحصينات طبيعية، سبق أن وصفناها أثناء الكلام على الملتجات والقرى كنهضية ذات جوانب وعرة، وكدية أو مرتفع بين شعبين، أو خاصرة جبل، ومنحدر جبل أو قمته. ولكن حيث إن المدينة ليست مأوى خاصا بمن يسكنونها، وحيث أنها لابد أن تكون حفية بمن

يزودونها، ويساهمون في نمائها، فيحترز من تنحيتها جدا إلى بعيد، وعلى علو يوجب صعودا مرهقا.

فمنذ هذه الحقبة، كما حدث من بعد في بلاد البربر المسلمة، كانت بعض المدن الكبرى تنتشر حتى في السهل. كذلك كانت الحال بالنسبة لمدينة زاما التي كانت عظيمة في عهد يوغرطة. وكادت تكون بالتأكيد هي زاما عاصمة يوبا الأول. فلماذا جعلوها على هذا الوضع؟ إننا لا ندري، لأن الموقع الحقيقي لهذه المدينة لا يزال مشكوكا فيه. ومن جهة أخرى، فإن وجود منبع غزير للماء هو الذي يدفع لإقامة المدينة على أرض تكاد تكون مستوية كما في توفيست Theveste (أي تبسة). فالسبب الأهم الذي كان يحدد اختيار بعض الأمكنة غير الحصينة طبيعيا، كان بدون شك هو سهولة الوصول. ففي السهل توجد عادة تشبيكات الطرق الكبرى، أقصد الطرق البربرية. لأن ملتقيات الطرق النهرية، لا يمكن أن تؤدي بإفريقيا الدور الذي أدته في غاليا Gaule.

وبكل مكان، وحتى لو أن مواقع المدن كانت تحميها، فإنها كانت محصنة، كما يبرهن على ذلك استعمال اللاتانيين للفظ «أوپيدا» Oppida الذي يرد في الاستعمال أكثر من لفظ «أوربيس» Urbes. والنصوص تذكر أسوار وأبواب فاكا Vaga، وسيكا Sicca، وسرتا Cirta، وزاما Zama، وكبسا Capsa، وتهالا Thala. وتوجد هنا وهناك بعض الخرائب من الأسوار (أسوار المدن Remparts). ومع أن الأسوار لم تكن متانتها تقاوم كل الطوارئ. فقد كان بناؤها على العموم يجري بعناية أكثر مما لأسوار القرى، كما كان يستحسن إقامة الأبراج بها على الجوانب. ففي فاكا، وفي مدن أخرى لاشك كانت توجد قلعة، هي عبارة عن مصنع للأسلحة وحرز للدفاع.

5

تفيدنا نصوص قديمة مختلفة أن المدن والقرى الحصينة (Castella وOppida) كانت كثيرة العدد بالقسم الشرقي من نوميديا، أي بالموسطة وبالشمال الغربي للقطر التونسي، وبالشمال الشرقي للقطر الجزائري. وكان مسنسا وهو يجرد قرطاجة عن أملاكها، قد استولى في إحدى المرات على أكثر من سبعين منها، كما استولى مرة أخرى على خمسين. وحسب سالّسْت وسترابون اللذين يحتمل أنهما ينقلان في هذا عن بوسيدونْيوس Poseidonius، كانت نوميديا الغربية (المحدودة غربا بملّوية) أقل ثروة بالعمارات وأقل ازدهارا، وكانت خيراتها أقل، مع أن أرضها كانت تغل أكثر وسكانها أكثر عددا. فكانت بها الحياة في المدن أقل ازدهارا. ونعلم عن طريق بُمْبونْيوس ميلا أن موريطانيا كان بداخل أراضيها مدن قال عنها إنها صغيرة. ولاشك أنها لم تكن عديدة، بحيث إنه لم يذكر منها سوى اثنتين أو ثلاث.

ومن خلف هذه المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط، فإن المدن كانت غير موجودة حسب نفس الكاتب، إذ ندخل في المنطقة الشاسعة الممتدة من المحيط إلى السدرتين، المنطقة التي كان سكانها الرحّل يعرفون باسم الجيتوليين Gétules. ويؤكد كتاب آخرون أن الجيتوليين لم تكن لهم مدن. لكنهم ابتنوا البعض منها في الجهات التي كانوا يجوبونها مع قطعانهم. وقد ذكر مؤلف كتاب "حرب إفريقيا Bellum Africum" منها مدينتين، ولم يذكر اسميهما. ومدن كبْسا Capsa، وثوفيْست Thuveste، وتهالا Thala كانت في جيتوليا Getulie، ولكنها كانت نوعا من الواحات التي هي بانعزالها، تبدو وكأنها مداخل للصحراء. فنحن نرى أن الحياة الحضرية - ومع بعض الاستثناءات - لم تكن تتجاوز التل، وأنها كانت في تناقص من الشرق للغرب.

أما القرى فكان وجودها مرتبطا بنمو الزراعة، التي كانت في عهد مسينيسا والذين عقبوه، قد انتشرت جدا في نوميديا الغربية، فمن المحتمل إذن أن هذه المنطقة لم تكن أشد احتياجا للزراعة من نوميديا الشرقية.

ونجد في بعض النصوص ذكرا لعدد قليل من المدن الأهلية التي لا نعلم شيئا عن مواقعها، بحيث إننا مثلا نجهل أين كانت تقع مدينة مسْكلا Meschela وأكْريس Acris وملْتيني Miltiné، وكلها مدن اجتهد الإغريق ليستولوا عليها في نهاية القرن الرابع ق.م[180]. كما أن نَرْكا Narca هي إحدى مدن مملكة مسينيسا. وهناك سوثول Suthul، وتَالا Thala الوارد ذكرهما في قصة سالُسْت عن حرب يوغرطة.

ومن ناحية أخرى فان كثيرا من الخرائب الرومانية، ذات الأهمية غالبا، توجد في المواقع الممتنعة التي وقع الاختيار عليها لاشك بسبب مالها من ميزات للدفاع، وبالتالي في حقب الاضطرابات، والتي نميل إلى التأريخ لها بما قبل – وليس أثناء – السيطرة الرومانية على إفريقيا، فتكون قوة العادة قد احتفظت في هذا المكان بذرية المقيمين الأولين به. لكن، إذا كان هذا الاستنتاج مقبولا بالنسبة لشرق بلاد البربر حيث هيمن السلام الروماني حقيقة طوال قرون، فإنه أقل بالنسبة لموسطة هذه المنطقة، كما أنه على النقيض تماما بالنسبة للغرب، حيث لم تستطع روما ضمان الأمن بصفة نهائية، وحيث بقيت الاحتياطات ضرورية كما في الماضي. وبالطبع فحيثما يمكن التصديق بموقع للرومانيين سابق على عهد سيطرتهم، فإن خرائب مبانيهم التي تكسو هذا الموقع لا تمكننا من تقدير سعته.

ولقد قلنا من قبل إن الأسماء الأهلية التي حملتها عدة مدن في عهد الإمبراطورية ليست حجة على وجود مراكز حضرية في عهد أقدم. أما

الأسماء البونيقية – وهي في الحقيقة نادرة – فهي أحسن الحجج في هذا المضمار، لأنها لم يقع إطلاقها إلا على أماكن لها نوع من الأهمية التجارية أو السياسية، أي على مدن.

وباستثناء خمس عشرة مدينة على الساحل ومدينتين أو ثلاث بالداخل، فإن النقود البلدية ذات الكتابات البونيقية تعزى لأصول غير محققة. والولاة الملقبون بلقب سوفيط Sufetes (سبط)، على غرار ما بالمدن ذات الأصل الفينيقي، حجة على وجود النظام البلدي. لكن الوثائق المتعلقة بالسوفيط، فإن عددا قليلا منها هو الذي يرجع إلى عهود الممالك الأهلية. أما الأخرى التي ترجع لعهد السيطرة الرومانية فإنها لا تشهد جازمة بوجود قديم لخطة السوفيط في الأمكنة التي عثر فيها على تلك النقود، إذ لا يعقل أن تكون رومة قد خولت قانونا من النوع البونيقي لمدن جديدة.

وكذلك لا يمكن الاستناد المتأكد إلى النقوش البونيقية التي تنتمي على العموم – باستثناء نقوش سرتا – إلى العهد الروماني. غير أن هذه النقوش، حيثما وجدت بعدد كبير، فالراجح أن لغة القرطاجيين، أي لغة التجارة، واللغة الرسمية في عهد الملوك، قد ترسخت منذ هذا العهد في الوسط الحضري، وأنها لم تكن به لغة التخاطب فحسب، بل لغة كتبت، وذلك هو ما أكسبها قوة لتقاوم من بعد مقاومة طويلة إلى حد ما اللغة اللاتانية.

وبقايا البنايات التي من الطراز الإغريقي البونيقي، هي وثائق أشد إقناعا أيضا، لأن ما كان من بينها أحدث عهدا لم يكن متأخرا عن بداية العهد المسيحي. فهذه الأعمال الفنية كانت قائمة بمحلاتها في مدن أحسن منها، أي مقامة في قرى الفلاحين. أما المدافن الأهلية –

وجميعها لا يرجع لعهد الملوك – فكانت تقام قرب القرى وبالقرب من المدن، بل وتقام أيضا بعيدا عن الأماكن المسكونة.

وختاما، إننا بما لدينا من المواد، يستحيل علينا أن ندرس بصفة دقيقة توزيع المراكز الحضرية والحلل في المملكتين النوميدية والموريطانية. لذلك فلابد من الرضى هنا بملخص ناقص جدا.

6

بشمال نهر مجرْدة، قريبا من الولاية الرومانية، كانت فاكا Vaga (هي اليوم باجة) تقوم على المنحدرات الوعرة لمرتفع يشرف على واد عريض. وقد كانت واحدة من بين آخر ما استولى عليه مسنيسا من يد القرطاجيين. وقد كانت الدور المغطاة بسطوح يحميها جدار محيط حصين. وكانت تنزل متدرجة بأسفل أحد المعاقل الذي لاشك أنه كان يقوم بالمكان الذي قام به الحصن البيزنطي والقصبة في العهد الإسلامي. وعلى بعد بضع مئات من الأمتار بالشمال الغربي عثر على عدد كبير من السراديب الجنائزية، التي حفرت أو حفر قسم منها على الأقل – في عهد السيطرة النوميدية، غير أن هيآتها وآثاثها هو ما يمكن أن نلقاه في مقابر إحدى المدن البونيقية. ولربما أن التنظيم البلدي كان هو أيضا بونيقيا. وقد وصف سالُسْت مدينة «فاكا» Vaga بأنها «مدينة كبيرة وغنية». ويضيف قائلا إنها كانت السوق المطروقة أكثر من غيرها في جميع المملكة، وقد رأينا أن كثيرا من التجار الإيطاليين كانوا بها لاشك يتعاملون في الحبوب خصوصا. وفي سنة 108 ق م، هدم القائد ميتلوس Métellus مدينة فاكا(181). ولا ندري هل استقامت قبل تحول نوميديا إلى ولاية رومانية.

والسهول الكبرى – سهول «سوق الأربعاء» وسهول «سوق الخميس» التي يمر بها نهر مجَرْدة – والتي هي الخزين الحقيقي للحبوب بشمال القطر التونسي، انتزعها مسنيسا من يد قرطاجة. ويذكر بوليب Polybe أن بها بولْيِيس Poleis وهو لفظ يطلقه على الحلل كما يطلقه على المدن. أما «بولا» Bulla فهي حقيقة مدينة، كانت تشغل هضبة في سفح جبل الربيع Rebia على مسافة قليلة شمالي النهر. أما الخرائب التي هي بدون شك خرائب حمّامات رومانية، فيجب التخلي عن القول مع تيسو Tissot بأنها خرائب قلعة نوميدية. ولكن وقع العثور حول هذا المكان على عدة مدافن تؤرخ بالعهدين البونيقي، والملكي. وهي إما مقابر من النوع القرطاجي، وإما دُلْمينات أهلية. وفي سنة 81 ق.م التجأ إلى بولا Bulla الملك المغلوب هِيرْباس Hiarbas فالصفة Régia (أي الملكية) التي يضيفها اللاتانيون إلى اسم المدينة، ربما تشهد بأنها نالت مرتبة العاصمة.

وفي اتجاه عالية النهر، على الشاطئ الأيسر لمجَرْدة عند خصر أحد الجبال، كانت توجد مدينة سيميتو Simitthu (شمْتو). وقد سبق أن تحدثنا على مقالع المرمر بها، التي كانت تستغل منذ العهد الملكي. كما أن بقايا معبد كبير ذي هندسة اغريقية يمكن التاريخ له بالقرن الثاني أو الأول ق م، تشهد بأن مدينة كانت موجودة في سيميتو. وعلى مسافة قليلة في اتجاه الشمال الغربي، على واحد من اخر المنحدرات التي تحد من الشمال السهول التي يخترقها النهر، فإن ثوبُرْنيكا Thuburnaca (أي سيدي علي ابن قاسم) يظهر أنها هي أيضا كانت مدينة قديمة، انتشر بها استعمال اللغة البونيقية.

أما الناحية الجبلية الغابوية وذات المناخ الكثير الرطوبة، الممتدة بين نهر مجَرْدة والبحر، جنوبي طبَرْقة Tabarca والقالة La Calle، والتي

تمر بها اليوم الحدود التونسية الجزائرية، فقد كانت أقل صلاحية للزراعة منها للماشية، ولكن لنوع من تربية الماشية يمكن أن يتعاطاه سكان يكادون يكونون من أهل الحضر. فقد تأسست في هذه الناحية قرى هنا وهناك، ولكن الراجح أن المدن كانت بها قليلة جدا. لكن يبدو أن هذه الناحية هي التي يحسن البحث فيها عن فليني Phelliné، (مدينة شجر الفرنان Chenes Lièges)، التي استولت عليها جيوش أكاثُكْليس Agathoclès في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وبالتأكيد فإن مدينة نوميدية قديمة بالجنوب الغربي لنقالة قامت على هضبة مشرفة على الشعب الطويل للشافية بكهف بني فرج Kef Beni Fredj هذه المدينة التي كان الرومانيون يكتبون اسمها ثوبْليوم Thublium لم تتخل في عهد الإمبراطورية عن الاستخدام الواسع للكتابة الليبية. وتوجد حولها المدافن الأهلية التي هي على شكل الدلمينات.

ومن قبيل الخيال ادعاء العثور على الخمسين (مدينة) بمنطقة قريبة من ثوكا Thugga التي سقطت في يد مسنيسا. ولاشك أن أهمها هي ثوكا (دُقّة Dougga) التي كتب اسمها TBGG أو TBGG' في بعض النقوش الليبية. فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مدينة ذات رقعة واسعة. ولم تتضع مكانتها تحت سادتها الجدد الذين رضيت بسيطرتهم. وبعد موت مسنيسا بتسع سنين فإنها أقامت له ضريحا بصفة رسمية. وقد كانت المدينة الليبية واقعة على إحدى الهضبات التي تنتهي بمهاوي عند الشرق والشمال الشرقي، وتنتهي عند الجنوب بنتوء صخري دقيق. وقد بقيت آثار من سور المدينة وبه أبراج، كما توجد دُلْمينات خارج هذا السور. وعلى بعض مئات من الأمتار إلى الجنوب، يقوم الضريح الشهير، ذو الطابع الاغريقي البونيقي، الذي يرجع تاريخه لاشك للقرن الثاني قبل الميلاد. وكانت بثوكا Tugga مبان أخرى من نفس الطراز

كالأضرحة والمعابد، كما يبرهن على ذلك وجود كسارات هندسية. ولربما أن معبدا أو معبدين اثنين لبعل حمّون Baal Hammon قد أقيما قريبا جدا من المدينة. وكانت اللغتان البونيقية والليبية مستعملتين - كلتاهما - في النقوش وحتى في التدوينات الرسمية. ومع أن ثوگا كانت متشبعة بالحضارة القرطاجية، فيبدو أنها صمدت كي لا تفقد نهائيا مظهرها الأهلي، كما يبدو أن نظمها البلدية لم تنقل حرفيا عن نظم المدن البونيقية.

حول ثوگا حلت مدن رومانية محل بعض الحلل والمدن الليبية. وذلك هو ما يشهد به، بصفة أكيدة - إلى حد ما - اختيار المواقع. ووجود الدلّمينات التي تتكون منها أحيانا مدافن كبيرة، وأخيرا بعض القطع ذات الطابع الهندسي الاغريقي البونيقي. ومع أننا لا نقصد التمام أو الاستيفاء، فسنذكر بالجنوب الشرقي لدڤة Dougga : أگْبيا Agbia. وفي الجنوب الغربي أونوباري Aunobari، وأبعد من ذلك مُسْتي Musti. ومن الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي، نذكر ثبورْسيكو Thubursicu (أو ثيبورْسيكو Thibursicu) بور Bure (ثبورْسيكوبور Tubursicu Bure) وثيميدابور Thimida Bure وثيگيبابور Thigibba Bure. ولربما أن اللفظ «بور» المشترك بين هذه المدن الثلاث، كل يدل على الناحية التي كانت المدن توجد بها.

في سالُسْت نقرأ أن الملك هيمْبسال ابن مسبْسا، أقام في (قلعة ثرْميدا in oppido Thirmida)، في دار جعلها أحد النوميديين رهن إشارته. ولربما يجب إصلاح اللفظ بثيميدا، فتكون هي ثيميدابور وفي بعض الوثائق التي من العهد الروماني نجد ذكرا لمدينة اسمها ثيميداريجْيا Thimida Regia. كما أن نقشا لاتانيا، عثر عليه بخرائب في

شعب وادي مَلْيان مجاورة لأُدْنة Oudna، هي عبارة عن إهداء لشخص كبير يحمل ألقابا، من بينها أنه : Curator splendidissimae rei publicae Thimidensium Regiorum وذلك هو ما دفع إلى استنتاج أن ثيميدا ريجيا كانت في هذا المكان. لكن حيث إننا هنا في الولاية الرومانية التي تكونت سنة 146 ق م فإن لقب ريجيا Régia أي الملكية يصعب تفسيره إذا كان يعني ملك نوميديا. فلابد إذن من التسليم بأن «ثيميدا ريجْيا» هذه كانت في الحقيقة مقامة بعيدا عن المكان الذي عثر فيه على الإهداء. وفوق هذا، لاشيء يسوغ لنا القول بأنها هي «ثيميدابور»، وبأنها هي ثريميدا Thirmida التي ذكرها سالُسْت، إذ لاشك أن هذه لم يكن بها قصر ملكي، لأن هيمْبسال اكتفى بالنزول في دار لأحد الخواص.

في الجنوب الغربي لناحية دُقَّة Dougga، فإن سيكا Sicca (أي مدينة الكاف) كانت أهم مدينة في أرض ذات سهول شاسعة. وكانت تقع بملتقى عدة طرق طبيعية وعلى مسافة قليلة من جيتوليا Getulie وكانت بالقرب من نبع مائي غزير، تشغل موقعا قويا على المنحدرات الوعرة والصخرية لجبل الدير Dyr، الذي يسرح منه البصر في المدى الواسع. وتذكر بعض النصوص سيكا Sicca في أواسط القرن الثالث وفي عهد حرب يوغرطة. فقد كان مَرْيوس Marius أثناءها مساعدا لميتِلّوس Metellus وذهب إليها للتزود بالقمح. والراجح أن «سيكا» كانت سوقا يتردد عليها الناس بكثيرة، وفيها كان الأجانب يزورون معبدا لأحد الآلهة التي شخص فيها اللاتانيون فينوس Venus، وهو معبد كان النساء يتعاطين فيه البغاء. وليس مؤكدا أن هذا العمل كان أخلاقا فينيقية مستوردة.

وفي العهد الروماني كانت الحلل Agglomérations المحيطة بسيكا Sicca تابعة لها. ولربما أن هذه الأرباض أو الحلل كانت موجودة منذ العهد النوميدي. ففي أحدها، وهو أوبوزا Aubuzza، وقع العثور على تاج عمود هو عبارة عن كسارة من آثر إغريقي بونيقي. وكذلك في الجنوب الشرقي لسيكا، كانت لَريس Lares التي كان لها بعض الأهمية في نهاية القرن الثاني، لأن مَرْيوس استودع بها أقواتا ونقودا لرواتب جيوشه. وفي الجنوب كانت آوبا Obba، ببنايات ذات هندسة بونيقية وإغريقية، ومدينة كانت تحمل هي أيضا اسم ثوكا Thugga (وكان الرومانيون يسمونها باسم Thugga Terebenthina. وكذلك الثيبوروس Althiburos التي أعطتنا نقوشا بونيقية (أحد هذه النقوش يرجع ربما للعهد الملكي)، والتي خضعت لحكم السوفيط.

وكثيرة هي أيضا المدن والقرى التي كانت بجنوب أرض دُقّة على النجد التونسي الأوسط. فهنا هضبة صخرية تحمل مكْتار Mactar التي توجد بها بعض البقايا لسور من عهد ما قبل الرومان، وكذلك بعض الدلْمينات. وبها نلاقي السوفيط، ولعلها خطة دخلت للمدينة قبل السيطرة الرومانية، كما نلقى بها نقوشا هي برهان على الاستخدام الواسع جدا للغة البونيقية.

وفي نفس الناحية التي بها مكّتار، نجد دلْمينات تشهد بقدم حمّام الزواكْرة Hammam-Ezzouakra، ومغْراوة Magraoua، ويلسْ Ellès، وقصر مْدوجة Ksar Mdoudja، وهنْشير الجَمال H.Djemal، وكسْرة Kessera (وكانت تُسمّى كوسيرا Chusira)، وهنْشير الكّسيبة Henchir el-Ksiba، وهنْشير مْديد H.Meded (وكانت تسمى ميديدي Mididi). وفي «ميديدي» كما في مكّتار تحدث الناس وكتبوا اللغة البونيقية أمدا طويلا.

في هذه الجهة، وغير بعيد عن سيكا، كانت توجد زاما Zama التي نجحت في مقاومتها لميتلوس Metellus، أثناء حرب يوغرطة. يقول عنها سالُسْت : «مدينة كبيرة، غنية بالأسلحة والرجال، وهي معقل لقسم المملكة الذي تقع به». ويضيف قائلا «هذه المدينة مقامة في السهل، وهي محمية بفن اليد أكثر منها بالطبيعة»[182]. وهذا توضيح يمنع من القول بأنها إحدى المدينتين، اللتين عرفتنا بهما نقوش لاتانية. فإحداهما زاما (الجمة Jama) الواقعة على بعد 30 كيلومتر في خط مستقيم شمالي مَكْتار. والثانية زاما بسيدي عمر الجديدي (على 40 كيلومترا شرقي الأولى)، لأن هذه وتلك تقعان في أرض وعرة.

أما زاما التي يتحدث عنها سالُست فلاشك أنها كانت هي زاما التي كانت عاصمة ليوبا الأول. فهذا الملك أقام بها سورين جديدين حول السور الذي كان بها من قبل وهو احتياط له ما يبرره في مكان تعوزه التحصينات الطبيعية.

ومن جهة أخرى، فإن عاصمة يوبا كانت دون شك هي زاما الملكية، «زاما ريجْيا» Zama Regia التي ذكرت في عهد الإمبراطورية، وكانت تقع بنفس الناحية مع زاما التي تشاهد خرائبها في الجمّة Jama. ولكن لابد من العثور على هذه المدينة الذائعة الصيت.

في الجبال الممتدة بالشمال الغربي للكاف، بين «سيكا» ونهر مجَرْدة، تقع مَسْكُلولا Masculula وكيويتاس بوپْثِنْسيس Civitas Popthensis بموقع وعر المندر، ويمكن أن يقال أنهما بربريتان، وقد قدمنا عددا من النصوص النيوبونيقية، ولربما أنهما تكونتا قبل العهد الإمبراطوري. وهناك شك كبير في أن تكون ناراكارا Naraggara الواقعة بسيدي يوسف إلى الغرب من سيكا، هي المدينة التي سماها بهذا الاسم أحد

مخطوطات تيت ليف[183]. أي المدينة التي استولى عليها سيپيون الإفريقي قبل أن يخوض ضد حنّيبعْل المعركة المعروفة باسم معركة زاما.

وبعيدا إلى الغرب وُجدت ثاگورا Thagura ومَداوْرُس Madauros اللتان كان وجودهما متأكدا جدا في العهد النوميدي. وتُعزى لثاكورا - على وجه من الاحتمال - قطعة نقود عليها كتابة بالبونيقية هي : ت . ك. ر. ن TGRN. أما مَداوْرُس فإن الكاتب أبولي Apulée، وهو أحد أبنائها، ويخبرنا بأنها بعدما كانت خاضعة لسيفكس، سقطت في يد مسينيسا.

كانت مداوْرُس على تخوم أرض الجيتوليين، وكانت التخوم تمر بموسطة ولاية قسنطينة، وتمتد على جملة من السهول الشاسعة المرصودة آنذاك لتربية الماشية. وبالشمال في التل الذي هو جبلي، ولكن تخترقه شعاب خصبة، كان النوميديون يعيشون في مدن وقرى حدث فيها تغيير عميق في عهد السيطرة الرومانية. وكلها شهادات غير سابقة على العهد الإمبراطوري، ولكنها تناسب إلى حد ما العهد الملكي. ذلك أن الحضارتين الليبية والبونيقية، في الجهات التي قامتا فيها منذ عهد بعيد، لابد أنهما ترسختا فيها بسهولة أكثر من دخولهما في مراكز جديدة، فيما رومة حينذاك سيدة نوميديا وحضارتها تغري رعاياها.

أما تيبازا (تفاش) Tipasa، وكَلاما Calama (قالمة)، فهل استعارتا اسميهما من اللغة الفينيقية ؟ لا يمكن تأكيد ذلك دون تردد، ولو أن هذين الإسمين يعثر عليهما بالسواحل التي تردد عليها الفينيقيون واستوطنوا بها. ويبدوا أن تيبازا كانت مدينة قديمة، ولاشك في أن مركزا مهما بسكّانه قد وجد في كَلاما قبل العهد الروماني. وليس الموقع هو الذي يبرهن على ذلك، لأن هذه المدينة كانت منتشرة على منحدر خفيف يسهل

جدا الوصول إليه، ومع ذلك فقد كانت هناك إحدى المدن، التي قبل أن تتحول لاتانية، فإنها اتخذت اللغة والأنظمة البونيقية واستعملتها عن سعة، وحكمها السوفيط.

يقول پول أوروز Paul Orose الذي يحتمل أنه ينقل عن تيتْ ليڤ، أن يوغرطة قد دحر بالقرب من كَلاما القائد الروماني أولوسْ بُسْتُومْيوس Aulus Postumius، الذي أغراه الأمل في الاستيلاء على الكنوز الملكية. ولم يذكر سالُسْت كلاما في هذا الموضوع بل حسب قوله كانت الكنوز في مدينة حصينة اسمها سوثول Suthul وكان بُسْتُومْيوس Postumius قد أجهد نفسه عبثا للاستيلاء عليها. ولما رفع الحصار، فإنه سار مُتتبعا لمدة عدة أيام وخلال أماكن شجيرة يوغرطة الذي كان يوهمه أنه يفر من أمامه. ولما باغته الملك اضطر للاستسلام، وكانت سوثول تقع في قاصية جبل وعر المرتقى، تحوطه أراض منبسطة يمكن أن تحولها الأمطار الغزيرة إلى مستنقعات. وهذا لا يتناسب مطلقا مع كلاما. وإذا أردنا أن نوفق بين أقوال أوروز وسالُسْت فلابد من قبول كون سوثول وكلاما كانتا مدينتين اثنتين متميزتين تماما إحداهما عن الأخرى، وأن الكنوز كانت في سوثول، وأن مسيرة بُسْتُومْيوس بعد رفعه للحصار قادته إلى قرب كلاما. ويحتمل أن كلاما هذه كانت هي كَلْما Guelma، لأن مهلة الأيام العشرة التي أعطيت لبُسْتُومْيوس كي يغادر نوميديا، تتطابق مع مسافة نحو 240 كيلوميترا التي كان لابد من قطعها قبل الوصول إلى الولاية الرومانية. أما عن موقع سوثول، فإنه مجهول.

أما مدينة سِرْتا Cirta (قُسَنْطينة) فإنها منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد كانت ولاتزال مدينة كبيرة في عهود السلام الروماني كما في عهد السلام الفرنسي، وتغلبت على ظروف وجودها.

ذلك أن الموقع الذي تشغله، هو ملتجأ قادر على أن يقاوم جميع وسائل الهجوم التي كانت متوفرة لدى القدماء. هذه الهضبة شبه المنحرفة، المائلة من الشمال للجنوب، هي السطح الأعلى لصخرة عظيمة، جوانبها التي على شكل جدران عالية تنتصب عموديا، وتمنع كل محاولة للصعود، والوصول إلى أعلاها لايمكن إلا من ممر ضيق بالجنوب الغربي. ومساحة الهضبة كلها ليس بها سوى بعض الجيوب المائية. بحيث إن المدينة لابد كانت تعتمد على الأمطار، قبل قيام الجسور المائية Aqueducs الرومانية وجرها المياه من عيون متفاوتة البعد عن المدينة. وفوق هذا فإن بعض الملوك العظام قد ارتضوا هذه القلعة ونظموها على أحسن ما استطاعوا.

من المقبول عموما أن سيرْتا Cirta[184] (هو في بعض النصوص سيرْثا Cirtha) اسم فينيقي الأصل، معناه «المدينة». وهذا أمر مشكوك فيه جدا لأن نقود سيرْتا التي كتاباتها نيوبونيقية، عليها الإسم مكتوب كما يلي: KRTN (أي Kirthan) بالكاف Kaph في الأول، بينما اللفظ الفينيقي الذي معناه المدينة، يكتب QRT (qart) بالقاف qaph.

لقد ذُكرت سيرْتا لأول مرة عند نهاية الحرب البونيقية الثانية، وكانت آنذاك عاصمة لسيفكْس ملك الماسيسيليين. وبعد اندحار سيفكْس وجد مسينيسا بالمدينة صفونة بعْل القرطاجية Sophonisbe زوجة سيفكْس. واعترفت رومة له بسيطرته على سيرْتا، فجعلها بدوره عاصمة له. وبها توفي سنة 148 ق.م. ثم كانت بعد ذلك دار الإقامة للملك مسيبْسا ولملوك آخرين. وفيها حاصر يوغرْطة آذربْعْل مدة شهور عديدة، وبقيت عاصمة حتى في عهد حكم الملك النوميدي يوبا الأول الذي كان مع ذلك يفضل سكنى زاما.

ويقول عنها سترابون : إنها كانت محصنة تحصنا جيدا، إذ كان يكفي سدّ الممر الضيق المؤدّي إليها. ومع ذلك، فيبدو أن أسوارا قد اقيمت في غير هذا المكان، على الحافات الوعرة للهضبة. وكانت هناك قلعة لاشك في القمة، حيث أقيم الكابتول الروماني فيما بعد، وحيث أقيمت القصبة العربية ثم التركية.

لقد كانوا يتباهون بثروة سرْتا. ومِسِبْسا بصفة خاصة جعل وكده في تجميلها. ولم يبق سوى كسارات هزيلة من مباني تلك الحقبة التي كانت مماثلة لاشك لضريح الخروب Mausolée du Khroub، الذي بني في القرن الثاني غير بعيد من المدينة العتيقة. وقد كانت سرْتا متفتحة على الحضارة الفينيقية، لأنها كانت دارا لإقامة الأمراء الذين كانت البونيقية هي لغتهم الرسمية. ولأنها كانت أيضا مركزا تجاريا عظيما. وخارج قرطاجة وقع بقُسنْطينة أكبر عدد من الكتابات البونيقية، من تقديمات للإلهين القرطاجيَيْن بعْل حمون Baal Hammon وتانيتْ بْني بعْل Tanit Pené Baal قدمها أناس تقريبا يحملون جميعا أسماء فينيقية، وجل الكتابات تؤرخ بالتأكيد بالعهد الملكي. ومن وراء البحار كان يأتي لسرْتا الإغريق والرومانيون الذين يجتلبهم البلاط والتجارة بل كان يزور سرْتا حتى الاثيوبيون الذين كانوا يعيشون خلف الأطلس المغربي.

وكانت منطقتها واسعة جدا. وحول المدينة كانت تقوم عدة حلل Bourgs، سمتها الكتابات اللاتانية باسم كسْتيلا Castella، وقد عرفت الازدهار في العهد الإمبراطوري، وهي في الشمال : كَلْديس Caldis، تيديس Tiddis، كلْتيانسْ Celtianis. وفي الشرق : ثْبيليس Thibilis، وفي الجنوب الشرقي : تيكسيس Tigisis، كادْيانْفلا Gadianfala. وفي الجنوب : سدّار Saddar، سيلا Sila، سيكوس Sigus. وفي الجنوب

الغربي : سوبْزْوار Subzuar. أرْساكال Arsacal. وفي الغرب : كَسْتيلوم إلفانْتوم Castellum Elephantum. مَسْتار Mastar. أوزليس Uzelis. فوا Phua. وغيرها مما لم تصلنا أسماؤها. وكلها كانت ماعدا بعض الاستثناءات القليلة تقوم بمواقع تبرهن على الاهتمام بالدفاع عن نفسها. لكن السلام الروماني جعل هذا الاهتمام دون شك زائدا. وحتى اليوم لا يزال يظهر في بعضها بقايا أسوار ما قبل الرومان. والدلْمينات ليست قليلة الوجود في جوانب هذه الأمكنة. بحيث أنها في سيلا Sila وسيكوس تكون مدافن عريضة استمر الدفن بها حتى القرن الثاني للميلاد. ولكنها ترجع لأزمنة اقدم. وكانت كسْتيلا منطقة سِرْتا لاشك موجودة بجميعها أو ما يقارب الجميع منذ عهد الملوك النوميديين.

وفي الجنوب كانت الحلل تتقدم حتى حاشية أرض الجيتوليين. فعند مدخل هذه الأرض، في ناحية العين البيضاء، تذكر «مسالك أنْطونان» Itinéraires d'Antonin على الطريق من سرْتا إلى توفيستْ Theveste (تبسة) اسم مكوماديبوس Macomadibus، الذي تذكره أيضا بعض قوائم الأبْرشيات. وهو اسم فينيقي علقت بآخره لاحقة لاتانية ومعناه المدينة الجديدة. ونجده مرة أخرى بساحل السدرتين. ولكن لم يكن القرطاجيون هم الذين أسسوا مكوماديس Macomades هذه. بعيدة جدا عن المنطقة التي استولوا عليها. فهي مدينة أهلية. أخذت اسمها من اللغة التي اتخذها الملوك رسميا. وكانت على ما يبدو من تأسيس الملوك. ويبدو أنها كانت تقع في المكان المسمى اليوم باسم «مْريكْبْ تْهالا» Mrikeb Thala حيث تشاهد خرائب رومانية كثيرة. والموقع سهلي، ولربما أنها كانت في أول الأمر سوقا مشتركة بين النوميديين والجيتوليين.

ونجهل أين كانت تقع المدينتان الجيتوليتان اللتان استولى عليهما القائد ستْيوس Sittius سنة 46 ق.م، أثناء الحملة التي مكنته من السيطرة على سِرْتا. فلابد أنهما لم تكونا بعيدتين جدا عن العاصمة النوميدية.

منذ أواسط القرن الثالث ق.م، كانت توڤيسْت Theveste (تبسّة) مدينة مهمة. وقد سقطت في يد القرطاجيين، الذين لاشك أنهم أضاعوها في نهاية الحرب البونيقية الثانية. ووجودها تبرره الطرق الطبيعية التي تلتقي بها وتجعلها ذات اتصالات سهلة مع سَدْرة الصغرى، وهَدْروميت (سوسة)، وموسطة تونس (وبقرطاجة من بعد)، وبِمَداوْر Madaure، وسِرْتا. وهي مبنية في أرض منبسطة، ولابد أنها استطاعت من عهد باكر أن تكون سوقا كبيرة.

وعلى نحو 55 كيلومترا إلى الشمال الشرقي لتبسّة Tébessa، تقع تهالا Thala، واسمها في البربرية يعني عين الماء، وهي حقيقة تتوفر على عدة عيون مائية. كما أن الدلمينات تشهد على أنها سكنت قديما.

واسم المكان: تْهالا (Thala أو تالا Tala) نعثر عليه في النصوص اللاتانية، ونظرا لمدلوله، فإنه لاشك كان واسع الانتشار. وقد كان ليوغرطة منزل ملكي في تهالا، «المدينة الكبيرة الغنية[185]»، والمحصنة جدا، التي كانت مستودعا لقسم كبير من كنوزه، والتي كان يربي فيها في رفاهية أبناءه الصغار. وعند أسوارها كانت تنبع بعض العيون، ولكن الأراضي المحيطة بها كانت أشبه بالصحراء، بحيث إن خمسين ميلا (74 كيلومترا) كانت تمتد بين تهالا وبين أقرب الأنهار إليها، وهذه المسافة بينهما كان ينقصها الماء تماما. إذن لقد كانت تهالا واحة حقيقية. وإذا كان يوغرطة قد جعلها إحدى عواصمه، فلكي يمسك في قبضته بالجيتوليين، الذين كانوا رعايا مراسُهم صعب، ولكنهم عند

الضرورة مساعدون لا غنى عنهم لجيوشه. وقد زحف القائد الروماني ميتلوس Métellus على تهالا. وبرغم مصاعب هذه الحملة، وبعد أن وقف عند النهر للتزود بالماء، فإنه بلغ المدينة واستولى عليها، ولربما أنه هدمها.

فهل تكون تهالا هذه هي تهالا العصرية؟ يستحيل ذلك، مالم يكن سالُسْت قد بالغ كثيرا في وصف الجفاف بالأراضي التي اخترقها ميتلوس. ذلك أننا حينما نبتعد عن تهالا العصرية في اتجاه الشمال الذي منه أتت الجيوش الرومانية، فلا لزوم لقطع خمسين ميلا للعثور على عيون مائية، أو على أنهار تزود بالماء ولو في الصيف[186]. إذن فنحن لا نستطيع أن نذكر بدقة أين كانت تقع تهالا الملكية، التي كان موقعها، كمايقول سالُسْت، مماثلا لموقع كَبْسا (قفصة).

وبالنسبة لكَبْسا (قفصة)، لا يسوغ أي تردد، لأن «قفْصة» بقيت هي المدينة الوحيدة التي لها بعض الأهمية بين موسطة القطر التونسي وبين الناحية الصحراوية بالشطوط الكبرى. ويصور لنا سالُسْت لوحة قاتمة عن القفار الموحشة المحيطة بها، أي المفاوز الجرداء العطشى. ولكن المدينة، وهي «كبيرة وقوية» كان لها داخل أسوارها عين تنميها مياه الأمطار، فتعطي للسكان الماء الشروب، وتساعد كذلك على العناية بواسطة السقي، ببعض الواحات التي بخارج الأسوار.

كانت كَبْسا مدينة قديمة، بل قيل عنها إنها من تأسيس أحد الآلهة، أي هِرْكول الليبي أو الفينيقي. وكان بها ملتقى للطرق الطبيعية المؤدية إلى الواحات المجاورة، إلى قابس Gabès، وإلى بيزاسين Byzacène ومكّثار وتبِسّة. ومن الجائز أن يكون القرطاجيون قد استولوا على كَبْسا. وقد كان يوغرطة يود الاحتفاظ بهذه المدينة، التي كانت لبعدها الشديد،

لا يسهل حكمها بالقوة، فكان يعاملها بلِيْن، وكانت معفية من الضرائب. أما مريوس Marius فقد أحرقها، ثم نهضت من بعد. وفي عهد حكم تْراجان Trajan كانت جماعة إدارية Commune يحكمها السوفيط. ولربما أن هذه الخطة التي هي في الأصل بونيقية، قد أدخلت إليها قبل هذا العهد بكثير.

أما في داخل التل الجزائري، فلم يرد ذكر لأي مدينة غربي سرتا قبل العهد الإمبراطوري الروماني. فمن الخطأ القول عن أُوْزا Auza - المستوطنة الفينيقية التي من القرن التاسع ق م - بأنها هي أوزيا Auzia المعروفة اليوم باسم أوْمال Aumale. لأن علم الآثار لا يساعدنا في التعويض عن سكوت النصوص. فهناك مدافن بالدلمينات يظهر أنها قد استخدمها أقوام لم يكونوا يعيشون في المدن، وهناك مقابر أهلية أخرى على جوانب بعض المراكز المتفاوتة القيمة. ولكنها على غرار تلك، أو يمكن أن تكون معاصرة للسيطرة الرومانية. أما النقوش البونيقية فغير موجودة، وكذلك الكسارات الهندسية التي يمكن التأريخ لها بعهد الملوك. إن نوميديا الغربية - كما قال ذلك سالْست عن صواب - كانت أقل ثروة عمرانية عن نوميديا الشرقية.

أما أن تكون المدن مفقودة منها تماما. فهذا أمر ليس محتمل الوقوع. فالسلسلات الجبلية التي يسكنها أقوام مستقرون مثل بلاد القبائل والريف، والبراري التي يجوبها الرحَل يمكنها أن تستغني عن المراكز الحضرية. ولكن لابد من وجود هذه المراكز في نقط اتصال وتلاقي الجهات المختلفة، وذلك عندما تتكون بينها علاقات اقتصادية، وعندما تكون الجهات منظمة تحت سيطرة مشتركة. وعلى سبيل المثال، يكاد يكون وجود مدينة ضروريا بين التل الشرقي للجزائر الذي هو

مجموعة عريضة من الجبال، وبين التل الغربي الذي تشغل القسم الأكبر منه سهول واطئة، بعضها قريب جدا من البحر، وبعضها الآخر يكون الشعب العريض لنهر شلْيف. هذه المدينة هي ملْيانة Miliana أو هي المدْية Médéa. فكلتاهما قد حلت محل مدينة عتيقة. ففي ملْيانة أسس أوغسطس مستوطنة رومانية في جهة لم تتحول إلى ولاية من ولايات الامبراطورية إلا بعد زمن طويل، ولاشك أنها لم تؤسس في مكان فارغ. فهذا المكان الذي نلاحظ به وجود بقايا للتأثير البونيقي، كان اسمه زوكبار Zucchabar، وهو اسم ربما دخل في تركيبه لفظ فينيقي، معناه السوق Marché.

وهناك مستوطنة أخرى أسسها أوغسطس في تُوبسُبْتو Tubusuptu، بالجنوب الغربي لبجاية Bougie في وادي صمام. وهناك أيضا يمكن الاعتقاد بوجود مدينة عتيقة، لأن الموقع نقطة تغلغل نحو بلاد القبائل الكبرى غربا، ونحو القبائل الصغرى شرقا، وهو أيضا مرحلة على إحدى الطرق الطبيعية النادرة التي تربط الساحل بالأراضي العالية (عن طريق الصومام ثم سهل مْجانة، ثم الحضْنة إلى بعيد).

لابد أن التجارة والسياسة قد فرضتا من عهد باكر وجود مدن على طرق طبيعية أخرى تنزل عمودية أو تسير موازية لساحل البحر الأبيض المتوسط. وإذا أردنا القيام ببعض الافتراضات، فيمكن البحث عن إحدى هذه المدن في اتجاه تْيارْت Tiaret، عند رأس الممر الذي يكونه شعب نهر الميناَ بين السهول العليا والسهل الأسفل لنهر شليف. ويبحث عن أخرى في اتجاه أومال Aumale، على الطريق الممتدة من الشرق إلى الغرب بحضيض سلسلة البيبان، وتصل ناحية سْطيف بناحية الميْدية، ويبحث عن أخرى في تلمسان الغنية جدا بالمياه، عند ملتقى

الأرض العالية بالسهل المحاذي للبحر، فوق الطريق الكبرى التي تربط بين الجزائر والمغرب، والتي كانت فيما مضى تربط مملكة الماسيسيليين بمملكة الموريين.

وما وراء الملْوية التي سمّاها القدامى «مولوشا»، تمتد هذه الطريق صوب البحر المحيط عبر ممرّ تازة. هذه المدينة المتربعة على نتوء صخري مشرف على السهل، تتحكم شرقاً في وادي أحد روافد نهر الملْوية، وغرباً في وادي أحد روافد نهر سبْو. وهنا أيضاً إشارة من الطبيعة إلى الإنسان على المكان اللائق لإنشاء المدينة. ولا نزال نجهل براهين التاريخ القديم لتازة، لأن المغارات الحجرية الكثيرة والمحيطة بها لا تحتوي على آثار أقدم من سنوات العصر الوسيط.

من بين «المدن الصغيرة» التي كانت موجودة بموريطانيا، يذكر بَمْبونْيوس ميَلا «أكثرها ثروة». ولكن النص المتعلق بالموضوع من كلامه مبتور في هذا المكان. فالمخطوطة تذكر قوله : (Procul a mari Gildavo du britania). ومن السهل على المرء أن يعرف جيلدا Gilda التي جعلتها مسالك أنْطونان في طريق تنْجي Tingi إلى فْلوبليس Volubilis (وَليلي) وتبعد عن هذا المحل الأخير بثمانية وعشرين ميلاً. ولربما أنها هي «جيلدا مدينة بليبيا» التي تحدث عنها الِكْسنْدر بوليهستْور Alexandre Polyhistor الذي هو أحد معاصري قيصر. وبعد جيلدا وقع التقدم باقتراح لقراءة ميلاً كما يلي : «فلوبِليس، بناسا Volubilis, Banasa» وهو تصويب ممكن جدا فيما يخص وَليلي، ومشكوك فيه جدا بالنسبة لبناسا. فقد كانت هذه تقع على نهر سبْو، بسيدى على بوجنون. وكان هذا أحد موقعين اثنين بداخل موريطانيا الغربية، بعث إليه أوغسطس بالمستوطنين. «وكانت المستوطنة الثانية قد أقيمت في بابّا Babba التي نجهل موقعها».

أما فُلوبِليسْ (وَليلي) فقد تركت آثارا قيمة، على مسافة قريبة إلى الشمال من مَكْناس. وارتفعت إلى بلدية في عهد حكم كْلود Claude، بعد ضم موريطانيا إلى الإمبراطورية بمدة قليلة. ولكنها قبل ذلك، كان يحكمها السوفيط. إذن فبهذا المكان، كانت توجد مدينة من الطراز البونيقي في عهد الملوك. ويحتمل أن اسم فُلوبِليس Volubilis، ذا المظهر اللاتاني، هو تغيير بتلاعب لفظي في الاسم الأهلي، الذي نجهل صيغته الحقيقية. وقد كانت فلوبليس تمتد على هضبة بين نهر وشعبين، ولكن في وضع لم يكن قويا جدا. ويمكن التساؤل : ألم تكن المدينة الأهلية في أزمنة سابقة تشغل، قريبا من مكانها الحالي، موقعا حريزا جدا، وهو الموقع الذي تشغله اليوم مدينة مولاي إدريس (بِزَرْهون) ؟

شروح وإحالات

1) أو يمكلها العرب الرحّل الذين حلّوا محلّ البربر.

2) هناك نصوص أخرى تذكر وجود المازيك بالصحراء. ولكن بالصحراء الشرقية بين مصر وطرابلس.

3) هيرودُت : ك 4، 181 وما بعده.

4) انظر Maspero في كتابه Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique, II, P.430, N. 3.

5) ديودور الصقلي : ك 3، 49، 2 - 5.

6) اللَّكْسيون الذين ترجمت اسمهم من الفرنسية Lixites يمكن أن يكونوا أجداد قبيلة إسلامية شهيرة هي أيت اللَّكْست الذين ثاروا أيام الموحدين بنفس الموقع الذي التقى فيه حنّون بأجدادهم الرعاة. انظر «أخبار المهدي بن تومرت» للبيْذق، ص 77 نشر دار المنصور بالرباط سنة 1979.

7) الصواب هو أن النّكريتيين والفاروسيين كانوا يعيشون في اتصال متين وأنهم كانوا على الجانب الجنوبي الشرقي للأطلس المغربي بين وادي دَرْعَة العليا ووادي كير، هذا وربما كانت مساكنهم تبعد وتصل حتى الأغواط بالجزائر (ولكن هذا ليس صحيحا). انظر Jehan Desauges P. 226.

8) هيرودُت ك 4، 183.

9) عن هؤلاء الأثيوبيين التَرغوليين Troglodytes، أي سكان الكهوف والمغارات انظر هيرودُت ك 4 . 183 وانظر اگْصيل في Hérodote ص 151-154.

10) انظر : De Lafosse : Les Noires de L'Afrique, P. 31- 34

11) انظر : Gsell, Hérodote, P. 211-212

12) ذَكَر معادن الفضة هنا كثير من الجغرافيين العرب، انظر مثلا البَكْري في وصف إفريقيا.

13) ميلانْوجيتول Mélangétules الجيتوليون المسْوادون هم إذن جيتوليون خلاسيون أي بِيضُ بشرتهم سمراء غامقة فهم مهجنون من البيض الجيتوليين السود. «... ويبدو أن مساكنهم كانت هي البسائط العليا والأطلس الصحراوي من الأطلس المتوسط المغربي إلى الأوراس... إلخ..) Desauges : Catalogue des tribus ... P. 223

14) سْترابون ك 17، 3، 3. يروى هذا الخبر ولا يصدقه. ولكن هل يمكن القول إن في هذا إشارة لثورة أو لهياج أحدثه الأهالي بجنوب المغرب للقضاء على المتاجر التي أسسها حنّون ؟..

15) أميان مرسلان : ك 29، 5، 37. وكذلك فإن آپيان Appien يقول أن بوكوس Bocchus ملك موريطانيا في نهاية القرن الثاني، بعث لحشر الجنوب من بين الأثيوبيين الذين كانت مساكنهم قرب آراضيه بسفوح جبال الأطلس.

16) لمّا نُحي مسِنيسّا عن عرش أبيه، قيل إنه التجأ إلى هؤلاء وأنهم مدّوا له يد المساعدة. انظر تيت ليڤْ : ك 29، 33، 9.

17) سترابون ك 33.5.2.

18) لاشك أن الكاتب حينما يذكر ليبيا فهو يقصد أرض البيض وهو شمال إفريقيا باستثناء مصر. إما عن وصول الإغريق، فيمكن أن يكون هذا العهد الذي عرفوا فيه رأس سولويس Cap Soloeis أي رأس كَنْتان على المحيط، ولربما أن هذا أيضا هو العهد الذي حدثت فيه رحلة الإغريقي المرسيلي أوثيمين Euthymène الذي سار بحرا مع الساحل المحيطي لإفريقيا حتى وصل لنهر مليء بالتماسيح وبأفراس النهر. وقال بنظريتَيْن إحداهما هي أن نهر النيل أصله من المحيط، والثانية هي دور الرياح الموسمية في فيضانات هذا النهر. والقول الأول هو نفسه الذي قال به العلماء الأيونيون في القرن السادس، كما أن الرأس الثاني شبيه برأيهم، ويضاف لهذا أن ما بين هذا القرن السادس وحملات الإسكندر المقْدوني التي لا شك أن رحلة أوثيمين متقدمة عليها بزمان فإن القرطاجيين لم يسمحوا للمرْسيليين بعبور المضيق.

19) أوردها هيرودوت في ك 4 من 168 على 204 وقد قمتُ بترجمتها إلى العربية بعنوان «هيرودْت يتحدث عن أرض المغارب». ولا تزال غير مطبوعة.

20) في مؤلف أبْيان، نجد الكتاب الثامن مخصصا لتاريخ ليبيا منذ نهاية الحرب البونيقية الثانية. والقسم الأول منه موجود لغاية تخريب قرطاجة. (أما الحرب البونيقية الثالثة فإن مصدر آبيان عنها هو بوليب). وفيما يخص القسم الثاني الخاص بالعلاقات بين الرومانيين والملوك النوميديين منذ سنة 146 فلم يبق لدينا منه سوى بعض الفقرات.

21) في الكتاب السابع من مؤلفه المتكون من أحد عشر كتابا.

22) سيقع الحديث عنه بتفصيل في الجزء الثامن من هذا الكتاب.

23) نذكر أن ليكوس الرهْجِيوني Lycos de Rhégion الذي عاش حوالي نهاية القرن الرابع قد كتب تاريخ ليبيا. وكذلك Libyca في ثلاث كتب على الأقل بقلم أكْثرويْتاس Agroitasالذي يحتمل أنه كان في قورينة وعاش في القرن الثالث أو الثاني. ولعل كتابه الذي يغلب عليه الطابع الميثولوجي كان محدودا في برْقة والنواحي المجاورة لها. ويعزى لكاتب يدعى هزْيانكس Hésianax مؤلف آخر باسم Libyca في ثلاثة كتب على الأقل. وكان أسم هذا الكاتب يذكر بمناسبة الحرب البونيقية الأولى، ولعله هو هيجزْيانكس Hégésianax، إغريقي من آسيا الصغرى كان يعيش في بداية القرن الثاني. وكذلك Libyca في أحد عشر كتابا بقلم بوزدونيوس ألْبِيا P. d'Olbia وهو من أهل القرن الثاني على ما يبدو. كما هناك Libica في ثلاثة كتب على الأقل بقلم الكْسندر بوليهسْتور A. Polyhistor الذي كان يكتب بإيطاليا في القرن الأخير قبل الميلاد. وقد بقي لنا منه عشرون فقرة ذكرها الكاتب المعجمي أتْيان البيزنطي Etienne de Byzance وتتعلق بأسماء جغرافية. وكذلك Lybica التي يعزوها أسْويداس Suidas إلى شارون اللَمْبساكي Charon de Lampsaque أحد كتّاب القرن الخامس غير أن هناك اشتباها في الأمر على ما يحتمل، وأن هذا الكتاب Libyca هو لشارون القرطاجي Charon de Carthage، لا لسميّه السابق.

24) سترابون في : ك 17، 3 من 1-23.

25) من أخطائه أنه في ك 17، 3، 12 يذكر أن أَذْرْبَعْل حوصر في أوتيكا وليس في سِرْتا وهو خطأ كبير من رجل كتب تاريخاً لاشك أنه ذكر فيه الحرب التي جرت بين يوغُرْطة وأَذْرْبَعْل. فهل يرجع الخطأ لأحد الناسخين ؟ كما ذكر أن المدينتين المعروفتين باسم هيبون Les deux Hippones هما مدينتان للإقامة الملكية Residences royales أي عاصمتان، وهذا لم يحدث قط بالنسبة لمدينة بِنْزرت التي كان اسمها هيبون دِيارْهيتوس Hippo Diarrhytus. وكذلك في ك 17. 3. 6 جزيرة كُسورا Cossura في موسطة خليج قرطاجة. ولعل ... اشتباه بجزيرة إيجيمور Aegimure (جزيرة الجامور) التي ... سترابون هي أيضا. كما ذكر بعد ذلك كسورا حيث يجب أن ... وكذلك في ك 17. 3. 20، ذكر «أضرحة فيلين» بسدرة الكبرى و... كان هو في ك 3. 5. 5 أخطأ ونقل خطأه هذا عن بوزدونيوس لاشك فجعل الأضرحة بين السدرتين.

26) كما تحدث بذلك هو عن رحلاته في ك 2. 5. 11، وفي ليبيا نفسها فإنه لم يتعد سرنيكا Cyrénaique أي برقة كما في ك 17. 3. 20.

27) في ك 17. 3. 15 تحدث عن إعادة بناء قرطاجة على يد يوليوس قيصر، وقال إنها عاد لها ازدهارها الكبير، ولكنه لم يقل إن ذلك الازدهار مرجعه إلى المستوطنين والمعمرين الرومانيين الذين بعث بهم أغسطس إليها.

28) في ك 17. 3. 19 يتحدث عن الإحصاءات السنوية التي تقوم بها الملوك والتي أعطت مجموع مائة ألف فرس، ولاشك أن هذا كان في مملكة كبيرة هي نوميديا، لأن الترتيب الذي جرى عليه سترابون وكذلك سياق الحديث يُخرج موريطانية من الموضوع. لكن مملكة

نوميديا كانت قد اندثرت من الوجود على يد قيصر سنة 46 ق م – وفي ك 17. 3. 13 يتحدث عن مدينة سِرْتا وكأنها لم تكن مستوطنة رومانية منذ 44 على أقل تقدير.

29) في ك 1. 34 يذكر موت كاتون Caton التي وقعت سنة 46، وكذلك في ك 1 . 30، و 34 يذكر مستوطنة سِرْتا ومستوطنة قرطاجة، وكذلك في ك 1. 20 و 33 يذكر أن إفريقيا تبتدئ غربا عند رأس ميتاگونيوم Cap Métagunium أو عند نهر أمْبساگا Ampsaga. ولم يكن ذلك واقعا حقيقة إلا بعدما تأسست سنة 46 ولاية إفريقيا الجديدة Africa Nova وربط مقاطعة سِرْتا بهذه الولاية ربما في سنة 44. بل يسوغ أن نتساءل عن هذا المصدر أليس راجعا إلى ما بعد سنة 38، لأن مِيلا Méla في ك 1 . 29 يقول أن مْلوشا (مَلْوِية) لم يعد حدا فاصلا بين مملكتين. وهذا فعلا هو ما حدث سنة 38 أي حين ضم بوكوس إلى مملكته مملكة أخيه بوگود Bogud، ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه الاشارة هي لمِيلا أي أنها غير واردة في مصدره. ولعل ميلا Méla يكون قد أشار هنا إشارة خفية إلى استيلاء روما على المنطقة قبل إصداره لكتابه بأربع سنين. فنهر مْلوشة (مَلْوية) لم يعد يفصل بين المملكتين كذي قبل. وذلك لسبب بسيط هو أنه لم يعد هناك وجود لأي مملكة.

30) Numismatique de l'ancienne Afrique, t. III, les monnaies de la Numidie et de Maurétanie (Copenhague, 1862), Supplément 1874. P. 61 et Suiv.

31) في هذا الموضوع يُرجع إلى : L. Charrier :

Description des Monnaies de la Numidie et de la Maurétanie. Macon 1912.

32) هيرودُت : ك 4 ، 180، وك 4 ، 172، وك 4 ، 176.

33) هو نيقولا الدمشقي في Fragon. Hist. Graec، الجزء الثالث، ص 462-3 الفقرة رقم 136، وبرغم الاضطراب الحاصل هنا في اسم العشيرة فلا شك أن الإسم المقصود هو اسم المخلو.

34) ك 4 .180 عند هؤلاء الليبيين يتحارب البنات بالحجارة والعصي في أحد الأعياد السنوية، ومنهن من يمتن بجروحهن فيقال لهن إذن إنهن عذارى مكذوبات.

35) هذه العادة ذكرها أرسْطو في «السياسة»، ك 2 ، 1 ، 13 عند بعض الليبيين من سكان الداخل، وذكرها ميلا Méla ك 1 ،45 وپْلين Pline ك 5 ، 45 الذي اعتمد على مصدر مشترك واشار لوجودها عند الكرامنطيين سكان الصحراء.

36) هيرودُت ك 4 ، 172.

37) البَكْري في وصف إفريقيا.

38) E. Doutté : les marabouts (Paris 1900). P.97. le même en tribu (Paris 1914), p. 183 et suiv. H. Basset dans Rev. Afr, L XII 1921, P.371. N 2.

39) ك 4 ،168 و172عند الأدرماشيين وعند النَصَمونيين.

40) Fraçm hist. Grace, III, P. 432, N 142.

41) أبو عبيد البَكْري : «المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»، ص 175 طبعة الجزائر بعناية البارون دوسْلان، سنة 1857.

42) هل الكاتب يجهل أو تجاهل أن النساء أيضا لهن حقوقهن من الميراث المبيّنة في الشريعة ؟ !

43) ك 3 ، 52 وما بعدها لديودور الصقلي.

44) أمْيان مَرْسُلان Ammien Marcellin : ك 29 ، 5 ، 28.

45) الواضح أن الرجل يجهل الإسلام أو يتحامل عليه. وإلا فأين ومتى وكيف نحّى الأسلام المرأة عن إقامة الشعائر كلها إلا برخصة تفرضها الضرورة كما هو معلوم لمن يعرف شريعة الإسلام ؟

46) هيرودُت : ك 4 ، 180

47) هيرودُت : ك 4 ، 172

48) سْترابون : ك 17 ، 3 ، 19

49) ميلا Méla : ك 1 ، 42

50) سالُسْت : «حرب يوغرْطة»، 80، صفحة 163 بترجمتنا.

51) كْلوديان : حرب جلدون Bell. Gildon 441 (الزوجات الألف Conubia milles).

52) بركوبيوس : حرب الوندال Bell. Vandalicum ك2، 10، 11، وك 2 ، 20، 24.

53) نفس المصدر : ك 2 ، 11، 13.

54) ربما باستثناء الكوانش Guanches الذين كانوا بجزر كناريا. فالأخباريون الأسبان قالوا عنهم : إن النساء كن تقريبا شركة عندهم، وإن الرجال كانوا بكل سهولة يتعاقبون عليهن. انظر كتاب L'évolution du mariage et de la famille ص 109، بقلم Letourneau.

55) كمثال على هذا نذكر ما رواه پْلين Pline في ك 17 .41 حيث قال إنه شاهد في مقاطعة البيزاكيوم Byzacium محراثا وقد شُدّ إليه في آن واحد حمار وامرأة عجوز.

56) لذلك فقلما تكون البنات – على ما يظهر – أبكارا عند زواجهن.

57) «حرب يوغرطة»، 80 صفة 163 بترجمتنا.

58) پْلين : ك 5. 17 يقول :

Gens maurorum attenuata bellis ed paucas recidit familias

«شعب المور... أضعفته الحروب عددا فاستحال إلى بضع قبائل».

ويقول النقش التونسي :

Mathun, Massiranis Filius, princeps familiae medid.. (?).

«مثون، رئيس قبيلة المديديين، ابن ماسران».

59) الواقع أن الكاتب يحتار – ونحن نحتار معه – في التمييز بين gens و familia و tribus. والواقع أيضا هو أن البربر قديما وحديثا كالعرب وغيرهم من أغلب أمم العالم القديم عاشوا على النظام القبلي الذي هو عبارة عن مجموعات أساسها الأسرة. والأسر تجتمع في أب تنتسب له فتكون القبيلة والقبائل تجتمع بدورها في تجمع كبير هو الشعب الذي ينتسب جميع افراده لجد أعلى مشترك بينهم. ولكي نجد مسكنا فهل نضع gens مقابل الأسرة ؟ وهل نضع القبيلة أمام familia ؟ وهل نجعل الشعب مقابل tribus ؟ ثم هل نجعل العشيرة مقابل clan. وإذا كان البربر كما قال الكاتب قد عرفوا الخروبة = إيخْسْ، فإنهم أيضاً عرفوا تَقْبيلت – القبيلة

وعرفوا الصف = Sof اللف Leff وهو مجموعة من القبائل، على أن الصف = اللف يغلب أن يكون عصبية سياسية فوق كونه رابطة دموية. وفي الأخير لاشك ان الانتساب – خلافا لما يراه الكاتب – يشارك فيه كل من البنت وأخيها على السواء. وطبعا فإن المسؤوليات الكبرى تقع على الذَّكر، لكن البنت تحتفظ بنسبها لمجموعتها التي ولدت فيها حتى بعد زواجها فتبقى دائما فلانة الفلانية التي هي زوجة فلان الفلاني.

60) هيرودُت : ك 4، 172.

61) باستثناء حالات الزنى حيث العقاب هو الموت.

62) ك 1، 42.

63) الحلَة وتجمع الحلل هي المكان الذي به الناس ويقيمون به، كما تطلق أيضا على المقيمين أنفسهم، وأنا أصطلح عليها فأجعلها مقابلة للفظ الفرنسي agglomération.

64) في القرن السادس للميلاد، قدم لنا كل من كورْبوس وبْروكوب أهالي منطقة طرابلس وجنوب تونس في حربهم ضد البيزنطيين وهم يسوقون معهم قطعانهم من الثيران والضأن والحمير والجمال. وكذلك فعل قبلهم بعدة قرون الليبيون الذين هاجموا مصر في عهد الفرعون منفْتاح Menephtah.

65) بروكوب : ك 12، 3، 4.

66) هذا المجمع يحمل اليوم اسما عربيا هو "الجماعة La jemaa".

67) هذا النقش هو : 17327.

68) الإسلام هو الذي جعل بعضا من البربر - لا كلّهم - يقبلون فكرة الدية والعمل بها.

69) پْلين الشيخ : ك 5 ،29 (نقلا عن وثيقة رسمية من عهد آوغسطس) يذكر 516 جماعة شعبية Populi وكان اكثرها قبائل. ونفس المصدر أيضا ك 5 ،30.

70) مثال ذلك في : 1، ص 58 .G.G.M عن رحلة سيلكْس 109 من أن قبيلة الماصيين Maces وهم من أهل ساحل السدرتين، كانوا في القرن الرابع قبل الميلاد يقضون فصل الشتاء مع قطعانهم بساحل البحر، وفي الصيف حين يقل الماء أو يجف يدخلون للداخل إلى الاعالي (أي إلى الجبال التي تكون القاصية الشمالية الشرقية للجبال في طرابلس).

71) كمثال على ذلك حول سنة 1129 ق.م اسم مراتو Maratou أبو ديدي Didi وكذلك حول سنة 1195 رئيسان لهما نفس الأسماء ديدي ومراتو وهما من أسرة واحدة لاشك، وكذلك حول سنة 1189 نجد اسم كبور kapour وهو رئيس أو شيخ أو قائد الماشْواشا Mashaouasha وابنه ماشاشالو Mashashalou. انظر : Hist ancienne des peuples de l'Orient classique Maspéro. T. I.I. P 431, 436, 471, 472.

72) ولا يستثني من ذلك إلا إذا كانت القبيلة كلها تنضم إلى صف واحد أي إلى حلف واحد وتحافظ على انضمامها إليه.

73) في عهد منفّتاح وعهد رمسيس الثالث هاجمت عدة قبائل إفريقيا الأراضي المصرية بقيادة مراتو Maratou ملك اللوبيين Lebou وكذلك بقيادة ديدي Didi ومراتو، وأخيرا بقيادة كابور kapour رئيس المشاواشا Mashaouasha. انظر التعليق السباق رقم 71.

74) نجد مثال ذلك في العهد البيزنطي مثلا في القائد كَرْكَسان Carcasan زعيم قبيلة الإيفوراس Ifuraces، انظر : 4-142، Corippus. Joh. VI.

75) الحق أن پْلين الشيخ يميز بموضوع بين هذه القبيلة وبين الجيتوليين الذين يذكر سالُسْت نقلا عن كتب هيمْبسال البونيقية أن غزوا نوميديا. ارجع إلى التاريخ الطبيعي: ك 5، 17.

76) حول هذه السلسلات من الأنساب وأصولها، أنظر R. Basset في مجلة Archives africaines، العدد 1 ص 3-9 سنة 1915.

[illegible] عن هذه القبائل Herodote بقلم المؤلف اسْطيفان اكْصيل [illegible] 139-12[illegible]. وفي نفس الكتاب الحديث عن قبائل الواحات بشمال [illegible] ص 139 155.

[illegible] عن النصمونيين. انظر هيرودُت ك 4، 172، 173، 182 وك 2، 32.

[illegible] «الأوديسة» لهوميروس، النشيد التاسع، البيت 84 وما بعده، وكذلك النشيد 23، البيت 311، ونجهل ماذا كان هوميروس يقصد باللوتُس Lotos ذي الفاكهة الحلوة كالعسل، التي كان يأكلها هؤلاء اللوتوفاجيون.

80) هيرودُت : ك 4، 187 و191.

81) هي الرحلة المنسوبة لسيلكْس.

82) في ديودور، ك 20، 38، 2 عن الزوفونيين، وفي ك 20، 57، 5 عن الاسفوديلوديين.

83) پوليب Polybe : ك 3، 33، 5.

84) أخطأ تيت ليفْ فذكر هؤلاء اللرْجيتيين Lergètes وهم من شمال إفريقيا باسم الإيلرْجيتيين Ilergètes الذين هم شعب أسباني وليس إفريقياً.

85) وفيما يخص قبيلة الأطلوليين الجيتوليين فسنذكرها فيما بعد، في صفحة 110 بترقيم الأصل الفرنسي.

86) يوليب : ل 15 ،11 ،1 ول 38 ،7 ،9.

87) لفظ Maurou'sioi نجده في ديودور الصقلي، وسْترابون، وبْلوتارك، وفي أَبْيانْ، وأَثيني، وآيليان، وهيرودت وپروكوب وغيرهم.

88) نجده عند الشعراء أمثال ڤِرْجيل، ولوكانْيوس، سيلْيوس إيطاليكوس، وكْلودْيان، وكوريبوس وغيرهم.

89) لستُ أدري لماذا يرفض المؤلف فرضية اشتقاق الاسم من آور بمعنى الجبل وهي على العموم نظرية Sabatier في (Sur l'écriture et la langue berbères) ص 27 الذي يرى أن اللفظ بونيقي معناه المغاور Troglodytes، مادام الأمر كله يدور على مجرد افتراضات ليس لأي منها ما يدعمه نهائيا على غيره.

90) يرجع هذا القول على أقل تقدير لحوالي العهد الميلادي لأن منيلْيوس Manilius يشير له في ل 4 ،727/8، وذكر هذا الاشتقاق أيضا بعض الكتّاب المحدثين.

91) Geographia sacra, Edition de Caen 1646, P. 544. في Bochard

92) نحن نعرف أنها ماحوريم Mahourim وليس موحاريم Maouharim.

93) پْلين، التاريخ الطبيعي: ل 5 ،17.

94) يذكر جُسْتان Justin في ك 21 .4 .7 أن حنّون الثائر طلب العون من ملك الموريين. ارجع للجزء الثاني، ص 255 وما بعدها بترقيم الأصل الفرنسي.

95) جُسْتان ك 19 .2 .4 يذكر حربا جرت بين القرطاجيين والموريين في أواسط القرن الخامس. وفي نهاية نفس القرن حشدت قرطاجة جنودا من الموريين المحالفين لها. انظر ديودور : ك 13 .80 .3.

96) يذكر تيت ليفْ : ك 29 .30 .1 أن باگا جعل 4000 من الموريين رهن إشارة مسنيسا لحمايته منذ موريطانيا حتى المملكة المسيلية.

97) سترابون : ك 17 .3 .6 و9 (مع أخطاء في المسافات).

98) ويضيف سترابون : ك 17 .3 .9 أن هذه الأرض للماسيسيليين وتحدها ملوخات، وخضعت على التوالي لسيفكْس الذي كانت عاصمته هي سيكا ثم خضعت لمسنيسا ومسيْبسا.. الذي

99) يقول پْلين Pline : ك 5 .19 كان الحد بين الولايتين الرومانيتين هو نفسه الذي كان بين مملكة بوكوس Bocchus ومملكة بوكود Bogud (المعاصرين لقيصر) وكانت سيكا في مملكة بوكوس بموريطانيا الشرقية.

100) يذكر بطليموس : ك 4 .1 .3 نهري مْلوخا Molochath وملْوا Maloua بينما هما في الحقيقة مجرى مائي واحد. ويقول أن مصب ملْوا يشكل الحد بين الولايتين : ك 4 .1 .4 وك 4 .2 .1 ونفس المعلومات نجدها في «مسالك أنطونان». ويذكر پْلين في ك 5 . 18 هذا النهر باسم مَلْوان Malvane، ويجعله كما هي الحال بين ريسّدير Rhysaddir أي مدينة المليلية وبين سيكا.

101) ميلا Méla : ك 1. 29 وپلين : ك 5. 19. ولكن ننبه إلى أنه قبل ذلك كله كان الماسيسيليون وملكهم سيفَكْس في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد قد وصلوا إلى سرْتا (قُسَنْطينة) واستولوا عليها وعلى الأرض خلفها جنوبا حيث يجرى نهر مْلاك الخالي. أفلا يذكرنا اسمه باسم مُلوشا – مُلوخات – أو مُلوكا ؟ خصوصا وأنه يقع في أرض المسيليين بنوميديا التي أصبحت ملكا لماسيسيلين !! هذا رأي يجب أن يدرس بتفصيل وعناية.

102) يذكر بطليموس في ك 4. 2. 2 اسم خوليماث Chylimath اسما لنهر شليف، فهل نفرض أن الاضطراب الحاصل هو التحريف الذي جرى من خوليماث إلى ملوخات (ملوشا) Molochath.

103) كمثال على ذلك نذكر المقاومة ضد الرومانيين التي يشهد لها على الخصوص إقامة معسكر فيلق إفريقيا في لَمْبيز Lambèse بالشمال الغربي للسلسلة الجبلية، والحرب ضد البيزنطيين في عهد جُسْتينْيان، ومقاومة الفتح العربي بقيادة الكاهنة ملكة جبال الأوراس، وثورة ابن كيداد صاحب الحمار ضد الفاطميين في القرن العاشر للميلاد (الرابع الهجري).

104) Hésianax. dans F.H.G. II. P.70. N 11، وانظر كذلك الجزء الثالث من اكْصيل ص 83 التعليق رقم 3 بترقيم الأصل الفرنسي.

105) مثال ذلك الأرض التي انتزعها كايا (ج 2، ص 96 بترقيم الأصل الفرنسي). والأرض المختلف عليها بين سيفكْس وكايا (ج 3، ص 182). وكذلك فإن سيفكْس كان على ما يبدو في خلاف مع باكا ملك موريطانيا الذي دفع لمسنيسا جيشا يخترق به مملكة الماسيسيليين (ج 3، ص 191). وكذلك في 205-204 كان سيفكْس في حرب ضد جيرانه (ج 3، ص 197 التعليق 1).

106) ارجع الجزء الثالث ص 6-193 وكذلك ص 9، وكذلك 12، وكذلك 13 وكذلك 20. وپْلين الشيخ Pline l'Ancien في ك 20 .22.

107) نقلاً عن سْترابون في ك 17 ،3 ،6 وكذلك 9، وكذلك 12، وكذلك 13 وكذلك 20. وپْلين الشيخ في ك 20 ، 22.

108) Bates, The Estern Libyans, P 212 - Gsell, Hérodote, P 70.

109) Hérodote, II, Conf. Gsell, l. c, p17.

110) هيرودُت : ك 4، 197 وانظر أيضا : اگْصيل في كتابه عن هيرودُت، ص 113، 118.

111) L. Müller : Numism. de l'ancienne Afrique, 1, P. 130 - 5 Supplément, Page 21 - 23.

والملاحظ أن الكثير من هذه النقود قد ضُربت على نقود قرطاجية وعلى النقيض من ذلك فإن كثيرا غيرها هو ضرب قرطاجي يغطي الأصول الليبية.

112) هيرودُت : ك 4، 181، 186، 187، 188، 190، 191، 192.

Fragm. Hist. Grec. 1, P 23, N 304.

1, P 57, N 93, Pyth, IX, 123.

113) پـولـيـب : ك 1، 19، 3، ك 1، 31، 2، ك 2، 65، 3، ك 1، 74، 7، ك 14، 1، 4.

114) ديودور الصقلي : ك 13، 80، 3، ك 20، 38، 39، ك 55، 4، 20، ك 20، 57، 4.

115) سالُسْت : ك 5 و 4. ك .6 . 3. تيت ليف : ك 21 .22 .3. ك 1 .21 .29.
جُسْتان : ك 19 . 2 . 4. ك 22 . 8 . 10.

116) كانت قبيلة تحمل اسم Gens Numidarum موجودة بناحية خميسة بشرق الجزائر، انظر (Gsell: inscr. Lat. de l'Algérie, I. P 115) وأيضا Gens Numidarum أخرى مثلها بعيدا إلى الغرب انظر: (C.I.L., VIII, 8813 - 8814).

117) ديودور الصقلي : ك 20 . 55 . 4. ويوغَرْطة لِسالُسْت : ك 91 . 4 . 6 وكذلك ك 78 . 4.

118) يقول پْلين : ك : 5 . 5 مدينة سلا كانت معرضة لهجمات قبيلة الأطلوليين (الجيتولية) وكذلك ميلا Méla ك 3 . 104، وپْلين أيضا ك 9 . 127.

119) هؤلاء العلماء هم : Carl Riter, Movers, Carette, Tissot, Vivien de Saint- Martin, Quedenfeldt.

120) ارجع للجزء الأول، ص 7 . 336 بترقيم الأصل الفرنسي.

121) من المحتمل أن هذه الأسماء بإفريقيا الشرقية قد اشتقت من الإغريقية باربارُوي Barbaroi، كما اسم البرابر Bràber. في شمال إفريقيا مشتق من اللاتانية برباري Barbari. ولكن ليس هناك علاقة مباشرة بين هذه المستعمرات عن الإغريقية وعن اللاتانية.

122) وهناك مجموعة ثالثة وهم الروم عند العرب أي البيزنطيون وهؤلاء كانت لهم سيطرة ما على بعض الجهات بالشمال الإفريقي، ولا محل لتفصيل ذكرها هنا. فالعرب لم يتصلوا بالرومان في شمال

إفريقيا وإنما اتصلوا بالبيزنطيين وسمّوهم الروم وحاربوهم، كما اتصلوا بالأفارقة أي البربر المسيحيين، (الذين يستعملون أو لا يستعملون البيزنطية وهي اللغة الإغريقية)، واتصلوا بالطائفة الثالثة وهي الأغلب والأكثر وتتكون من البربر الذين حافظوا على لهجاتهم وعاداتهم. ولم يذكر طائفة أخرى رابعة وهي طائفة البربر اليهود، إذ كانت اليهودية شائعة في كثير من القبائل عند قدوم العرب.

123) بطلمي، ك 4، 1، 5، (ص 585 نشرة مولَرْ).

124) أي مازيك : الجهات الجميلة.

125) Expositio totius mundi dans Reise : Geogr. Lat. Min. P. 123.

126) أي : قبائل المزيكيين المتعددة.

127) دوسْلانْ في ترجمة لابن خلدون، ج 4، ص 495.

128) Movers : Die Phönizier. II. 2. P. 395. Carette. Recherches sur l'origine des tribus. P. 26.

129) الآريون الذين استولوا على السهول العليا الإيرانية وعلى قسم من الهند.

130) يمكن أن نقول متسائلين : هل لم يكونوا غزاة من أصل أجنبي؟ ذلك أن هيرودُت في ك 4، 191 يقول «إن المَكْسي Maxyes يقولون بأن أجدادهم من الطروائيين Troyens) مع العلم بأن هذا القول لا قيمة له. انظر هيرودُت بقلم اكْصيل ص 119-120.

131) لا يزال عند الطوارق بالصحراء قبائل سادة وقبائل خاضعة.

132) لا ندري كيف كان انتقال المُلك قبل گـايا. لأن زيلَلْسـان Zilalsan وهو أبو گـايا لم يتول الملك، إذ تذكر عنه نقيشة بلغتين من دُقَة Dougga أنه كان شوفيت (سبطا) Sufète انظر في هذا : Chabot. Punica. P 210.

133) تيت ليڤْ : ك 29. 29. 8 و 29. 11 وما بعدها.

134) مَسيڤا Massiva طالب بالملك ولم ينله. أما گـوْضا Gauda فقد ناله وخلفه عليه ذريته من بعده، وانتهت سلسلة أبنائه في بطلمي بن يوبا الثاني. وهناك حفيد آخر لمسنيسَا هو دابار Dabar ابن مسوگْرادا Massugrada. وأبوه هذا كانت أمه محظية.

135) في الخطاب الذي عزاه سالُسْت لمسبْسا وهو على فراش الموت. حضَّ مسبْسا الوارثين الثلاثة بأن يحكموا في وفاق كامل، ومعنى هذا أنه حضهم على الحكم في مملكة تحتفظ بوحدتها.

136) كان ليوغرطة بضعة أبناء منهم الصغار ومنهم اليافعون على الأقل أثناء حربه ضد الرومانيين. انظر سالُسْت في مؤلفه «حرب يوغرطة»، ك 28 .1. ك 46 .1. ك 47 .3. ك 62 .1. ك 75 .1. ك 76 .1. واثنان من أبنائه كانا معه معروضين في موكب التمجيد الذي أقامته رومة لمرْيوس المنتصر. انظر تيت ليڤْ في Epit. L. ك 67. وأوتْروب : ك 4 .27 .6. وباوْلُس أورسْيوس في Adv. Pagan ك 5 .15.19 وبعد ذلك بخمس عشرة سنة كان أحد أبناء يوغرطة يعيش في إيطاليا. انظر آپيان Appien في مؤلفه عن الحرب الأهلية: ك 1. 42.

137) في الترجمة الفرنسية بقلم دوسْلان، ج 2، ص 270.

138) تيت ليڤْ : ك 45. 14 يتحدث عن عبيد الملك الذين صاحبوا أحد أبناء مسِنيسًا المبعوث في سفارة إلى روما.

139) نظام الـ Municipe بالفرنسية، هو Municipium باللاتانية، هو نظام مخالف لنظام المدن الحرة. لافمونيكبيوم يقصد به المدينة أو على العموم الجماعة المشاركة لرومة في تحمل الأعباء المالية أو العسكرية بالإكراه، بسبب استيلاء رومة عليها وتبعية تلك لها. وكانت رومة طبعا هي التي تحدد مقدار تلك المشاركة، ومع ذلك تحتفظ الجماعة أو المدينة غالبا بنظامها الخاص وأعرافها وقانونها، كما تعين هي موظفيها العلاة.

140) تيت ليڤْ : ك 29. 29. 9.

141) تيت ليڤْ : ك 24. 48. 1. وكذلك ك 30. 11. 4. وانظر الجزء الثالث ص 179-180 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

142) في الفرنسية Prétorienne في اللاتانية Praétorianus وهو الحرس الذي يمكن أن نقول عنه «حرس بريطورياني». ولكن اللفظ هنا لا يدل على شيء، إذ المقصود الحقيقي هو الحرس القاسي الذي كان للقياصرة الشداد، لذلك فضلتُ الانتقال إلى تراثنا التاريخي وعرّبتُه بالحَرَس الزيادي نسبة لزياد ابن أبيه الوالي بالعراق المشهور بقسوة جيشه. وأنا متأكد أنه لا مانع من هذه الترجمة.

143) لفظ «الكوم» يُستعمل بالمغرب أيضا كما هو معروف، ولكنه من أصل جزائري، جاء به الفرنسيون وسمّوا به الفِرق التي كوّنوها هنا فذاع استعماله.

144) وقَفَ لَكومازيس مَلِكُ المَسيليين والوصيّ عليه ماجيتول Magaetule في وجه مسِنيسًا بجيش من 15000 من المشاة و 10.000 فارس. (عن أبيان في 11). ولما عاد مسِنيسًا إلى مملكته سنة 205 ق.م جمع في بضعة أيام 6000 من المشاة و 4000 فارس، (عن تيت ليڤْ ك 32، 13، 29). وفي 204 اتصل سيفَكْس بالقرطاجيين بجيش من 50.000 راجل و 10.000 فارس، (عن پوليب ك 14، 1، 14) و(تيت ليڤْ ك 29، 35، 11). وفي 202 مسِنيسًا، الذي استعاد مملكته، يقدم لسپْيون 6000 راجل و 4000 فارس، (عن پوليب ك 15، 5، 12). وفي 150 قاد مسِنيسًا جيشا من 50.000 فرد، (عن أبيان في 71 و73). ويحكي پولْ أوروز Paul Orose (في Adv. Pagan ك 5، 15، 10) أن يوغرطة خاض معركة ب 60.000 فارس، (وفي ك 5، 15، 18) أن يوغرطة وبوكوس خاضا معركة ضد الرومانيين بجيش من 90.000 جندي. وهذه أرقام لا يُعتمد عليها... إلخ.

145) سترابون : ك 17، 3، 12.

146) L. Charrier , Descr. des monnaies de la Numidie... P. 10.

147) فتكون م ـ ن إشارة لاسم مسِنيسان Masinissan، وربما إشارة إلى مكوْسان (هو مسيْسا) Mikiwçan، ويكون ك ـ ن من كُلوسان Gulussan أو من كَوْضان Gaudan، ويكون أ ـ ل من أذَرْبَعْل.

148) ارجع لصفحة 104 بالترقيم الفرنسي.

149) In Vatinium, 5, 12.

150) سترابون: ك 2، 5، 35.

151) سالُسْت : يوغرطة ك 17 .5 ويذكر قِطْعان ماشية الأهالي في ك 20 .3 وك 46 .5 وك 48 .4 وك 75 . 4 وك 90 .2.

152) پوليب : ك 12 . 3 . 4-3، وارجع لهذا النص في الجزء الرابع ص 40 بالترقيم الأصل الفرنسي.

153) تيت ليڤْ : ك 29 .31 .8 وپومْبونْيو مِيلاَ Méla في ك 1 .41.

154) ارجع لصفحة 106 بالترقيم الأصلي الفرنسي من هذا الجزء.

155) يوغَرطة : ك 90 .1.

156) سترابون : ك 17 .3 .7.

157) ارجع للجزء الأول، ص 235 بالترقيم الأصلي الفرنسي.

158) بومبونيوس مِيلاَ : ك 1 .41-42 وسالُسْت : يوغرْطة ك 19 . 5.

159) في هذا الجزء ص 59-61 و 74-75 بالترقيم الأصلي.

160) Odyssée, IV, 85-89, Pindare, Pyth. IX, 6. Oracles attribuées à la Pythie, apud Hérodote, IV,155 et 157, 187 et 189. Elien Nat. Anim. VII, 8 , XVI, 33.

161) ألعاب وطنية كان آهل أثينا يقيمونها تمجيدا لربّتهم أثينا.

162) ارجع للجزء الثاني من هذا الكتاب، ص 364 بالترقيم الفرنسي الأصلي، في التعليق رقم 1.

163) پوليب : ك 36 ,16 ,7-8 وسْترابون : ك 17 ,3 ,15، وقَوْل سترابون هذا إنما هو صدى لقول پوليب السابق.

164) ديودور الصقلي : ك 32 . 17، وهذا منقول عن پوليب : ك 8 .36 .16.
والپلِثْر Plèthre في الزراعة مقياس للمساحة يبلغ 100 قَدَم في كل ضِلْع، أي 10.000 قدم مربَّعة، أي نحواً من (876 م) وهو من المقاييس عند الإغريق القدماء.

164 مكرر) بْلِيثْر Plèthre. البليثر الواحد من الأرض يعادل 874 متر مربعاً، وعليه، فتكون مساحة كل مِلْك 874 هكتاراً.

165) پومْبونْيوس ميلاَ Méla : ك 1 .28، ك 1 .30، ك 3 .105.

166) البواصُو Boisseau من مقاييس الموادّ الجافة، يَزِن نحواً من 13 كيلو.

167) سترابون : ك 17 .3 .11 نقلا عن پوسيدِنْيوس ؟

168) «حرب إفريقيا» : ك Bellum africum. L XV, 1 .65 ,1

169) يغلب على الظن أن العمليات بين مربّي الماشية والفلاحين كانت تتم بالمقايضة، لا بالشراء والبيع.

170) يكون تقسيم الأراضي وتوزيعها في القرى البربرية من اختصاص هيأة الجماعة، أي أنه من الناحية المبدئية راجع لمجلس شيوخ الأُسَر. ومن جهة أخرى كان الفاصيون Vacéens بأسبانيا يوزعون سنويا الأرض للزراعة، ولكن المحاصيل تبقى مشتركة بين الجميع. (انظر ديودور الصقلي : ك 5 . 34 . 3).

171) كانت هذه القلعة تسمى إسْموك Ismuc، وكانت تقع على عشرين ميلاً من زاما Zama العاصمة القديمة لنوميديا الأول.

172) حرب يوغرطة» لِسالُسْت : ك 67 .1.

173) ديودور الصقلّي : ك 3 .49 .3.

174) بروكبْيوس، «الحرب الوندالية» : ك 2 . 20 . 33.

175) في هذا المضمار يعقد مؤلّف «الحرب الأسبانية» Bellum Hispaniense (3 . 8) مقارنة قوية البراهين بين إسبانيا و إفريقيا.

176) فيما يخص هذه المدن، ارجع للجزء الثاني، ص 111 وما بعدها في الترقيم الفرنسي الأصلي.

177) ارجع للجزء الثاني، ص 158 وما بعدها، بالترقيم الأصلي الفرنسي.

178) الاسم السامي هو مقْوم شماش، أي مقام (مدينة شَماش وهو الإله المعبود قديما). كما أن لِكْسوس تعرف في المصادر العربية باسم تشْمس، فالاسم إذن ليس مدينة الشمس، بل مقام الإله شماش.

179) في الصحراء يتزاحم الناس في الأماكن القليلة التي يساعد فيها وجود الماء على الزراعة، ومن هنا كان وجود المدن. لكن هذا الأمر لا يكون أحيانا سوى مظهر، لأن كثيرا من المدن إنما هي في الحقيقة تجمّع لامفرّ منه لعدة قرى، كل واحدة منها أحاطت نفسها بسور.

180) ديودور الصقلي : ك 20 .57 .5-6. وك 20 .58 .1، وانظر ج 2 ص 95 وج 3 ص 51 و52 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

181) سالُسْت : ك 69 .3. سترابون : ك 3،17 .12 الذي تذكر مخطوطاتُه واتّا Ouata عوضاً عن واكـا Ouaga، والصحيح هو واكـا، أي (ڤاكا Vaga).

182) سالُسْت في «حرب يوغرطة» : ك 1.56. وك 1.57.

183) تيت ليڤْ : ك 30 . 29 . 9 (وفي مخطوطة أخرى له ذُكرت باسم نَرْكارا Narcara) كما ذكرت بصيغة المفعولية، أي نرْگارون Nargaron في پوليب : ك 15. 5. 14. انظر الجزء الثالث. ص-262-261 بالترقيم الأصلي الفرنسي.

184) اسم سرْتا Cirta كان يُطلق أيضا على مدينة سيكّا Sicca التي عُرفت بأنها «المستوطنة اليولْيوسية الڤينوسية سرْتا الجديدة سيكا – أي Colonia Iulia Veneria cirta Nova Sicca». ارجع لديوان النقوش اللاتانية C.I.L الجزء الثامن، في الأرقام الآتية : 16258، 1632، 1641، 1648، 15883.، وموضوع سرْتا قْسنْطينة، وسرْتا سيكا يثير نقاشاً حاداً بين المؤرخين حول جملة من القضايا في حرب يوغرطة. (انظر مقدمتنا لترجمتنا العربية لـ «حرب يوغرطة».

185) سالُسْت في «حرب يوغرطة» : ك 76 . 4.

186) السبب هو أن نهر حيْدرة Haïdra يمر على بعد عشرة كيلومترات منها في ناحية الشمال الغربي، فالماء إذن قريب المنال.

الفهرس

الجـزء الخامس

مطبعة المعارف الجديدة